منشورات جامعة دمشق
كلية الشريعة
قسم العقائد والأديان

محاضرات في
التاريخ الإسلامي

إعداد الدكتور
بديع السيد اللحام

١٤٤١ - ١٤٤٢ هـ
٢٠١٩ - ٢٠٢٠ م

جامعة دمشق

كلية الشريعة

قسم العقائد والأديان

محاضرات في التاريخ الإسلامي

إعداد

الدكتور بديع السيد اللحام

١٤٣٥ – ١٤٣٦

جامعة دمشق

٢٠١٤ – ٢٠١٥

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المحتويات

مقدمـــــــــــــة	٧
القسم الأول أحداث الفتنة إلى قيام الدولة الأموية ٩ – ٦٢	
الروايات الأولى الجامعة لأخبار الفتنة ونقدها	١١
تحليل الرواية	١٦
تفسير حوادث الفتنة	١٩
مبايعة عليّ بن أَبي طالِبٍ رضي الله عنه	٢٢
عليّ وأصحاب الجمل	٣٠
وقعة الجمل	٣٧
بين عليّ ومُعاويَة	٤٥
وقعة صفين والتحكيم	٥٠
تفسير أحداث صفِّين وما تلاها	٥٤
إِمارةُ الحسن بن علي	٥٧
العوامل التي أدت إلى انتقال الحكم إلى الأمويين	٦٠
القسم الثاني الخلافة الأموية (٤٠ – ١٣٢هـ) ٦٣ – ١١٨	
مُعاويَة بن أبي سفيان	٦٧
يزيد بن مُعاويَة	٧٢
فاجعة كربلاء	٧٣

وقعة الحرة	٨١
خروج عبد الله بن الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما	٨٧
شأْنُ مُعاويَة الأصغر (الثاني)	٨٩
خلافة عبد الله بن الزُّبَيْرِ	٩١
حركة المختار الثقفي	٩٢
عبد الملك بن مروان	٩٣
فتنة ابن الأشعث	٩٤
الوليد بن عبد الملك	١٠٨
سليمان بن عبد الملك	١١٠
عمر بن عبد العزيز	١١١
يزيد بن عبد الملك	١١٢
هشام بن عبد الملك	١١٣
الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١١٤
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١١٥
مروان بن محمد ونهاية الدولة الأموية	١١٥
السِّمات العامَّة للدولة الأموية	١١٧
القسم الثالث موجز الخلافة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦ هـ) ١١٩- ٢٠٣	
قيام الخلافة العباسية	١٢١
عصور الدولة العباسية	١٢٤
العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٤٧ هـ) خلفاء عصر القوة	١٢٥- ١٥١
أبو العباس السفاح	١٢٧

أبو جعفر المنصور	١٢٨
المهدي	١٣١
الهادي	١٣٣
هارون الرشيد	١٣٤
الأمين	١٣٦
المأمون	١٣٧
المعتصم	١٣٩
هارون الواثق	١٤٠
جعفر المتوكل	١٤١
الدول المنفصلة في هذه الفترة	١٤٣
الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨ – ٤٢٢ هـ)	١٤٥
دولة بني مدرار (١٤٠ – ٢٩٧ هـ)	١٤٧
الدولة الرستمية (١٦٠ – ٢٩٦ هـ)	١٤٨
دولة الأدارسة (١٧٢ – ٣٧٥ هـ)	١٤٩
دولة الأغالبة (١٨٤ – ٢٩٦ هـ)	١٥٠
العصر الثاني (٢٤٧ – ٦٥٦ هـ) (عصر الخلفاء الضعفاء)	١٥٣– ٢٠٥
أولاً – نفوذ القادة والسلاطين	١٥٥
أ – النفوذ التركي (٢٤٧ – ٣٢٠ هـ)	١٥٥
ب – نفوذ البويهيين (٣٢٠ – ٤٤٧ هـ)	١٦٣
جـ – النفوذ السلجوقي (٤٣٢ – ٥٤٧ هـ)	١٦٨
د – استقلال الخلفاء ببغداد إلى نهاية العباسيين (٥٤٧ — ٦٥٦هـ)	١٧٣
ثانياً – أهم الدول المستقلة في العصر العباسي الثاني	١٧٩

الدولة الطولونية	١٨١
الدولة الفاطمية (العبيدية) (٢٩٧ – ٥٦٧ هـ)	١٨٢
الدولة الحمدانية (٣١٧ – ٣٩٤ هـ)	١٨٤
الدولة الأخشيدية في مصر (٣٢٣ – ٣٥٨ هـ)	١٨٥
ملوك الطوائف في الأندلس (٤٢٢ – ٤٨٤ هـ)	١٨٦
دولة المرابطين (٤٤٨ – ٥٤١ هـ)	١٨٨
دولة الموحدين (٥٤١ – ٦٦٨ هـ)	١٩٠
الدولة الزنكية (٥١١ – ٦٦٠ هـ)	١٩٢
الدولة الأيوبية (٥٦٧ — ٦٤٨هـ)	١٩٣
ثالثاً – أهم الأحداث	١٩٥
أ – الثورات	١٩٥
ثورة الزنج (٢٥٥ – ٢٧٠ هـ)	١٩٥
الحركة القرمطية (٢٨٧ – ٤٧٠ هـ)	١٩٧
ب – المعارك الكبرى	١٩٩
معركة ملاذ كرد (٤٦٣ هـ)	١٩٩
الحروب الصليبية (٤٨٩ – ٦٩٢ هـ)	١٩٩
الغزو المغولي ونهاية الخلافة العباسية (٦٥٦ هـ)	٢٠٣
أسباب وعوامل انهيار الدولة العباسية	٢٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل الأيامَ دولاً، وأَمَرنا أَنْ نضْرِبَ في فِجاجِ الأَرْض ونَنْظُرَ لنَعْتَبِرَ.

والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنا محمَّدٍ سيِّدِ البَشَرِ، الذي أَخْبَرَنا مِنْ أَخْبارِ مَنْ تقَدَّمَ ما فيه الدروس لنا والعِبَر.

أما بعد :

فيسعدني أن أضع بين يدي طلبتنا الأعزاء هذه المذكرة في التاريخ الإسلامي محاولاً من خلالها تغطية مفردات هذا المقرر وفق الخطية الدرسيَّة المُعتمدة.

هذا وقد تضمَّنت مباحثُ هذِه المُذكِّرة ثلاثة أَقسامٍ :

القسم الأول : أحداث الفتنة الكبرى إلى قيام الخلافة الأموية. وقد اعتمدتُ في تحليلِ أحداثِها ونقد رواياتها على ما حقَّقه أستاذُ الأساتيذ في التاريخ الدكتور يوسف العش رحمه الله تعالى، فقد كان موفَّقاً في تحقيقه لمواقف الصحابة وتحليلها.

القسم الثاني : الخلافة الأموية وأهم الأحداث التي وقعت فيها، ذيلته بنظرة عامة حول هذه الدولة.

القسم الثالث : موجز عن الخلافة العباسية منذ قيامها إلى سقوط بغداد بيد المغول سنة (٦٥٦هـ).

هذا وقد رأيت أن أقسم الدولة العباسية إلى عصرين اثنين خلافاً لما ذهب إليه كثيرٌ مِنَ المؤرِّخين المُعاصرين من تقسيمها إلى أربعةِ عصورٍ، بل إنَّ بعضَهم يبالغُ فيَصل في تقسيمه إلى جعل الخلافة العباسية ستَّة عصورٍ .

وإنما عدلت عن تقسيم المؤرِّخين الذين أشرتُ إليهم لأنَّني رأَيْتُ أَنَّ الطَّوْرَ الأوَّل (عصر القوَّة) كان للخلفاء الأمر والنهي، فهم يملكون ويحكمون ويسيرون الجيوش

ويعينون القادة وولاة الأمصار، أما خلفاء الطور الثاني فقد وصلوا إلى حالة مِنَ الضعف لم يعد بعضهم يستطع أَنْ يحكم حتى على أهل بيته، بل أصبحوا ألعوبة بيد المتنفذين مِنَ القادة والسلاطين، فلا فرق بعد ذلك بين أَنْ يكون صاحب السلطة الحقيقي ديْلَمياً أم سُلْجوقيّاً أم قائد جند مِنَ الترك أو الفرس.

هذا وقد أشرت إلى أهم الأحداث والحركات التي وقعت في كل عصر مِنَ العصور.

وقد تضمَّن هذا القسم الكلام عن النزعات الاستقلالية التي حدَثت في هذا العصر، والتعريف بأهم وأشهر الدول التي انفصلت عن جسم الدولة الرئيسي.

أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في وضع لبنة في هذا المقرر تساعد على البناء عليها للوصول إلى صورة أفضل نقدمها للأخوة الطلاب أولاً ولدارسي التاريخ الإسلامي ثانياً. وأسأله سبحانه لطلابنا النَّفع والنجاح، وأن يجعلني وإياهم ممن يستفيد من عِبَرِ التَّاريخِ ودُروسِهِ.

ولابدَّ لي قبل أن أنهي كلامي من توجيه الشكر إلى زميلي الدكتور حسان القاري لما أبداه من ملاحظات وقدَّمه من تصحيحات فجزاه الله عني وعن طلاب العلم كلَّ خير.

وكتب

د. بديع السيد اللحام

القسم الأول

أحداث الفتنة الكبرى

إلى قيام الخلافة الأموية

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الروايات الأولى الجامعة لأخبار الفتنة ونقدها

لعلَّه من حسن الحظ أنَّ الفتنة قد وردت مروية بروايات قديمة غير مقطَّعة، وبسياق تاريخي يكاد يكون تاماً، وهو يحيط بكثير من ظروف الحادثة، فهي حَرِيَةٌ بأن تكون معياراً دقيقاً، وسنستعرض تلك الروايات ذات السياق التاريخي.

بين أيدينا – بحسب المصادر التاريخية المتوافرة – سبع روايات تسرد الفتنة سرداً متتابعاً، وهي روايات متفاوتة الثبوت والصحة وذلك على النحو التالي:

١ – رواية يزيد بن حبيب (٥٣ – ١٢٨هـ) مفتي مصر في زمنه. وهذه الرواية لا نرى صحة نسبتها إليه لأنها واهية السند، وفي أخبارها غرابة، ثم إنه لم يشهد الحادثة.

٢ – رواية ابن شهاب الزهري محمد بن مسلم (٥٨ – ١٢٤ هـ) محدث الشام والحجاز. والرواية المنسوبة إليه ضعيفة سنداً، ومتناقضة المتن فقد نصت على أن طَلْحَة كان مِنَ الخارجين على عثمان، وهذا يناقض تماماً خروجه على عليّ رضي الله عنه مطالباً بالقصاص من قتلة عثمان.؟!

٣ – رواية الزُّبَيْر بن العوام رضي الله عنه، الصحابي الجليل وأحد العشرة المبشرين، وهي رواية موضوعة عليه منكرة ورواتها مجهولون.

٤ – رواية سعيد بن المسيب (١٣ – ٩٤هـ) سيد التابعين وأحد فقهاء المدينة السبعة، والرواية المنسوبة إليه موضوعة عليه لا تصح، ففي سندها انقطاع ونكارة، وهي لا تدل على مستوى الاحترام الذي كان يكنه ابن المسيب لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم.

٥ – رواية أبي خنيس سهم الأزدي: الذي حضر الحادثة وعاش إلى زمن عمر بن عبد العزيز.

٦ – رواية الأحنف بن قيس (... – ٧٢ هـ) سيد بني تميم، المشهور بالحلم ورجاحة العقل، وقد عاصر الفتنة وكان قريباً منها.

٧ – رواية أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري، وقد شهد الفتنة وعرف أحوالها.

رواية أبي سعيد مولى أبي أُسيد لأحداث الفتنة

أبو سعيد ممن شاهد الحادثة وحضرها بنفسه، ونقلها عنه أبو نضرة الذي يعرف أبطالها، وقد اجتمع بهم، (طَلْحَة بن عبيد الله وعليّ بن أَبي طالِبٍ رضي الله عنهما) وأبو نضرة الناقل عن أبي سعيد كان قد أدرك موقعة الجمل أيضاً. فإذا ما تمت المقارنة بين رواية أبي سعيد هذا مع الأخبار الجزئية التي وردت في مصنَّفات الحديث المعتمدة، تكوَّن لدينا رواية شبه متكاملة وهي أقرب الروايات التاريخية للمصداقية والصحَّة.

هذا وسيتمُّ تناول نصِّ هذه الرواية من خلال تقسيمها إلى خمسة أقسام، يتبعها شيءٌ مِنَ التحليل والمقارنة يساعد على توضيح الصورة.

هذا وسيتمُّ سَرْدُ هذِه الرِّوايةِ مِنْ طَرِيقِ ابنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ [تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٠ ومابَعدها)] عَنْ يَعْقوبَ بْنِ إِبْراهيمَ، قالَ: حَدَّثَنا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمانَ التَّيْميُّ، قالَ: حَدَّثَنا أَبي، قالَ: حَدَّثَنا أَبو نَضْرَةَ، عَنْ أَبي سَعيدٍ مَوْلَى أَبي أُسَيْدٍ الأَنْصاريِّ، قالَ:

[اجتماع عُثْمان رضي الله عنه بوفد المحتجين المصريين، وحواره معهم]

سَمِعَ عُثْمانُ أَنَّ وَفْدَ أَهْلِ مِصْرَ قَدْ أَقْبَلوا، فاسْتَقْبَلَهُمْ – وَكانَ في قَرْيَةٍ لَهُ خارِجَةً مِنَ المَدينَةِ – فَلَمّا سَمِعوا بِهِ، أَقْبَلوا نَحْوَهُ إِلَى المَكانِ الَّذي هوَ فيهِ، قالَ: وَكَرِهَ أَنْ يَقْدَموا عَلَيْهِ المَدينَةَ، فَأَتَوْهُ، فَقالوا لَهُ: ادْعُ بِالمُصْحَفِ، فَدَعا بِالمُصْحَفِ، فَقالوا لَهُ: افْتَحِ

التّاسِعَةَ – وَكانوا يُسَمّونَ سورَةَ يونُسَ التّاسِعَةَ – قالَ: فَقَرَأَها حَتَّى أَتَى على هَذِهِ الآيةِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ على اللهِ تَفْتَرونَ﴾ [يونس: ٥٩]، فَقالوا لَهُ: أَرَأَيْتَ ما حَمَيْتَ مِنَ الحِمَى؟ آللَّهُ أَذِنَ لَكَ أَمْ على اللهِ تَفْتَري!

فَقالَ: امْضِهِ، نَزَلَتْ في كَذا وَكَذا، قالَ: وَأَمّا الحِمَى فإِنَّ عُمَرَ حَمى الحِمَى قَبْلي لإِبلِ الصَّدَقَةِ، فَلَمّا وُلّيتُ زادَتْ إِبِلُ الصَّدَقَةِ فَزِدْتُ في الحِمَى لِما زادَ في إِبِلِ الصَّدَقَةِ، امْضِهِ.

قالَ: فَجَعَلوا يَأْخُذونَهُ بِالآيَةِ، فَيَقولُ: امْضِهِ، نَزَلَتْ في كَذا وَكَذا.

قالَ: والَّذي يَتَوَلَّى كَلامَ عُثْمانَ يَوْمَئِذٍ في سِنِّكَ، قالَ: يَقولُ أَبو نَضْرَةَ، يَقولُ ذاكَ لي أَبو سَعيدٍ، قالَ أَبو نَضْرَةَ: وَأَنا في سِنِّكَ يَوْمَئِذٍ، قالَ: وَلَمْ يَخْرُجْ وَجْهي يَوْمَئِذٍ...

قالَ: ثُمَّ أَخَذوهُ بِأَشْياءَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْها مَخْرَجٌ، قالَ: فَعَرَفَها، فَقالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتوبُ إِلَيْهِ.

قالَ: فَقالَ لَهُمْ: ما تُريدونَ؟

قالَ: فَأَخَذوا ميثاقَهُ، وَكَتَبوا عَلَيْهِ شَرْطاً – قالَ: وَأَخَذَ عليهم أَلا يَشُقّوا عَصاً، وَلا يُفارِقوا جَماعَةً ما قامَ لَهُمْ بِشَرْطِهِمْ.

قالَ: فَقالَ لَهُمْ: ما تُريدونَ؟ قالوا: نُريدُ أَلا يَأْخُذَ أَهْلُ المَدينَةِ عَطاءً.

قالَ: لا فَإِنَّما هَذا المالُ لِمَنْ قاتَلَ عَلَيْهِ، وَلِهَؤُلاءِ الشُّيوخِ مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

قالَ: فَرَضوا بِذَلِكَ، وَأَقْبَلوا مَعَهُ إِلَى المَدينَةِ راضينَ، فَقامَ فَخَطَبَ، فَقالَ: إِنّي ما رَأَيْتُ واللهِ وَفْداً في الأَرْضِ هُمْ خَيْرٌ لِجَوْباتي مِنْ هَذا الوَفْدِ الَّذينَ قَدِموا عَلَيَّ ...، أَلا مَنْ كانَ لَهُ زَرْعٌ فَلْيَلْحَقْ بِزَرْعِهِ، وَمَنْ كانَ لَهُ ضَرْعٌ فَلْيَحْتَلِبْ.

[حادثة الراكب والكتاب]

قالَ: ثُمَّ رَجَعَ الوَفْدُ المِصْرِيّونَ راضينَ، فَبَيْنا هُمْ في الطَّرِيقِ إذا هُمْ بِراكِبٍ يَتَعَرَّضُ لَهُمْ ثُمَّ يُفارِقُهُمْ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، ثم يفارقهم ويتبينهم قالَ: قالوا لَهُ: ما لَكَ؟ إِنَّ لَكَ لأَمْراً! ما شَأْنُكَ؟

قالَ: فَقالَ: أَنا رَسولُ أَميرِ المُؤْمِنينَ إِلَى عامِلِهِ بِمِصْرَ.

فَفَتَّشوهُ، فَإِذا هُمْ بِالكِتابِ على لِسانِ عُثْمانَ، عَلَيْهِ خاتَمُهُ إِلَى عامِلِهِ بِمِصْرَ أَنْ يُصَلِّبَهُمْ أَوْ يُقَتِّلَهُمْ أَوْ يُقَطِّعَ أَيْديَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلافٍ.

قالَ: فَأَقْبَلوا حَتَّى قَدِموا المَدينَةَ، قالَ: فَأَتَوْا عَلِيّاً، فَقالوا: أَلَمْ تَرَ إِلَى عَدوِّ اللهِ! إِنَّهُ كَتَبَ فينا بِكَذا وَكَذا، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَحَلَّ دَمَهُ، قُمْ مَعَنا إِلَيْهِ، قالَ: واللهِ لا أَقومُ مَعَكُمْ ... إِلَى أَنْ قالوا: فَلِمَ كَتَبْتَ إِلَيْنا؟ فَقالَ: واللهِ ما كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ كِتاباً قَطُّ، قالَ: فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ قالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلِهَذا تُقاتِلونَ، أَوْ لِهَذا تَغْضَبونَ!

قالَ: فانْطَلَقَ عَلِيٌّ، فَخَرَجَ مِنَ المَدينَةِ إِلَى قَرْيَةٍ.

قالَ: فانْطَلَقوا حَتَّى دَخَلوا على عُثْمانَ، فَقالوا: كَتَبْتَ فينا بِكَذا وَكَذا!

قالَ: فَقالَ: إِنَّما هُما اثْنَتانِ: أَنْ تُقيموا عَلَيَّ رَجُلَيْنِ مِنَ المُسلِمينَ، أَوْ يَميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كَتَبْتُ وَلا أَمْلَلْتُ وَلا عَلِمْتُ.

قالَ: وَقَدْ تَعْلَمونَ أَنَّ الكِتابَ يُكْتَبُ على لِسانِ الرَّجُلِ، وَقَدْ يُنْقَشُ الخاتَمُ على الخاتَمِ.

قالَ: فَقالوا: فَقَدْ واللهِ أَحَلَّ اللهُ دَمَكَ، وَنَقَضْتَ العَهْدَ والميثاقَ.

قالَ: فَحاصَروهُ.

[منعُ الماءِ عنْ عُثْمانَ وحِوارُه معَ المحتَجِّينَ في هَذا الشَّأْنِ]

قال أبو سعيد[1]: أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ عُثْمانُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ذاتَ يَوْمٍ، فَقالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ.

قالَ: فَما سَمِعَ أَحَداً مِنَ النّاسِ رَدَّ عَلَيْهِ إلا أَنْ يَرُدَّ رَجُلٌ في نَفْسِهِ.

فَقالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ هَلْ عَلِمْتُمْ أَنّي اشْتَرَيْتُ رومَةَ مِنْ مالي يُسْتَعْذَبُ بِها، فَجَعَلْتُ رِشائي مِنْها كَرِشاءِ رَجُلٍ مِنَ المُسلِمينَ! فَقيلَ: نَعَمْ. قالَ: فَما يَمْنَعُني أَنْ أَشْرَبَ مِنْها حَتَّى أُفْطَرَ على ماءِ البَحْرِ!؟

قالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ هَلْ عَلِمْتُمْ أَنّي اشْتَرَيْتُ كَذا وَكَذا مِنَ الأَرْضِ فَزِدْتُهُ في المَسْجِدِ؟ قيلَ: نَعَمْ، قالَ: فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَحَداً مِنَ النّاسِ مُنِعَ أَنْ يُصَلّيَ فيهِ قَبْلي!؟

قالَ: أَنْشُدُكُمُ الله، هل سمعتم نبيَ الله صلى الله عليه وسلَّم يذكر كذا وكذا – أشياء في شانه، وَذِكْرِ اللهِ إيّاهُ أَيْضاً في كِتابِهِ المُفَصَّلِ –.

قالَ: فَفَشا النَّهْيُ.

قالَ: فَجَعَلَ النّاسُ يَقولونَ: مَهْلا عَنْ أَميرِ المُؤْمِنينَ، قالَ: وَفَشا النَّهْيُ.

قالَ: وَقامَ الأَشْتَرُ – قالَ: وَلا أَدْري يَوْمَئِذٍ أَوْ في يَوْمٍ آخَرَ – فَقالَ: لَعَلَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ وَبِكُمْ! قالَ: فَوَطِئَهُ النّاسُ، حَتَّى لَقيَ كَذا وَكَذا، قالَ: فَرَأَيْتُهُ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى، فَوَعَظَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ، فَلَمْ تَأْخُذْ فيهِمُ المَوْعِظَةُ.

وَكانَ النّاسُ تَأْخُذُ فيهِمُ المَوْعِظَةُ أَوَّلَ ما يَسْمَعونَها، فَإِذا أُعيدَتْ عَلَيْهِمْ لَمْ تَأْخُذْ فيهِمْ.

---

[1] تاريخ الطبري (٣/ ٤١٤– ٤١٥).

[رؤْيا عثمان رضي الله عنه ومقتَله]

قالَ: ثُمَّ إِنَّهُ فَتَحَ البابَ وَوَضَعَ المُصْحَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قالَ: وَذاكَ أَنَّهُ رَأَى مِنَ اللَّيلِ أَنَّ نبى اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقولُ: أَفْطِرْ عِنْدَنا اللَّيْلَةَ[1].

دَخَلَ على عُثْمانَ رَجُلٌ، فَقالَ: بَيْني وَبَيْنَكَ كِتابُ اللهِ – قالَ: والمُصْحَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ – قالَ: فَيَهْوي لَهُ بِالسَّيْفِ، فاتَّقاهُ بيَدِهِ، فَقَطَعَها – فَقالَ: لا أَدْري أَباناها (فصَلَها) أَمْ قَطَعَها وَلَمْ يَبِنْها (لم يفصلها) –

قالَ: فَقالَ: أَما واللهِ إِنَّها لأَوَّلُ كَفٍّ خَطَّتِ المُفَصَّلَ[2].

قالَ وَأَخَذَتِ ابْنَةُ الفُرافِصَةِ [زوجةُ سيدنا عُثْمانَ رضي الله عنه] حليلَها فَوَضَعَتْهُ في حِجْرِها، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ، فَلَمّا قُتِلَ تجافَتْ عنهُ، فَقالَ بَعْضُهُمْ: قاتَلَها اللهُ! ما أَعْظَمَ عَجيزَتَها! قالَ: فَعَلِمْتُ أَنَّ عَدوَّ اللهِ لَمْ يُرِدْ إِلّا الدُّنْيا.

تحليل الرواية:

١ – لاحظنا أَنَّ سيدَنا عثمانَ رضي الله عنه عِنْدما عَلِمَ بالوفْدِ المصريِّ لم يشَأْ أنْ يستقبِلَهم في المدينَة.

---

[1] كما نلاحظ فإنَّ أبا سعيدٍ اختَصرَ ما يتعلَّق بالرُّؤيا التي رآها عثمانُ اختِصاراً شديداً، وقَدْ جاءَ تفصيلُ ما يتعلَّق في هذه الرُّؤيا في تَرجَمةِ عُثمانَ بنِ عفّانَ رضي الله عنه في (تاريخِ مَدينَةِ دِمشقَ) لابنِ عساكِرَ (٣٩/٣٨٤–٣٩٠)، وفي (الرّياضِ النَّضِرَة) للمُحبِّ الطَّبريِّ (٣/٦٧–٦٨)، حيثُ بَسَطا القولَ فيها وذَكرا رواياتٍ عديدةٍ لها.

[2] قال الطبري: وَقالَ في غَيْرِ حَديثِ أَبي سَعيدٍ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ التُّجيبيُّ، فَأَشْعَرَهُ مِشْقَصاً، فانْتُضِحَ الدَّمُ على هَذِهِ الآية: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] قالَ: فَإِنَّها في المُصْحَفِ ما حُكَّتْ. تاريخ الطبري: (٤/٣٨٤).

٢ – ثم إنَّ عُثْمان رضي الله عنه والمحتجّينَ تَحاكَموا إلى كِتابِ اللهِ، وانتهى الحوار بينهم إلى تحديد شروطٍ يلتزمها الطَّرفان، أوضَح النَّصُّ شرطاً واحداً منها، وقد وَردَ في روايةِ محمدِّ بنِ سيْرينَ هَذهِ الشُّروطِ[1]، قالَ: فاصطلحوا على خمسٍ: على أنّ المَنْفيَّ يُقْلب، والمحرومَ يُعْطَى، ويوفَّرَ الفَيْءُ، وَيُعْدَلَ في القسمِ، ويُستَعْملَ ذو الأَمانَةِ والقوَّة).

٣ – في قصَّةِ الرّاكبِ – الذي ادَّعى أنَّه يَحمِلُ رِسالةً من عُثْمانَ – شيءٌ مُريبٌ للغايةِ، فالمُفْترض أَنَّ الرَّسولَ المُكلَّفَ بمهمَةٍ سرّيةٍ أنْ لا يكونَ مَعْروفاً، وأنَّ يَكونَ مُتحرزاً منْ أنْ يُكْشَف، أَمّا حاملُ الكِتابِ في هذِه الحادِثَةِ فقَدْ كانَ يتعرَّضُ للوفَدِ، ويَلْفِتُ الأَنْظارَ نحوه، كأنَّه يُحرِّضهم على كشفِ حالِهِ واطلاعِهم على مُهمَّتِه الخَطيرة؟!.

٤ – ثمَّ كشفَتْ لنا الرِّوايَةُ أمراً شديدَ الخُطورَة، وهو أَنَّ أَعْضاءَ الوَفْدِ ادَّعوا أنَّهم تلقَّوا كُتباً مِنْ سيِّدنا عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه يحضُّهم على الخروجِ من مصرَ والحضورِ إلى المدينةِ للقضاءِ على عُثمان رضي الله عنه؟! وسيدُنا عليٌّ رضي الله عنه قدْ نَفى ذلِكَ نفياً مُطْلقاً.

هذا وقد ذكرَ ابنُ كثيرٍ في (تاريخه)[2] نصَّ كتابٍ آخَرَ ادُّعيَ أَنَّ الذي كتَبَتْه السَّيدةُ عائشة رضي الله عنها. فقدْ روى من طريقِ أَبي مُعاويَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنْ مَسْروقٍ قالَ: قالَتْ عائِشَةُ حينَ قُتِلَ عُثْمانُ: تَرَكْتُموهُ كالثَّوْبِ النَّقيِّ مِنَ الدَّنَسِ ثُمَّ قَتَلْتُموهُ، قَرَّبْتُموهُ ثمَّ ذَبَحْتموهُ كَما يُذْبَحُ الكَبْشُ؟! فَقالَ لَها مَسْروقٌ: هَذا عَمَلُكِ، أَنْتِ كَتَبْتِ إِلَى النّاسِ تَأْمُرينَهُمْ أَنْ يَخْرُجوا إِلَيْهِ!. فَقالَتْ: لا والَّذي آمَنَ بِهِ المُؤْمِنونَ، وَكَفَرَ بِهِ

---

[1] تاريخ الإسلام للذهبي: (٢/٢٤٢).

[2] البداية والنهاية: (٧/ ١٩٥)

الكافِرونَ، ما كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ سَوْداءَ في بَيْضاءَ حَتَّى جَلَسْتُ مَجْلِسي هَذا. قالَ الأَعْمَشُ: فَكانوا يَرَوْنَ أَنَّهُ كُتِبَ على لِسانِها.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وَهَذا إِسْنادٌ صَحيحٌ إِلَيْها.

وَفي هَذا وَأَمْثالِهِ دَلالَةٌ ظاهِرَةٌ على أَنَّ هَؤُلاءِ الخَوارِجَ، زَوَّروا كُتُباً على لِسانِ الصَّحابَةِ إِلَى الآفاقِ، يُحَرِّضونَهُمْ على قِتالِ عُثْمانَ.

وقد نبَّهَ عُثمانُ مِنْ خِلال هذا النَّصِّ إلى أنَّ التَّزويرَ الذي حصَلَ لم يَقْتَصِرْ على تَزويرِ الكِتابِ بلْ تعدّاه إلى تزويرِ الخاتم، فقَدْ نَفى رضي الله عنه أنْ يكونَ الكتابُ بخاتَمِه نفْسِه.

٥ – هذه الحقائق التي تقدَّمت تُشيرُ إلى أنَّ وراء الحادث مؤامَرَةٌ تُحاكُ، أَبطالُها متخفّين وراءَ سِتارٍ لا يظهرون، ويقومون بصياغة الحوادث بشكلٍ يوهِمُ العامَّة والغوغاء أنَّ الصَّحابَةَ كانوا وَراءَ الخروجِ كما تدَّعيه الرِّوايات المزيَفة.

٦ – عندما حاورَ عثمانُ المحتَجّينَ الذين مَنعوا عنهُ الماءَ تُشيرُ الرِّوايَةُ من جديدٍ إلى المؤامرةِ التي حيْكَتْ ضدَّ عُثْمانَ، يظهرُ ذلِكَ مِنْ خِلالِ قولِ مالِك الأَشْتر – وقَدْ كانَ لهُ دورٌ كبيرٌ في أَحْداثِ الفتنَة وما تَبِعها –: "لعلَّه قدْ مُكرَ بهِ وبكُم".

وقد رأَيْنا كيفَ وعظَهم عثمانُ واستدلَّ على سبْقِه ومناقبِهِ في الإِسلامِ من خِلالِ الأَعمالِ التي قامَ بها، وكانَ سبباً لدُعاءِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لهُ في أكثرَ مِنْ مُناسبَةٍ، وهذا الذي جاءَ يتقاطَعُ مع ما وَردَ في مَناقِبهِ رضي الله عنه في كُتُبِ الحديثِ الصِّحاحِ.

تفسير حوادث الفتنة وأهم نتائجها

بعد عرض الروايات المعتمدة عن مقتل عُثْمان وأسبابه، سنحاول استخلاص أهم النتائج وتفسيرها:

تبيَّن لنا من خلالِ العرض المتقدِّم أنَّ عصر عثمانَ غير عصر عمرَ رضي الله عنهما، وأنَّ النّاسَ كانوا يقبلون من عُمرَ أَفعالاً لم يكونوا يقبلونها من عثمانَ، ولعلَّ ذلكَ راجِعٌ إلى التَّحوُّلاتِ التي طرأَتْ على المجتمع الإسلاميِّ بعد السَّنوات الستِّ الأولى مِنْ خِلافةِ عثمانَ، فقد لا حظنا :

= توقُّف الفتوحات وبتوقُّفها ظهرتْ طبقةٌ جديدةٌ على مسرح الأَحداثِ، وهي طبقةُ الأَعْرابِ الذين سبَق لهم أَنِ ارتَّدوا عن الإسلامِ في بِدايةِ خلافةِ أبي بكرٍ الصِّديقِ رضي الله عنه، لقَدْ كان أبو بكرٍ موفَّقاً في تهميش هؤلاء في الفتوحات، فقد رفضَ أنْ يُشرِكَهم فيها، وتابعه على ذلك الرَّأي عمرُ رضي الله عنه في خلافتِه ولم يوافق على إِشْراكِ بعضهم إلا في حدودٍ ضيِّقةٍ جدّاً، أما عثمانُ فقد اضطر – مع اتِّساعِ رقعةِ الدَّولةِ – إلى إِرْسالِ الأَعْرابِ – ومعظمهم من أَهلِ الرِّدَّةِ – إلى الفتوح، وهؤلاء كان معظم همِّهم مِنَ الفتوح الغنائم، ولئن كان في تاريخ الفتوح مطْعنٌ فإنَّه كان بتأثيرِ هؤلاء.

= تسبب توقُّفُ الفتوحاتِ بظهور مجموعةٍ مِنَ الأَعْرابِ وأهلِ الردَّة السَّابقة على سطحِ المجتمع، وبدأتْ تتسلَّل إلى عقولِهم ونفوسِهم شبَهٌ من خلال أَسئلةٍ تُطرَحُ حولَ بيْتِ المالِ، وغنائم الفتوحات التي سبقت وكيفية توزيعها، وأنَّ عُثْمان إنَّما يوزِّعها على

أهلِ بيته وأصحابِه، وهذا النَّمط مِنَ الحديثِ يُحدِث اضطراباً في المجتمعِ، وبخاصَّة عند من تعوَّد الغزوَ لأجلِ المال والغنائم ليس إلّا، وهو لم يفقه مِنَ الدّين شِرْوَ نقيرٍ. وهذا ما كان فقد جاء من حرَّك مشاعر هؤلاء على عثمانَ، وقد أظهرت الرِّوايات وجودَ هؤلاءِ الأَعرابِ وتعاقدهم مع الحانِقينَ على عثمانَ ممَّنِ كان يُقيمُ في المدينةِ، فقد جاء في كتابِ عثمانَ إلى أَهلِ الأَمْصارِ ما يُجلي ذلك: "أَغاروا عَلَينا في جِوارِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وحَرَمِه وأَرْضِ الهجْرَةِ، وثابَتْ إِليهمُ الأَعْرابُ، فهُم كالأَحْزابِ أَيّامَ الأَحْزابِ"[1].

وأما السَّيدَةُ عائشةُ رضي الله عنها فتَقولُ في ذَلكَ[2]: "إِنَّ الغَوْغاءَ مِنْ أَهْلِ الأَمْصارِ وَنُزّاعَ القَبائِلِ[3] غَزَوْا حَرَمَ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وَأَحْدَثوا فيهِ الأَحْداثَ، وَآوَوْا فيهِ المُحْدِثينَ، واسْتَوْجَبوا فيهِ لَعْنَةَ اللهِ وَلَعْنَةَ رَسولِهِ، مَعَ ما نالوا مِنْ قَتْلِ إِمامِ المُسلِمينَ بِلا تِرَةٍ وَلا عُذْرٍ، فاسْتَحَلّوا الدَّمَ الحَرامَ فَسَفَكوهُ، وانْتَهَبوا المالَ الحَرامَ، وَأَحَلّوا البَلَدَ الحَرامَ، والشَّهْرَ الحَرامَ، وَمَزَّقوا الأَعْراضَ والجُلودَ، وَأَقاموا في دارِ قَوْمٍ كانوا كارِهينَ لِمُقامِهِمْ ضارّينَ مُضِرّينَ، غَيْرُ نافِعينَ وَلا مُتَّقينَ...".

وممّا نُقِلَ عنِ السَّيدةِ عائشةَ رضْوان اللهِ علَيْها حينَ بلَغَها مقْتَلُ عُثْمانَ رضي الله عنه: "أَما واللهِ لقَدْ كُنْتُمْ إِلى تَسديدِ الحقِّ وتأْكيدِه أَحْوَجَ منكمْ إِلى ما نَهَضتُم إِليهِ، مِنْ طاعَةِ مَنْ خالَفَ عليه، ولكنْ كلَّما زادَكُم اللهُ صحَّةً في دينِهِ، ازدَدتُم تَثاقُلاً عَنْ نصْرَتِه طمَعاً في دُنياكُم.

---

[1] تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٩/ ٣٢٠)

[2] تاريخ الطبري (٣/ ٤٧٩)

[3] الغرباء الذين يجاورون قبائل لا ينتسبون إليها.

أَما واللهِ لهدْمُ النِّعمَةِ أَيْسَرُ مِنْ بُنيانِها، وما الزّيادَةُ إلَيْكم بالشّكرِ، بأَسْرعَ منْ زوالِ النِّعمَةِ عنكُم بالكُفْرِ، أَما لئن كان فَنِيَ أكلهُ، واحتَرم أجله، إنَّه لصهْرُ رَسولِ اللهِ صلّى الله عليه وعلى آله وسلم مرَّتيْن، وما علِمْنا خَلْقاً تَزوَّجَ ابنَتي نبيٍّ غيره، ولو غير أيديكم قرَعَت صِفاتَه لوجِدَ عند تلظّي الحربِ مُتجرِّداً، ولسيوفِ النَّصْرِ مُتقَلّداً، ولكنّها فتنةٌ قُدِحَتْ بأَيْدي الظّلمةِ.

أَما واللهِ لقَدْ حاط الإِسلامَ وأَكَّدهُ، وعضّدَ الدّينَ وأيّدَه، ولقدْ هدَم اللهُ بهِ صياصي أهلَ الشِّرْكِ، ووقَمَ بهِ أَرْكانَ الكُفْرِ، فللَّهِ المصيْبَةُ بهِ، ما أَفجَعها! والفَجيعَة به ما أَوْجعها! صدَّع والله مقتله صفاء الدّين، وثَلَمَتْ مصيبتُه ذروة الإسلام، تبّاً لقاتله، أَعاذَنا اللهُ وإيّاكُم مِنَ التلبُّسِ بدَمِه، والرِّضا بقَتْلِه"[1].

وفي قوْلِ عليٍّ رضي الله عنه بعْدَ قتْلِهم أَميرَ المؤْمنينَ[2]: "يا أَيُّها النّاسُ، أَخْرِجوا عَنْكُمُ الأَعْرابَ". وَقالَ: "يا مَعْشَرَ الأَعْرابِ، الحَقوا بِمياهِكُم" فأَبَتِ السَّبئيَةُ، وَأَطاعَهُمُ الأَعْرابُ.

وهنا كان دورُ ابنِ السَّوداءِ عبدِ اللهِ بنِ سَبأَ اليَمانيُّ الذي حرَّك فيهم مكامِن الحقْدِ وألَّبهم على خليفتهم، ونظمهم فثارَتْ ثائرةُ الفتنةِ بيْنَ جوانِحِهم.

وكانَ منْ جُمْلةِ صنيعه أنْ أرسلَ كُتباً ادَّعى أنَّها وردتُه منْ ساداتِ الصَّحابةِ – عليٍّ، وطلْحةَ، والزُّبيرِ، وعائشَةَ، وبقيَةَ أُمَّهاتِ المؤمنينَ رضي الله عنهم أجمعين – حتى إذا ما اجتمَع الأَعْرابُ بِهؤلاءِ الصَّحابةِ لم يَجِدوا عندهم حَماساً ولا تَشْجيعاً لما كانوا قدْ خَرَجوا لأَجْلِه، بل وَجدوهُم مُمانِعينَ لكُلِّ ذلكَ غير راضينَ بهِ، ووجَدوا عُثْمانَ قد أَعْطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وأنَّه لم يتعَدَّ على بيتِ المالِ، وإنَّما قسمَ المالَ وفقَ ما حدَّده من سبَقَه

---

[1] بلاغات النِّساء: ص ١٤.

[2] تاريخ الطبري (٣/ ٤٥٩)

مِنَ الخلفاءِ، ففَتَّ ذلك في عَضُدِهم، بل لقد أَرْضاهم ما وجَدوا، حتى إذا أَخذوا في طريقِ العَوْدةِ فإذا بابن سبأ يدبِّرُ كِتاباً يزيدهم هياجاً، ويجعلهم يُعيدونَ الكرَّةَ بالهجومِ على المدينةِ ومحاصرَةِ الخليفةِ، إنَّه الكِتابُ المزوَّر على لسانِ عثْمانَ والمطبوع بخاتمٍ كخاتمه، وهنا يُجابَهُ عثمانُ إمّا بأَنَّه هو مَنْ كتبَ الكتابَ، أَو أنَّ الذي كتَبه كُتابُه، ونَفى رضي الله عنه التُّهْمَتَيْن، ولكنَّ ذلِكَ لم يُقنِعِ الثّائرينَ، وكان موسمُ الحجِّ قدْ أَقبَلَ وأهلُ المدينَةِ في غالِبِهم قدْ خَرَجوا منها يُريدونَ الحجَّ، وأَرْسلَ مَنْ بَقيَ بالمدينةِ مِنَ الصَّحابةِ أَبْنائهم للدِّفاعِ عن عُثْمانَ، لم يشأْ عثمانُ أنْ يُحدِثَ قِتالاً بالمدينةِ، و كانَ قدْ رأى في المنامِ أنَّه يُفْطِرُ عندَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فأمَرَ المدافعينَ أنْ يَعودوا منْ حيثُ أَتَوْا، فامتَنَع بعضُهم وبقيَ حارِساً على بابِ عثمانَ، فتسوَّر الخارِجونَ الدّارَ واقترَفوا جريمَتَهم البشِعَة، وقَتَلوا أميرَ المؤمنينَ صائماً وهو عاكِفٌ على كِتابِ اللهِ تعالى، يقرأُ فيه، وفوجيء الصَّحابةُ باستِشْهادِهِ وأُسْقِطَ في أَيْديهم، فلم يكن في توقُّعهم أنْ ينحَدِر حالُ هؤلاءِ إلى هذا الدَّرَكِ مِنَ الخِسَّةِ والانحطاط، كلُّ ذلك باسم الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنْكَرِ.

على أنَّ البعضَ – مثل الأَحنَف بنِ قيْسٍ – كانَ يُدرِك تمامَ الإِدْراكِ أنَّ الأمرَ سيَنتَهي هذه النهاية المأساوية، لمعرفَتِه بحقيقةِ الخارجين، والجو الذي وُضِعوا فيه.

مبايعة عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه[1]

بَقيَتِ المَدينَةُ بعد قتْلِ عُثْمانَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ خَمْسةَ أَيّامٍ، وأَميرُها [مِنَ الخارجين] الغافِقيُّ بنُ حَرْبٍ، والخارجونَ يلتَمِسونَ منْ يُجيبُهم إِلَى القيامِ بأَمْرِ الخِلافَةِ فلا يَجدونَه،

---

[1] اتَّبَعنا في السَّرد التاريخي لبيعة عليّ رضي الله عنه ما جاء في رواية سيْفِ بن عمرٍو للأَحْداثِ، بسندِ الطَّبري إليه، كما ذكرنا بعض التفاصيل المتممة بما يتناسب وروح رواية سيف. تاريخ الطبري (٤/ ٤٣٢).

يـأْتي المِصْـريّونَ عَليّـاً رضـي الله عـه فيَختَبِـئُ مِـنْهُمْ ويَلـوذُ بِحِيْطـانِ[1] المَـدينَةِ، فـإِذا لقـوهُ باعدَهم وتبرَّأَ مِنْهُمْ ومِنْ مَقالَتِهم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

وعَنِ الشَّعْبيِّ[2]، قـالَ: لما قُتِلَ عُثْمـانُ رضي الله عنه أَتَى النّاسُ عَليّاً وَهوَ في سوقِ المَـدينَةِ، وَقالوا لَهُ: ابْسُطْ يَدَكَ نُبايِعْكَ، قالَ: لا تَعْجَلوا فَإِنَّ عُمَرَ كـانَ رَجُلاً مُبارَكـاً، وَقَدْ أَوْصَى بِها شورَى، فَأَمْهِلوا يَجْتَمِعُ النّاسُ وَيَتَشاوَرونَ. فارْتَدَّ النّاسُ عَنْ عَليٍّ.

ويطلبُ الكوفيّونَ الزُّبَيْرَ فلا يَجِدونَه، فأَرْسلوا إِلَيْه حيثُ هَوَ رُسُلاً، فباعَدَهم وتبرَّأَ منْ مَقالَتِهم.

ويطلبُ البَصْريّونَ طَلْحَةَ فإِذا لقيَهم باعدَهُم وتبرَّأَ منْ مَقالَتِهم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

وكـانوا – أَي: الخـارجين – مُجْتَمعيْنَ على قتْلِ عُثْمـانَ، مُخْتَلفيْنَ فيمَنْ يولّونَه بعْدَهُ، فلمّا لم يَجِدوا مُمالئاً وَلا مُجيْباً جَمعَهم الشَّرُّ على أَوَّلِ مَنْ أَجابَهم، وَقالوا: لا نولّي أَحَداً منْ هَؤُلاءِ الثلاثة، فبَعثوا إِلَى سعْدِ بنِ أَبي وَقّاصٍ رضي الله عنه، وَقالوا: إِنَّك مِنْ أَهْلِ الشّوْرى فرَأْيُنا فيك مُجتَمعٌ، فاقدُم نُبايِعْك، فبَعثَ إِلَيْهِم: إِنّي وابنُ عمَرَ خَرَجْنا منْها فلا حاجَةَ لي فيها على حالٍ...

ثُمَّ إِنَّهُـمْ أَتَـوْا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما، فَقالوا: أَنْتَ ابنُ عمَرَ فقُمْ بِهَذا الأَمْر، فَقالَ: إِنَّ لهذا الأَمْرِ انتِقاماً واللهِ لا أَتعرَّضُ لَهُ، فالتَمِسوا غيْري.

فبَقوا حَيارى لا يَدْرونَ ما يَصْنَعونَ.

وَهكَـذا نُلاحِـظُ أنَّ الصَّـحابَةَ تبـرَّؤوا مـنهم، ولـم يُريـدوا أَنْ يَضَـعوا أَيْـديَهُم فـي أَيْديهِم.

---

[1] جمع حائط، وهو البستان.

[2] تاريخ الطبري (٤/ ٤٣٣).

ولَمّا كانَ يومُ الخميسِ على رأْسِ خمْسَةِ أيّامٍ منْ مقتَلِ عُثْمانَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ، جمعَ الخارِجونَ أهلَ المَدينَةِ فَوَجَدوا سَعْداً والزُّبَيْرَ خارِجَيْنِ، ووجَدوا طَلْحَةَ في حائطٍ لَهُ، ووجَدوا بَني أُمَيَّةَ – رهْطَ سيدِنا عُثمانَ – قَدْ هَرَبوا إلا مَنْ لم يُطِقِ الهَرَبَ، ...

فلمّا اجتَمعَ لَهُمْ أهل المَدينَةِ قالَ لَهُمْ أَهْلُ مِصْرَ: أَنْتُم أَهْلُ الشّورى، وَأَنْتُمْ تَعقدونَ الإمامَةَ، وأَمْرُكم سائرٌ على الأُمَّةِ، فانْظُروا رَجُلاً تُنَصِّبونَهُ، ونحنُ لكُم تبعٌ، فَقالَ الجُمهورُ: عَليُّ بنُ أَبي طالِبٍ نحنُ بِهِ راضونَ.

فَقالَ الخارجونَ لأَهْلِ المدينةِ: دونَكُمْ يا أَهْلَ المَدينَةِ فَقَدْ أَجَّلْناكُمْ يومَيْنِ، فو الله لَئِنْ لَمْ تَفْرُغوا لَنَقتُلَنَّ غَداً عَليّاً وَطَلْحَةَ والزُّبَيْرَ وَأُناساً كَثيراً، فَغَشي النّاسُ عَليّاً فَقالوا: نُبايِعُكَ، فَقَدْ تَرَى ما نَزَلَ بِالإسلامِ، وَما ابْتُلينا بِهِ مِنْ ذَوي القُرْبَى.

فَقالَ عَليٌّ: دَعوني والتَمِسوا غَيْري فَإِنّا مُسْتَقْبِلونَ أَمْراً لَهُ وُجوهٌ وَلَهُ أَلْوانٌ، لا تَقومُ لَهُ القُلوبُ، ولا تَثْبتُ عَلَيْهِ العُقولُ.

فَقالوا: نَنْشُدُكَ اللهَ أَلا تَرَى ما نَرَى! أَلا تَرَى الإسلامَ! أَلا تَرَى الفِتْنَةَ! أَلا تَخافُ اللهَ!

فَقالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ لِما أَرَى، واعْلَموا إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ ما أَعْلَمُ، وَإِنْ تَرَكْتُموني فَإِنَّما أَنا كَأَحَدِكُمْ، إلا أَنّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُموهُ أَمْرَكُمْ.

ثُمَّ افْتَرَقوا على ذَلِكَ واتَّعَدوا الغَدَ.

وَتَشاوَرَ النّاسُ فيما بَيْنَهُمْ وَقالوا: إِنْ دَخَلَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ [في بَيْعَةِ عليٍّ] فَقَدِ اسْتَقامَتْ الأُمورُ، فَبَعَثَ البَصْريّونَ إِلَى الزُّبَيْرِ بَصْرياً، ... فَجاؤوا بِهِ يَحُدّونَهُ بِالسَّيْفِ، وَإِلَى طَلْحَةَ كوفيّاً ... فَجاؤوا بِهِ يَحُدّونَهُ بِالسَّيْفِ، وَأَهْلُ الكوفَةِ وَأَهْلُ البَصْرَةِ شامِتونَ بِصاحِبِهِمْ، وَأَهْلُ مِصْرَ فَرِحونَ بِما اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ المَدينَةِ، وَقَدْ خَشَعَ أَهْلُ الكوفَةِ

وَأَهْلُ البَصْرَةِ أَنْ صاروا أَتْباعاً لأَهْلِ مِصْرَ وَحُشْوَةً فيهِمْ، وازْدادوا بِذَلِكَ على طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ غَيْظاً.

فَلَمّا أَصْبَحوا من يَوْمِ الجُمُعَةِ حَضَرَ النّاسُ المَسْجِدَ، وَجاءَ عَليٌّ حتَّى صَعِدَ المِنْبَرَ، فَقالَ: يا أَيُّها النّاسُ إِنَّ هَذا أَمْرُكُمْ لَيْسَ لأَحَدٍ فيهِ حَقٌّ إلا مَنْ أَمَّرْتُمْ، وَقَدِ افْتَرَقْنا بِالأَمْسِ على أَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ قَعَدْتُ لَكُمْ، وَإِلا فَلا أَجِدُ على أَحَدٍ.

فَقالوا: نَحْنُ على ما فارَقْناكَ عَلَيْهِ بِالأَمْسِ.

وَجاءَ القَوْمُ بِطَلْحَةَ فَقالوا: بايِعْ، فَقالَ: إِنِّي إِنَّما أُبايِعُ كَرْهاً، فَبايَعَ - وَكانَ بِهِ شَلَلٌ - أَوَّلَ النّاسِ، وَفي النّاسِ رَجُلٌ يَعْتافُ، فَنَظَرَ مِنْ بَعيدٍ، فَلَمّا رَأَى طَلْحَةَ أَوَّلَ مَنْ بايع قال: إِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ! أَوَّلُ يَدٍ بايَعَتْ أَميرَ المُؤْمِنينَ يَدٌ شَلاءُ، لا يَتِمُّ هَذا الأَمْرُ!

ثُمَّ جيءَ بِالزُّبَيْرِ فَقالَ مِثْلَ ذَلِكَ وَبايَعَ ...

ثُمَّ جيءَ بِقَوْمٍ كانوا قَدْ تَخَلَّفوا فَقالوا: نُبايِعُ على إِقامَةِ كِتابِ اللهِ في القَريبِ والبَعيدِ، والعَزيزِ والذَّليلِ، فَبايَعَهُمْ، ثُمَّ قامَ العامَّةُ فَبايَعوا.

وهَكَذا نُلاحِظُ أَنَّ أَهْلَ المدينةِ أُلْزِموا بالبَيْعَةِ إِلْزاماً، وقَبِل عليٌّ رضي الله عنه البَيْعَةَ ليَفْتَديَ النّاسَ مِمّا وَقَعوا فيهِ، وأَنَّ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ بايَعا مُكْرَهَيْنِ.

اتِّساقُ الأَمْرِ في البَيْعَةِ لِعَليِّ بنِ أَبي طالِبٍ:

بويعَ عليٌّ يومَ الجُمعةِ لخَمْسٍ بَقيْنَ منْ ذي الحجَّةِ ... فأَوَّلُ خُطْبَةٍ خَطَبَها حينَ استُخْلِفَ ... حَمِدَ اللهِ وأَثْنى عَلَيْهِ، فَقالَ: إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتاباً هادياً يُبَيِّنُ فيهِ الخَيْرَ والشَّرَّ، فَخُذوا بِالخَيْرِ وَدَعوا الشَّرَّ، الفَرائِضَ الفَرائِضَ أَدّوها إِلَى اللهِ تَعالَى يُؤَدِّكُمْ إِلَى الجَنَّةِ. إِنَّ اللهَ حَرَّمَ حُرُماتٍ غَيْرَ مَجْهولَةٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ المُسلِمِ عَلَى الحُرُمِ كُلِّها، وَشَدَّ بِالإِخْلاصِ والتَّوْحيدِ حُقوقَ المُسلِمينَ، فالمُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلِمونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ إِلّا بِالحَقِّ، لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسلِمٍ إِلّا بِما يَجِبُ. بادِروا أَمْرَ العامَّةِ، وَخاصَّةُ أَحَدِكُمُ المَوْتُ،

فَإِنَّ النّاسَ أَمامَكُمْ وَإِنَّ ما مِنْ خَلْفِكُمُ السّاعَةُ تَحْدوكُمْ. تَخَفَّفوا تَلْحَقوا، فَإِنَّما يَنْتَظِرُ النّاسُ أُخْراهُمْ. اتَّقَوُا اللهَ عِبادَ اللهِ في بِلادِهِ وَعِبادِهِ، إِنَّكُمْ مَسْؤولونَ حَتَّى عَنِ البِقاعِ والبَهائِمِ. أَطيعوا اللهَ فَلا تَعْصَوْهُ، وَإِذا رَأَيْتُمُ الخَيْرَ فَخُذوا بِهِ، وَإِذا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَدَعوهُ، ﴿واذْكُروا إِذْ أَنْتُمْ قَليلٌ مُسْتَضْعَفونَ في الأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦].

والمتأمّلُ في كَلامِ سيِّدِنا عليٍّ رضي الله عنه، يَرى فيهِ تَعْريضاً وتَهْديداً غيرَ مباشِرٍ للخارجينَ وتَوْبيخاً لهمْ على ما اقترفَتْ أَيْديهم، فلذلِكَ لَمّا نزلَ عليٌّ عنِ المِنْبَرِ وأَرادَ الذَّهابَ إِلَى بيْتِهِ هدَّدهُ السَّبيئةُ بأَبياتٍ مِنَ الشِّعْرِ، فردَّ عليهم، بقولِه:

إِنّي عَجَـــزْتُ عَجْـــزَةً لا أَعْتَـــذِرْ سَـــوْفَ أَكـــيسُ بَعْـــدَها وَأَسْـــتَمِرْ

أَرْفَـعُ مِـنْ ذَيْلـيَ مـا كُنْـتُ أَجُـرْ وَأَجْمَـعُ الأَمْـرَ الشَّـتيتَ المُـنْتَشِرْ

إِنْ لَمْ يُشـاغِبْني العَجـولُ المُـنْتَصِرْ أَوْ يَتْرُكـوني والسِّـلاحُ يُبْتَـدَرْ[1]

واجتَمعَ إِلى عليٍّ بعدَ ما دخلَ طَلْحَةُ والزُّبَيْر في عدَّةٍ مِنَ الصَّحابةِ، فَقالوا:

يا عَليُّ إِنّا قَدِ اشْتَرَطْنا إِقامَةَ الحُدودِ، وَإِنَّ هَؤُلاءِ القَوْمَ قَدِ اشْتَرَكوا في قَتْلِ هَذا الرَّجُلِ وَأَحَلّوا بِأَنْفُسِهِمْ.

فَقالَ: يا إِخْوَتاهُ إِنّي لَسْتُ أَجْهَلُ ما تَعْلَمونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ أَصْنَعُ بِقَوْمٍ يَمْلِكونَنا وَلا نَمْلِكُهُمْ؟ ها هُمْ هَؤُلاءِ قَدْ ثارَتْ مَعَهُمْ عُبْدانُكُمْ وَثابَتْ إِلَيْهِمْ أَعْرابُكُمْ وَهُمْ خُلّاطُكُمْ يَسومونَكُمْ ما شاؤوا، فَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ مِمّا تُريدونَ؟

---

[1] أي أنَّه رضيَ اللهُ عنهُ، سيُشمِّر للأمْرِ المقْدِم عليه ولنْ يَتَواني فيهِ، ما لم يستَعْجِله الصَّحابَةُ. وقَدْ صَدَقَتْ رؤيتهُ للأمورِ، فقَدِ استَعجَلَ بعضُ الصَّحابَةِ في غيرِ موْضعِ العَجَلة –كما سَنَرى – فَكانَ ما كانَ مما سَيأْتي بَيانُه.

قالوا: لا. قالَ: فَلا واللهِ لا أَرَى إِلّا رَأْياً تَرَوْنَهُ أَبَداً إِلّا أَنْ يَشاءَ اللهُ. إِنَّ هَذا الأَمْرَ أَمْرُ جاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهؤُلاءِ القَوْمِ مادَّةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطانَ لَمْ يُشْرِعْ شَريعَةً قَطُّ، فَيَبْرَحُ الأَرْضَ [مَنْ] أَخَذَ بِها أَبَداً.

إِنَّ النّاسَ مِنْ هَذا الأَمْرِ إِنْ حُرِّكَ عَلَى أُمورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى ما تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى ما لا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لا تَرَى هَذا وَلا هَذا، حَتَّى يَهْدَأَ النّاسُ وَتَقَعَ القُلوبُ مَواقِعَها وَتُؤْخَذُ الحُقوقُ، فاهْدَأوا عَنّي، وانْظُروا ماذا يَأْتيكُمْ ثُمَّ عودوا.

واشْتَدَّ عَلَى قُرَيْشٍ وَحالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الخُروجِ عَلَى حالِها، وَإِنَّما هَيَّجَهُ عَلَى ذَلِكَ هَرَبُ بَني أُمَيَّةَ وَتَفَرُّقُ القَوْمِ، فَبَعْضُهُمْ يَقولُ ما قالَ عَليٌّ: واللهِ لَئِنِ استَمَرَ هَذا الأَمْر لما قَدرْنا على هَؤُلاءِ الأَشْرارِ، لَتَرْكُ هَذا إِلى ما قالَ عليٌّ أَمْثَلُ.

وَبَعْضُهُمْ يَقولُ: نَقْضي الَّذي عَلَيْنا – أَي: عقاب الخارِجيْنَ – وَلا نُؤَخِّرُهُ، واللهِ إِنَّ عَليّاً لِمُسْتَغْنٍ بِرَأْيِهِ وأمره عنا، وَلَيَكونَنَّ أَشَدَّ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ غَيْرِهِ.

فذُكِرَ ذَلِكَ لعليٍّ، فَخَطَبَهُمْ وَذَكَرُ فَضْلَهُمْ وَحاجَتَهُ إِلَيْهِمْ وَنَظَرَهُ لَهُمْ وَقيامَهُ دونَهُمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ سُلْطانِهِمْ (إِلّا ذاكَ) والأَجْرُ مِنَ اللهِ عَلَيْهِ، وَنادَى: بَرِئَتِ الذِّمَّةُ مِنْ عَبْدٍ لا يَرْجِعُ إِلَى مَوْلاهُ.

فَتَذامَرَتِ السَّبيئَةُ والأَعْرابُ وَقالوا: لَنا غَداً مِثْلُها وَلا نَسْتَطيعُ نَحْتَجُّ فيهِمْ بِشَيْءٍ.

وخَرَجَ عَليٌّ في اليَوْمِ الثّالِثِ على النّاسِ، وَقالَ: أَيُّها النّاسُ أَخْرِجوا عَنْكُمُ الأَعْرابَ وَقالَ: يا مَعْشَرَ الأَعراب، الحقوا بمياهكم.

فَأَبَتِ السَّبيئَةُ وَأَطاعَهُمُ الأَعْرابُ. فَدَخَلَ عَليٌّ بَيْتَهُ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ وَعِدَّةٌ مِنْ أَصْحابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقالَ: دونَكُمْ ثَأْرَكُمْ فاقْتُلوهُ. فَقالَ: (عَشَوْا[1]

[1] عشوا: أي أعرضوا، وأبوا.

عَنْ ذَلِكَ). فَقالَ: هُمْ واللهِ بَعْدَ اليَوْمِ أَعْشَى وَآبَى! وَقالَ: ونَصَحوهُ أَلّا يطلُبَ الثَّأْرَ الآنَ. فَقالَ:

لَوْ أَنَّ قَوْمي طاوَعَتْني سُراتُهُمْ أَمَرْتُهُمْ أَمْراً يَديخُ الأَعاديا

وَقالَ طَلْحَةُ: دَعْني آتِ البَصْرَةَ فَلا يَفْجَأُكَ إِلّا وَإِنّا فِي خَيْلٍ. وَقالَ الزُّبَيْرُ: دَعْني آتِ الكوفَةَ فَلا يَفْجَأُكَ إِلّا وَأَنا فِي خَيْلٍ. فَقالَ: حَتَّى أَنْظُرَ فِي ذَلِكَ.

ويدلُّ هَذا الكَلامُ على أَنَّ عليّاً كانَ فِي خِلافٍ مَعَ الخارِجيْنَ، وأنَّه قصَدَ أنْ يأخُذَ الثَّأْرَ منهم لِعُثْمانَ؛ ولكنَّ أَصْحابَه لم يوافِقوا على ذَلِكَ.

شأْنُ عليٍّ مَعَ ولاةِ الأَمْصارِ:

عَزمَ عليٌّ على استِبْدالِ عُمّالِ عُثْمانَ على الأَمْصارِ، فأَشارَ عليه بعْضُ الصَّحابَةِ بتَرْكِ ذلك، وأَشارَ آخَرونَ بالاستِعْجالِ فِي ذَلِكَ، فمالِ عليٌّ إلى الرَّأْي الثاني، ولا يظْهَرُ السَّببُ الذي جعلَه يُصرُّ على عَزْلِ أُمَراءِ عثمانَ، ولعلَّه كانَ يعتَقِدُ أنَّ البليَةَ أَتَتْ مِنْ أُمَراءِ عثمانَ، ولذَلكَ فعلَيْه أَلا يُبْقيَهُم فِي أَماكِنِهِم.

وبعثَ عليٌّ رضي الله عنه عمّالهُ على الأَمْصارِ، فاستُقْبِلوا فِي الأَمْصارِ استقبالاً سيئاً على الغالبِ؛ ورجعَ مَنْ رَجَعَ منهُم.

قالَ الطَّبريُّ: ولَمّا دخلَتْ سنَةُ ستٍّ وثَلاثينَ فرَّقَ عليٌّ عُمّالَهُ ... فَبَعَثَ عُثْمانَ بْنَ حُنَيْفٍ على البَصْرَةِ، وَعُمارَةَ بْنَ شِهابٍ على الكوفَةِ – وَكانَتْ لَهُ هِجْرَةٌ – وَعُبَيْدَ اللهِ بْنَ عَبّاسٍ على اليَمَنِ، وَقَيْسَ بْنَ سَعْدٍ على مِصْرَ، وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ على الشّامِ.

فَأَمّا سَهْلٌ فَإِنَّهُ خَرَجَ حَتَّى إِذا كانَ بِتَبوكَ لَقيَتْهُ خَيْلٌ، فَقالوا: مَنْ أَنْتَ؟ قالَ: أَميرٌ، قالوا: على أَيِّ شَيْءٍ؟ قالَ: على الشّامِ، قالوا: إِنْ كانَ عُثْمانُ بَعَثَكَ فَحَيَّهَلا بِكَ، وَإِنْ كانَ بعَثَكَ غيْرُه فارْجِع! قال: أَوَما سَمِعْتُمْ بِالَّذي كانَ؟ قالوا: بَلَى، فَرَجَعَ إِلَى عَليٍّ.

وَأَمّا قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ فَإِنَّهُ لَمّا انْتَهَى إِلَى أَيْلَةَ لَقِيَتْهُ خَيْلٌ، فَقالوا: مَنْ أَنْتَ؟ ... قالَ: قيْسُ بنُ سَعْدٍ، قالوا: امْضِ، فَمَضَى حَتَّى دَخَلَ مِصْرَ، فافْتَرَقَ أَهْلُ مِصْرَ فِرَقاً، **فِرْقَةٌ** دَخَلَتْ في الجَماعَةِ وَكانوا مَعَهُ، **وَفِرْقَةٌ** وَقَفَتْ واعْتَزَلَتْ إِلَى خَرِبَتا وَقالوا: إِنْ قُتِلَ قَتَلَةُ عُثْمانَ فَنَحْنُ مَعَكُمْ، وَإِلا فَنَحْنُ على جَديلَتِنا حَتَّى نُحَرَّكَ أَوْ نُصيبَ حاجَتَنا، **وَفِرْقَةٌ** قالوا: نَحْنُ مَعَ عَليٍّ ما لَمْ يُقِدْ إِخْوانَنا، وَهُمْ في ذَلِكَ مَعَ الجَماعَةِ. فَكَتَبَ قَيْسٌ إِلَى أَميرِ المُؤْمِنينَ بِذَلِكَ.

وَأَمّا عُثْمانُ بْنُ حُنَيْفٍ فَسارَ فَلَمْ يَرُدَّهُ أَحَدٌ عَنْ دُخولِ البَصْرَةِ ... وافْتَرَقَ النّاسُ بِها، فاتَّبَعَتْ فِرْقَةٌ القَوْمَ، وَدَخَلَتْ فِرْقَةٌ في الجَماعَةِ، وَفِرْقَةٌ قالَتْ: نَنْظُرُ ما يَصْنَعُ أَهْلُ المَدينَةِ فَنَصْنَعُ كَما صَنَعوا.

وَأَمّا عُمارَةُ فَأَقْبَلَ حَتَّى إِذا كانَ بِزُبالَةَ لَقيَهُ طُلَيْحَةُ بْنُ خوَيْلِدٍ، ... فَقالَ لَهُ: ارْجِعْ فَإِنَّ القَوْمَ لا يُريدونَ بِأَميرِهِمْ بَدَلاً، وَإِنْ أَبَيْتَ ضَرَبْتُ عُنُقَكَ. فَرَجَعَ عُمارَةُ إِلَى عَليٍّ بِالخَبَرِ ...

وانْطَلَقَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبّاسٍ إِلَى اليَمَنِ، فَجَمَعَ يَعْلَى بْنُ أُمَيَّةَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الجِبايَةِ وَتَرَكَهُ وَخَرَجَ بِذَلِكَ وَهوَ سائِرٌ على حامِيَتِهِ إِلَى مَكَّةَ فَقَدِمَها بِالمالِ...

وَلَمّا رَجَعَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ مِنْ طَرِيقِ الشّامِ وَأَتَتْهُ الأَخْبارُ وَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، دَعا عَليٌّ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ، فَقالَ: إِنَّ الَّذي كُنْتُ أُحَذِّرُكُمْ قَدْ وَقَعَ يا قَوْمُ، وَإِنَّ الأَمْرَ الَّذي وَقَعَ لا يُدْرَكُ إِلا بِإِماتَتِهِ، وَإِنَّها فِتْنَةٌ كالنّارِ، كُلَّما سُعِرَتِ ازْدادَتْ واسْتَنارَتْ.

فَقالا لَهُ: فَأْذَنْ لَنا أَنْ نَخْرُجَ مِنَ المَدينَةِ، فَإِمّا أَنْ نُكابِرَ وَإِمّا أَنْ تَدَعَنا، فَقالَ:

سَأُمْسِكُ الأَمْرَ ما اسْتَمْسَكَ، فَإِذا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ.

وَكَتَبَ إِلَى مُعاوِيَةَ بالشّامِ، وَإِلَى أَبي موسَى بالكوفَةِ، فَأَمّا أَبو موسَى فأجابَهُ بِطاعَةِ أَهْلِ الكوفَةِ وَبَيْعَتِهِمْ، وَبَيَّنَ الكارِهَ مِنْهُمْ لِلَّذي كانَ، والرّاضيَ بِالَّذي قَدْ كانَ، وَمَنْ

بَيْنِ ذَلِكَ حَتَّى كانَ عَليٌّ على المواجَهَةِ مِنْ أَمْرِ أَهْلِ الكوفَةِ. وَكانَ رَسولَ عَليٍّ إِلَى أَبي موسَى مَعْبَدٌ الأَسلَميُّ.

وأمّا رَسولُ عليٍّ إِلَى مُعاويَةَ – سَبْرَةُ الجُهَنِيُّ – فقد سلَّمَ كِتابَ عليٍّ إلى مُعاويَةَ فَلَمْ يُجُبه بشيْءٍ، وأخَّرَه عنْدَه إلى أنْ كانَ الشَّهْرُ الثّالِثُ مِنْ مَقْتَلِ عُثْمانَ في صَفَر، دَعا مُعاويَةُ بِرَجُلٍ ... يُدْعَى قَبيصَةَ العَبْسيُّ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ طوماراً[1] مَخْتوماً، عُنْوانُهُ: "مِنْ مُعاويَةَ إِلَى عَليٍّ" فَقالَ: إِذا دَخَلْتَ المَدينَةَ فاقْبِضْ على أَسفَلِ الطّومارِ، ثُمَّ أَوْصاهُ بِما يَقولُ، وَسَرَّحَ رَسولَ عليٍّ وخرجا فقَدِما المَدينَةَ في رَبيعٍ الأَوَّلِ لِغُرَّتِهِ، فَلَمّا دَخَلا المَدينَةَ رَفَعَ العَبْسيُّ الطّومارَ كَما أَمَرَهُ مُعاويَةُ، وَخَرَجَ النّاسُ يَنْظُرونَ إِلَيْهِ، فَتَفَرَّقوا إِلَى مَنازِلِهِمْ وَقَدْ عَلِموا أَنَّ مُعاويَةَ مُعْتَرِضٌ، وَمَضَى حَتَّى دَخَلَ على عَليٍّ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الطّومارَ، فَفَضَّ خاتَمَهُ فَلَمْ يَجِدْ في جَوْفِهِ كِتابَةً، فَقالَ لِلرَّسولِ: ما وَراءَكَ؟ قالَ: آمِنٌ أَنا؟ قالَ: نَعَمْ، إِنَّ الرُّسُلَ آمِنَةٌ لا تُقْتَلُ، قالَ: وَرائي أَنّي تَرَكْتُ قَوْماً لا يَرْضَوْنَ إِلا بِالقَوَدِ، قالَ: مِمَّنْ؟ قالَ: مِنْ خَيْطِ نَفْسِكَ، وَتَرَكْتُ سِتّينَ أَلْفَ شَيْخٍ يَبْكي تَحْتَ قَميصِ عُثْمانَ وَهوَ مَنْصوبٌ لَهُمْ، قَدْ أَلْبَسوهُ مِنْبَرَ دِمَشْقَ، فَقالَ: مِنّي يَطْلُبونَ دَمَ عُثْمانَ! أَلَسْتُ مَوْتوراً كَتِرَةِ عُثْمانَ! اللهُمَّ إِنّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ دَمِ عُثْمانَ، نَجا واللهِ قَتَلَةُ عُثْمانَ إِلا أَنْ يَشاءَ اللهُ، فَإِنَّهُ إِذا أَرادَ أَمْراً أَصابَهُ، اخْرُجْ، قالَ: وَأَنا آمِنٌ؟ قالَ: وَأَنْتَ آمِنٌ، فخَرَجَ العَبْسيُّ، وحاولَتِ السَّبئيَةُ قَتْلَهُ، فمُنِعوا مِنْ ذَلِكَ.

عليّ و أصحاب الجمل

اسْتَأْذَنَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ عليّاً في العُمْرَةِ، فَأَذِنَ لَهُما، فَلَحِقا بِمَكَّةَ.

---

[1] الطّومار: الصَحيفَة.

وعزمَ عليٌّ على التَّوجُهِ إلى مُعاويَةَ، وجهَّزَ الجيْشَ لذلكَ فَدَعا ابْنَهُ مُحَمَّدَ بْنَ الحَنفيَّةِ فَدَفَعَ إلَيْهِ اللِّواءَ، وَوَلَّى عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبّاسٍ مَيْمَنَتَهُ، وَعُمَرَ بْنَ أَبي سَلَمَةَ أَوْ عَمْرَو بْنَ سُفْيانَ بْنِ عَبْدِ الأَسَدِ مَيْسَرَتَهُ، وَدَعا أَبا لَيْلَى بْنَ عُمَرَ بْنِ الجَرّاحِ ابْنَ أَخي أَبي عُبَيْدَةَ بْنِ الجِراحِ فَجَعَلَهُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ، واسْتَخْلَفَ عَلَى المَدينَةِ قُثَمَ بْنَ العَبّاسِ، وَلَمْ يوَلِّ مِمَّنْ خَرَجَ عَلَى عُثْمانَ أَحَداً.

وَكَتَبَ إلَى قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ، وَإلَى عُثْمانَ بْنِ حُنَيْفٍ، وَإلَى أَبي موسَى أَنْ يَنْدُبوا النّاسَ إلَى أَهْلِ الشّامِ، وَدَعا أَهْلَ المَدينَةِ إلَى قِتالِهِمْ، وَقالَ لَهُمْ: انْهَضوا إلَى هَؤُلاءِ القَوْمِ الَّذينَ يُريدونَ تَفْريقَ جَماعَتِكُمْ، لَعَلَّ اللهَ يُصْلِحُ بِكُمْ ما أَفْسَدَ أَهْلُ الآفاقِ وَتَقْضونَ الَّذي عَلَيْكُمْ.

فَبَيْنا هُمْ كَذَلِكَ إذْ جاءَ الخَبَرُ عَنْ طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ وَعائِشَةَ وأَهْلِ مكَّةَ بنَحْوٍ آخَرَ، فقامَ فيهم فقالَ: (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ لظالِمِ هذهِ الأمَّةِ العَفوَ والمغْفِرَةَ، وجعلَ لِمَنْ لزِمَ الأمْرَ واستَقامَ الفوزَ والنَّجاةَ، فمَنْ لم يسَعْهُ الحقُّ أُخِذَ بالباطلِ. أَلَا وإنَّ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ وأمَّ المؤمنينَ قدْ تَمالَؤوا عَلَيَّ، وأَدْعوا النّاسَ إلى الإصْلاحِ وسأَكفُّ إنْ كفّوا، وأَقْتَصِرُ على ما بَلَغني عنْهُم).

ثم أتاهُ أنَّ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ يُريدونَ البَصْرَةَ لمشاهدةِ النّاسِ والإصْلاحِ، فتجهَّزَ للخروجِ إليهم، وقالَ: إنْ فَعَلوا هذا انقطَعَ نِظامُ المسلميْنَ. ولم يُرِد ابنُ عمَرَ رضي الله عنهما الخُروجَ مَعَ عليٍّ.

وكانتْ عائشةُ رضي الله عنها لما بلَغَها مقتلُ عثمانَ خطَبَتْ في مكَّةَ فدافعتْ عن أَعْمالِ عثمانَ، واستجابَ لها عاملُ مكَّةَ عبدُ اللهِ بنُ عامِرٍ الحَضْرميُّ وبنو أُميَّةَ وقد كانوا أَتَوا بعدَ مقتَلِ عثمانَ، وقدِمَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرِ، فلقيا عائشةَ، فقالتْ: ما وَراءَكُما؟

فقالا: وراءنا أنّا خرجنا هَرباً منَ المدينةِ، من غَوْغاءٍ وأَعْرابٍ، وفارقْنا قوْماً حيارى لا يعرفونَ حقّاً، ولا يُنْكرونَ باطِلاً، ولا يمنعونَ أَنْفُسَهم.

فقالت: فائتمروا أَمْراً ثم انَهَضوا إِلى هذهِ الغَوغاء.

فاستقامَ لهمُ الرَّأْيُ على الذَّهابِ إلى البَصْرَة قالوا: يا أم المؤمنين اشخصي معنا إلى البَصْرَة، فإنَّنا نأتي بَلَداً مُضَيَّعاً سَيَحْتَجّونَ عَلَيْنا بِبَيْعَةِ عَليٍّ فَتُنْهِضينَهُمْ كَما أَنْهَضْتِي أَهْلَ مَكَّةَ، فَإِنْ أَصْلَحَ اللهُ الأَمْرَ كانَ الَّذي أَرَدْنا، وَإِلّا دَفَعْنا بِجُهْدِنا حَتَّى يَقْضيَ اللهُ ما أَرادَ. فَأَجابَتْهُمْ إِلَى ذَلِكَ.

وبلغَ عَليّاً – وَهوَ بِالمَدينَةِ – اجتماعهم عَلَى الخروج إِلَى البَصْرَةِ وَبِالَّذي اجتمع عَلَيْهِ ملؤهم، طَلْحَةُ والزُّبَيْر وعائشة ومن تبعهم، وبلغه قول عائِشَةَ، وخرج علي يبادرهم في جَمْعِهِ الذي كانَ جَمَعَهُ ليأْتي بهِ الشامَ، وخرج مَعَهُ من نشط مِنَ الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل، وهو يرجو أَنْ يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج، فلقيه عَبْد اللهِ بن سلام فأخذ بعنانه، وَقالَ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، لا تخرج منها، فو الله لَئِنْ خرجت منها لا ترجع إِلَيْها وَلا يعود إِلَيْها سلطان المُسْلِمينَ أَبَداً! ... فلم يستَمعْ إليه وسارَ حَتَّى انتهى إِلَى الرَّبْذَة فبلغه ممرهم، فأقام حين فاتوه يأْتَمِرُ بالرَّبذَةِ.

وأشرفت عائشةُ على البَصْرَةِ، وأرسلَ عثمانُ بنُ حَنيفٍ أميرُ عليٍّ في البَصْرَةِ إلى عائشةَ أَبا الأَسوَدِ الدُّؤليَّ وآخرَ معَه، فقالا لَها: إِنَّ أَميرَنا بَعَثَنا إِلَيْكِ نَسْأَلُكِ عَنْ مَسيرِكِ، فَهَلْ أَنْتِ مُخْبِرَتُنا؟ فَقالَتْ: واللهِ ما مِثْلي يَسيرُ بِالأَمْرِ المَكْتومِ وَلا يُغَطّي لِبَنيهِ الخَبَرَ إِنَّ الغَوْغاءَ مِنْ أَهْلِ الأَمْصارِ وَنُزّاعَ القَبائِلِ غَزَوْا حَرَمَ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وَأَحْدَثوا فيهِ الأَحْداثَ، وَآوَوْا فيهِ المُحْدِثينَ، واسْتَوْجَبوا فيهِ لَعْنَةَ اللهِ وَلَعْنَةَ رَسولِهِ، مَعَ ما نالوا مِنْ قَتْلِ إِمامِ المُسْلِمينَ بِلا تِرَةٍ وَلا عُذْرٍ، فاسْتَحَلّوا الدَّمَ الحَرامَ فَسَفَكوهُ، وانْتَهَبوا المالَ الحَرامَ، وَأَحَلّوا البَلَدَ الحَرامَ، والشَّهْرَ الحَرامَ، وَمَزَّقوا الأَعْراضَ والجُلودَ، وَأَقاموا

في دارِ قَوْمٍ كانوا كارِهينَ لِمُقامِهِمْ ضارّينَ مُضِرّينَ، غَيْرُ نافِعينَ وَلا مُتَّقينَ، لا يَقْدِرونَ عَلَى امْتِناعٍ وَلا يأمنون، فَخَرَجْتُ في المُسْلِمينَ أُعْلِمُهُمْ ما أَتَى هَؤُلاءِ القَوْمُ وَما فيهِ النّاسُ وَراءَنا، وَما يَنْبَغي لَهُمْ أَنْ يَأْتوا في إِصْلاحِ هَذا وقرأت: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْروفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

فَخَرَجَ أَبو الأَسْوَدِ وَعِمْرانُ مِنْ عِنْدِها فَأَتَيا طَلْحَةَ فَقالا: ما أَقْدَمَكَ؟ قالَ: الطَّلَبُ بدم عثمان، قالا: أَلَمْ تُبايِعْ عَليّاً؟ قالَ: بَلَى، واللُّجُّ عَلَى عُنُقي، وَما أَسْتَقيلُ عَليّاً إِنْ هوَ لَمْ يَحُلْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَتَلَةِ عُثْمانَ، ثُمَّ أَتَيا الزُّبَيْرَ فَقالا: ما أَقْدَمَكَ؟ قالَ: الطَّلَبُ بدم عثمان، قالا: أَلَمْ تُبايِعْ عَليّاً؟ قالَ: بَلَى، واللُّجُّ عَلَى عُنُقي، وَما أَسْتَقيلُ عَليّاً إِنْ هوَ لَمْ يَحُلْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَتَلَةِ عُثْمانَ.

فَرَجَعَ أَبو الأَسْوَدِ وعِمرانُ إلى البصْرَةَ حَتَّى دَخَلا عَلَى عُثْمانَ بْنِ حُنَيْفٍ، وأخبروه خبرَ القومِ.

وافترقَ أَصْحابُ عثمانَ بنِ حنيفٍ فِرقَتَيْنِ، فَقالَتْ فِرْقَةٌ: صَدَقَتْ واللهِ وَبَرَّتْ، وَجاءَتْ واللهِ بِالمَعْروفِ، وَقالَ الآخَرونَ: كَذَبْتُمْ واللهِ ما نَعْرِفُ ما تَقولونَ، فَتَحاثَوْا وَتَحاصَبوا وَأَرْهَجوا وحصلَ بينهما قِتالٌ، ثم تَصالَحوا على أنْ ينتظروا ليعرفوا هل بايَعَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ مُكْرَهيْن كما يَقولانِ أَم لا. فإذا كانَ الأَوَّلُ، فالأَمْرُ أَمْرُهما، وإذا كانَ الثّاني، فالحَقُّ معَ عُثْمانَ بنِ حَنيفٍ. وأَرْسَلوا كَعْبَ بْنَ سورٍ ليتبيَّن ذلك في المدينةِ. فَخَرَجَ كَعْبٌ حَتَّى قَدِمَ المَدينَةَ، فاجْتَمَعَ النّاسُ لِقُدومِهِ، فَقامَ كَعْبٌ فَقالَ: يا أَهْلَ المَدينَةِ، إِنّي رَسولُ أَهْلِ البَصْرَةِ إِلَيْكُمْ، أَأَكْرَهَ هَؤُلاءِ القَوْمُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ عَلَى بَيْعَةِ عَليٍّ، أَمْ أَتَياها طائِعَيْنِ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنَ القَوْمِ إِلا ما كانَ مِنْ أُسامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَإِنَّهُ قامَ فَقالَ: اللَّهُمَّ إِنَّهُما لَمْ يُبايِعا إِلا وَهُما كارِهانِ فَأَمَرَ بِهِ تَمّامٌ. فَوَثَبَ عليهِ بعضُ من كانَ في المَجْلِسِ منَ الغَوغاءِ، فخشيَ عليهِ بعضُ الصّحابةِ، فيهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، حينَ

خافوا أَنْ يُقْتَلَ أُسامَةُ، فَقالَ: "اللَّهُمَّ نَعَمْ، فانْفَرِجوا عَنِ الرَّجُلِ" فانْفَرَجوا عَنْهُ، وَأَخَذَ صُهَيْبٌ بيَدِهِ حَتَّى أَخْرَجَهُ فَأَدْخَلَهُ مَنْزِلَهُ[1].

وكتبَتْ عائشةُ رضي الله عنها إلى أَهْلِ الكوفَةِ تَقولُ: إنّا قَدِمْنا البَصْرَةَ فَدَعَوْناهُمْ إِلَى إِقامَةِ كِتابِ اللهِ بِإِقامَةِ حُدودِهِ، فَأَجابَنا الصّالِحونَ إِلَى ذَلِكَ، واسْتَقْبَلَنا مَنْ لا خَيْرَ فيهِ بِالسِّلاحِ، وَقالوا: لَنَتْبِعَنَّكُمْ عُثْمانَ، ليزيدوا الحُدودَ تَعْطيلاً، فَعانَدوا فَشَهِدوا عَلَيْنا بِالكُفْرِ وَقالوا لَنا المُنْكَرَ، فَقَرَأْنا عَلَيْهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ أوتوا نَصيباً مِنَ الكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣] فَأَذْعَنَ لي بَعْضُهُمْ، واخْتَلَفوا بَيْنَهُمْ، فَتَرَكْناهُمْ وَذَلِكَ، فَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مَنْ كانَ مِنْهُمْ عَلَى رَأْيِهِ الأَوَّلِ مِنْ وَضْعِ السِّلاحِ في أَصْحابي، وَعَزَمَ عَلَيْهِمْ عُثْمانُ بْنُ حُنَيْفٍ إِلا قاتَلوني حَتَّى مَنَعَني اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالصّالِحِينَ، فَرَدَّ كَيْدَهُمْ في نُحورِهِمْ، فَمَكَثْنا سِتّاً وَعِشْرينَ لَيْلَةً نَدْعوهُمْ إِلَى كِتابِ اللهِ وَإِقامَةِ حُدودِهِ- وَهوَ حَقْنُ الدِّماءِ أَنْ تُهْراقَ دونَ مَنْ قَدْ حَلَّ دَمُهُ- فَأَبَوْا واحْتَجّوا بِأَشْياءَ، فاصْطَلَحْنا عَلَيْها، فَخانوا وَغَدَروا، وقاتَلونا فَقاتَلْناهُمْ، فلَمْ يفلتْ منْهُم إِلّاَ رَجلٌ مِنَ الظّالمِيْنَ.

وكانت نتيجةُ الموقِعةِ أَدْنى إِلى جانبِ عائشةَ ومَنْ معَها، وقُتِلَ كلُّ مَنِ اشتَرَك في قتلِ عُثْمانَ رضي اللهُ عنهُ مِنْ الصَّفِّ المقابلِ إِلّا رَجُلاً واحِداً.

لقَدْ أَرادَتْ عائشةُ أنْ تمنَعَ الدِّماءَ، فلم يُمكِّنوها من ذلكَ، فكانتِ الموقِعَةُ.

وأمّا عليٌّ فتوقفَ بالرَّبَذَةِ كما مرَّ، ثم عزَمَ على التوجُّهِ إلى البَصْرَة، فقامَ إِلَيْهِ ابْنٌ لِرِفاعَةَ بْنِ رافِعٍ، فَقالَ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، أَيَّ شَيْءٍ تُريدُ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ بِنا؟ فَقالَ: أَمّا الَّذي نُريدُ وَنَنْوي فالإِصْلاحَ، إِنْ قَبِلوا مِنّا وأَجابونا إِلَيهِ.

قال: فإِنْ لم يجيبوا إِلَيْهِ؟ قالَ: نَدَعُهُمْ بِعُذْرِهِمْ وَنُعْطيهِمُ الحَقَّ وَنَصْبِرُ.

---

[1] الطبري (٤/٤٦٨).

قالَ: فَإِنْ لَمْ يَرْضَوْا؟ قالَ: نَدَعُهُمْ ما تَرَكونا.

قالَ: فَإِنْ لَمْ يَتْرُكونا؟ قالَ: امْتَنَعْنا مِنْهُمْ، قالَ: فَنَعَمْ إِذاً.

وقدِمَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ إِلى الكوفَةِ فَأَتَيا أَبا موسَى بِكِتابِ عَليٍّ، وَقاما في النّاسِ بِأَمْرِهِ، فَلَمْ يُجابا إِلَى شَيْءٍ. فَلَمّا أَمْسَوْا دَخْلَ ناسٌ مَنْ أَهْلِ الحِجَى عَلَى أَبي موسَى فَقالوا: ما تَرَى في الخُروجِ؟ فَقالَ: كانَ الرَّأْيُ بِالأَمْسِ لَيْسَ اليَوْمَ، إِنَّ الَّذي تَهَاوَنْتُمْ بِهِ فيما مَضَى هوَ الَّذي جَرَّ عَلَيْكُمْ ما تَرَوْنَ، إِنَّما هُما أَمْرانِ: القُعودُ سَبيلُ الآخِرَةِ، والخُروجُ سَبيلُ الدُّنْيا، فاخْتاروا. فَلَمْ يَنْفِرْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، فَغَضِبَ ابنُ أبي بكرٍ وابنُ جعفَر، وَأَغْلَظا لِأَبي موسَى. فَقالَ لَهُما: واللهِ إِنَّ بَيْعَةَ عُثْمانَ لَفي عُنُقي وَعُنُقِ صاحِبِكُما، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ قِتالٍ لا نُقاتِلُ أَحَداً حَتَّى نَفْرَغَ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمانَ حَيْثُ كانوا.

فانْطَلَقا إِلَى عَليٍّ فَأَخْبَراهُ الخَبَرَ وَهوَ بِذي قارٍ، فَقالَ لِلأَشْتَرِ، وَكانَ مَعَهُ: أَنْتَ صاحِبُنا في أَبي موسَى والمُعْتَرِضُ في كُلِّ شَيْءٍ، اذْهَبْ أَنْتَ وابْنُ عَبّاسٍ فَأَصْلِحْ ما أَفْسَدْتَ. فَخَرَجا فَقَدِما الكوفَةَ، فَكَلَّما أَبا موسَى، واسْتَعانا عَلَيْهِ بِنَفَرٍ مِنْ أَهْلِ الكوفَةِ، فَقامَ لَهُمْ أَبو موسَى وَخَطَبَهُمْ وَقالَ: أَيُّها النّاسُ إِنَّ أَصْحابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذينَ صَحِبوهُ أَعْلَمُ بِاللهِ وَبِرَسولِهِ مِمَّنْ لَمْ يَصْحَبْهُ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْنا لَحَقّاً، وَأَنا مُؤَدٍّ إِلَيْكُمْ نَصيحَةً، كانَ الرَّأْيُ أَنْ لا تَسْتَخِفّوا بِسُلْطانِ اللهِ، وَأَنْ لا تَجْتَرِئوا عَلَى اللهِ، وَأَنْ تَأْخُذوا مَنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ مِنَ المَدينَةِ فَتَرُدّوهُمْ إِلَيْها حَتَّى يَجْتَمِعوا، فَهُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ تَصْلُحُ لَهُ الإِمامَةُ، وَهَذِهِ فِتْنَةٌ صَمّاءُ، النّائِمُ فيها خَيْرٌ مِنَ اليَقْظانِ، واليَقِظانُ خَيْرٌ مِنَ القاعِدِ، والقاعِدُ خَيْرٌ مِنَ القائِمِ، والقائِمُ خَيْرٌ مِنَ الرّاكِبِ، والرّاكِبُ خَيْرٌ مِنَ السّاعي، فَكونوا جُرْثومَةً مِنْ جَراثيمِ العَرَبِ، فَأَغْمِدوا السُّيوفَ، وانْصِلوا الأَسِنَّةَ، واقْطَعوا الأَوْتارَ، وَآووا المَظْلومَ والمُضْطَهَدَ، حَتَّى يَلْتَئِمَ هَذا الأَمْرُ، وَتَنْجَلِيَ هَذِهِ الفِتْنَةُ.

فَرَجَعَ ابْنُ عَبّاسٍ والأَشْتَرُ إِلَى عَلِيٍّ فَأَخْبَراهُ الخَبَرَ، فَأَرْسَلَ ابْنَهُ الحَسَنَ وَعَمّارَ بْنَ ياسِرٍ، وَقالَ لِعَمّارٍ: انْطَلَقْ فَأَصْلِحْ ما أَفْسَدْتَ. فَأَقْبَلا حَتَّى دَخَلا المَسْجِدَ، وَكانَ أَوَّلَ مَنْ أَتاهُما المَسْروقُ بْنُ الأَجْدَعِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِما، وَأَقْبَلَ عَلَى عَمّارٍ فَقالَ: يا أَبا اليَقْظانِ عَلامَ قَتَلْتُمْ عُثْمانَ؟ قالَ: عَلَى شَتْمِ أَعْراضِنا وَضَرْبِ أَبْشارِنا.

فَقالَ لهُ: فَواللهِ ما عاقَبْتُمْ بِمِثْلِ ما عوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرتُمْ لَكانَ خَيْراً لِلصّابِرِينَ. فَخَرَجَ أَبو موسَى فَلَقِيَ الحَسَنَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى عَمّارٍ فَقالَ: يا أَبا اليَقْظانِ أَعَدَوْتَ عَلَى أَميرِ المُؤْمِنينَ فيمَنْ عَدا، فَأَحْلَلْتَ نَفْسَكَ مَعَ الفُجّارِ؟ فَقالَ: لَمْ أَفْعَلْ وَلَمْ يَسُؤْني. فَقَطَعَ الحَسَنُ عَلَيْهِما الكَلامَ، وَأَقْبَلَ عَلَى أَبي موسَى فَقالَ لَهُ: لِمَ تُثَبِّطِ النّاسَ عَنّا؟ فَواللهِ ما أَرَدْنا إِلّا الإِصْلاحَ، وَلَيسَ مِثْلُ أَميرِ المُؤْمِنينَ يُخافُ منهُ عَلَى شَيْءٍ. فَقالَ: صَدَقْتَ بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي، وَلَكِنَّ المُسْتَشارَ مُؤْتَمَنٌ، سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: «إِنَّها سَتَكونُ فِتْنَةٌ، القاعِدُ فيها خَيْرٌ مِنَ القائِمِ، والقائِمُ خَيْرٌ مِنَ الماشي، والماشي خَيْرٌ مِنَ الرّاكِبِ». وَقَدْ جَعَلَنا اللهُ إِخْواناً، وَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْنا دِماءَنا وَأَمْوالَنا.

وحَصَلَتْ غَوْغاء، وَثارَ النّاسُ، وَجَعَلَ أَبو موسَى يُكَفْكِفُ النّاسَ، وَيَقولُ: أَيُّها النّاسُ أَطيعوني وَكونوا جُرْثومَةً مِنْ جَراثيمِ العَرَبِ يَأْوي إِلَيْكُمُ المَظْلومُ، وَيَأْمَنُ فيكُمُ الخائِفُ، إِنَّ الفِتْنَةَ إِذا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ فَإِذا أَدْبَرَتْ بَيَّنَتْ، وَإِنَّ هَذِهِ الفِتْنَةَ فاقِرَةٌ كَداءِ البَطْنِ تَجْري بِها الشَّمالُ والجَنوبُ والصَّبا والدَّبورُ، تَذَرُ الحَليمَ وَهوَ حَيْرانُ كابْنِ أَمْسِ، شيموا سُيوفَكُمْ، وَقَصِّدوا رِماحَكُمْ، وَقَطِّعوا أَوْتارَكُمْ، والزَموا بُيوتَكُمْ، خَلّوا قُرَيْشاً إِذا أَبَوْا إِلّا الخُروجَ مِنْ دارِ الهِجْرَةِ وَفِراقَ أَهْلِ عِلْمٍ بِالأُمَراءِ، اسْتَنْصِحوني وَلا تَسْتَغِشّوني، أَطيعوني يَسْلَمْ لَكُمْ دينُكُمْ وَدُنْياكُمْ، وَيَشْقَى بِجَرِّ هَذِهِ الفِتْنَةِ مَنْ جَناها.

فَقامَ القَعْقاعُ بْنُ عَمْرٍو فَقالَ: إِنّي لَكُمْ ناصِحٌ وَعَلَيْكُمْ شَفيقٌ، أُحِبُّ لَكُمْ أَنْ تَرْشُدوا، وَلأَقولَنَّ لَكُمْ قَوْلاً هوَ الحَقُّ، أَمّا ما قالَ الأَميرُ فَهوَ الحَقُّ لَوْ أَنَّ إِلَيْهِ سَبيلاً، ...

والقَوْلُ الَّذي هوَ الحَقُّ أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ إمارَةٍ تُنَظِّمُ النّاسَ وَتَزِعُ الظّالِمَ وَتُعِزُّ المَظْلومَ، وَهَذا أَميرُ المُؤْمِنينَ وُلِّيَ بِما وُلِّيَ وَقَدْ أَنْصَفَ في الدُّعاءِ، وَإِنَّما يَدْعو إِلَى الإِصْلاحِ، فانْفِروا وَكونوا مِنْ هَذا الأَمْرِ بِمَرْأًى وَمَسْمَعٍ.

وقامَ رجلٌ ... فدعا النّاس إِلى مثلِ ما قالَه القعقاعُ، فقالَ: أَيُّها النّاسُ، لا بُدَّ لِهَذا الأَمْرِ وَهَؤُلاءِ النّاسِ مِنْ والٍ يَدْفَعُ الظّالِمَ وَيُعِزُّ المَظْلومَ وَيَجْمَعُ النّاسَ، وَهَذا واليكُمْ يَدْعوكُمْ لِتَنْظُروا فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ صاحِبَيْهِ، وَهوَ المَأْمونُ عَلَى الأُمَّةِ، الفَقيهُ في الدّينِ، فَمَنْ نَهَضَ إِلَيْهِ فَإِنّا سائِرونَ مَعَهُ.

وَقامَ الحَسَنُ بْنُ عَليٍّ فَقالَ: أَيُّها النّاسُ أَجيبوا دَعْوَةَ أَميرِكُمْ وَسيروا إِلَى إِخْوانِكُمْ، فَإِنَّهُ سَيوجَدُ لِهَذا الأَمْرِ مَنْ يَنْفِرُ إِلَيْهِ، وَواللهِ لَأَنْ يَلِيَهِ أولو النُّهَى أَمْثَلُ في العاجِلِ والآجِلِ وَخَيْرٌ في العاقِبَةِ، فَأَجيبوا دَعْوَتَنا وَأَعينونا عَلَى ما ابْتُلينا بِهِ وابْتُليتُمْ...

وتحدَّث عددٌ من أهلِ الكوفَةِ بمثل ذلك، وانتهى الأمرُ بطاعةِ أهلِ الكوفةِ لعليِّ بنِ أَبي طالِبٍ.

وقعة الجمل

الخميس: ١٠/ جمادى الآخرة/ ٣٦ هـ

أرسلَ عليٌّ القعقاعَ بنَ عمْرٍو وقالَ له: القَ هَذيْن الرَّجُليْن طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ – وكان القعقاعُ من أَصْحابِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم – فادعُهما إِلى الأُلْفَةِ والجماعةِ وحذِّرْهما مِنَ الاختلافِ والنِّزاعِ.

فخرجَ القعقاعُ حتى قدِمَ البَصْرَةَ. فبدأَ بعائشةَ فسلَّم عليها، وقال: أَي أمه؛ ما أَشْخصَكِ وما أَقْدَمكِ هذه البلْدَةَ؟ قالت: الإِصْلاحُ بين النّاس.

قال: فابعثي إِلى طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ حتى تسمَعي كلامي وكلامهما.

فبعثَتْ إليهما، فجاءا فقالَ: إنّي سأَلْتُ أمَّ المؤمنينَ ما أشخَصَها وأقدَمَها هذه البلاد، فقالتْ الإِصْلاحُ بيْنَ النّاسِ؛ فما تَقولانِ أَنتُما أَمُتابِعانِ أمْ مُخالِفانِ؟

قالا: متابعان.

قال: فأَخْبِراني؛ ما وجهُ هذا الإِصْلاحِ، فوالله لئن عَرفْناه لنصلحن؟

قالا: قَتْلُ قَتَلَةِ عُثْمانَ بنِ عفّانَ، فإِنَّهم إنْ تُرِكوا كانَ تَرْكاً للقرآنِ.

فقالَ: قد قَتَلْتُمْ قَتَلَةَ عُثْمانَ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ، وأنتمْ قبلَ أنْ تقتُلوهم، كنتم أحسنَ حالاً منكم اليومَ: قتلْتُم ستَمئةِ رَجُلٍ، فغضِبَ لهم ستَّةُ آلافٍ، واعتزلوكُم وخَرَجوا منْ بيْنِ أَظْهُرِكُم. وطلبتم ذلِكَ الذي أَفْلَتَ - يعني (حُرْقوصَ بنَ زُهَيْرٍ) - فمنعَه ستَّةُ آلافٍ. فإِنْ أنتُم بايَعْتُمونا، فعلامةُ خيرٍ وتباشيرُ رحمةٍ، ودَرَك لثأْرِ عُثْمانَ وعافية لهذه الأمَّةِ. وإنْ أنتم أبيتُم إلّا مكابرةَ هذا الأمرِ، كان علامة شرٍّ وذهاب هذا الثَّأْرِ.

قالوا: نعم إذن فقد أحسنت وأصبت المقالة. فارجع فإن قدم علي، وهو على مثل رأيك، صَلَح هذا الأمرُ.

فرجع إلى علي، فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح.

ويستدل من هذا القول على أَنَّ عَلِيّاً كان يرغب مرة أخرى في تتبع قتلة عثمان، إلا أنه ما كان يريد أَنْ يثير أصحاباً لهم، فيوقع المسْلِميْنَ بين كتلتين متقاتلتين.

وجاءت وفود من أهل البَصْرَة إلى الكوفة، وخطب عليّ فيهم وقال: ألا وإني راحل غداً فارتحلوا، ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على قتل عُثْمان بشيء في شيءٍ، وليغن السُّفهاء عنّي أنفسهم.

فاجتمع نفر مِنَ الخارِجيْنَ، منهم علباء بن الهيثم، وسالم بن ثعلبة العبسي، وشريح بن أوفى، والأشتر، في عدَّةٍ ممن سار إلى عثمان ورضي بسير من سار، وجاء معهم المصريون (ابن السَّوْداء، وخالد بن ملجم...) فقالوا: ما الرأي؟ فقال الأشتر: أما طَلْحَة

والزُّبَيْر فقد عرفنا أمرهما، وأما عليّ فلم نعرف أمره حتى كان اليوم؛ ورأي النّاس فينا والله واحد، فإذا تصالح عليّ وعائشة، فعلى دمائنا، فهلموا فلنقتل عَليّاً، فنلحقه بعثمان، فتعود الفتنة يُرضى منّا فيها السكون، وينْسى النّاسُ أَمْرنا. فقال عبد الله بن السوداء: بئس الرأي رأيت. أنتم يا قتلة عُثْمان من أهل الكوفة بذي قار ألفان وخمسمائة أو نحو من ستمئة. وهذا ابن الحنظلية وأصحابه في خمسة آلاف، يسعون إلى أَنْ يجدوا إلى قتالكم سبيلاً. فارقأ على ظلعك. وتكلَّم غير الأَشتَر.

ثم تكلَّم ابنُ السَّوْداء، فقال: يا قوم إِنَّ عزَّكُم في خلْطَةِ النّاسِ فصانِعوهُم، وإِذا التَقى النّاسُ غداً، فأَنْشِبوا القِتالَ ولاتُفْرِغوهُم للنَّظرِ، فإِذا مَنْ أَنْتُمْ معَهُ لا يَجِدُ بدّاً مِنْ أنْ يمتنعَ، ويُشْغِلُ اللهُ عليّاً وطلْحةَ والزُّبيرَ ومَنْ رأَى رأْيَه، فأَبْصِروا الرَّأْيَ وتَفرَّقوا عليه والنّاسُ لا يَشْعُرونَ، ولا تَتْرُكوا للنّاسِ مَجالاً للتَّفاهُمِ.

وظاهر من هذا القول أنه نصحهم بأن يهاجموا أصحاب الزُّبَيْر وطَلْحَة، فيظنوا أَنَّ جيش عليّ هو المهاجم. وتوارد الزُّبَيْرُ وطَلْحَةُ على مكان أهل الكوفة.

ونصح قوم الزُّبَيْرَ بقتالِ عليٍّ. فقال: إنا وهم مسلمون... وإنّا فارقنا وافدهم على أمْرٍ، وأنا أرجوا أَنْ يتُمَّ الصُلح، فأبشروا واصبروا.

وقام عليٌّ فخطبَ النّاس، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: "يا أيها النّاس أملكوا أنفسكم، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم، فإنهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتيكم ؛ وإياكم أن تسبقونا، فإن المخصوم غداً من خصم اليوم".

ثم ارتحل.

فموقف الطَّرفيْن موقفٌ واحدٌ متشابهٌ في طلَبِ التَّفاهمِ والإِصْلاحِ.

ولما اطمأن النّاس، خرج عليّ وخرج طَلْحَة والزُّبَيْر، فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمرا هو أمثل مِنَ الصلح ووضع الحرب، ورجع عليّ إلى عسكره وطَلْحَة والزُّبَيْر إلى عسكرهما.

فباتوا على الصلح، وَباتَ الَّذينَ أَثاروا أَمْرَ عُثْمانَ بِشَرٍّ لَيْلَةٍ باتوها قَطُّ، قَدْ أَشْرَفوا عَلَى الهَلَكَةِ، وَجَعَلوا يَتَشاوَرونَ لَيْلَتَهُمْ كُلَّها، حَتَّى اجْتَمَعوا عَلَى إِنْشابِ الحَرْبِ في السِّرِّ، واسْتَسَرّوا بِذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ يُفْطَنَ بِما حاوَلوا مِنَ الشَّرِّ، فَغَدَوْا مَعَ الغَلَسِ[1]، وَما يَشْعُرُ بِهِمْ جيرانُهُمْ، انْسَلّوا إِلَى ذَلِكَ الأَمْرِ انْسِلالا، وَعَلَيْهِمْ ظُلْمَةٌ، فَخَرَجَ مُضَرِيُّهم إِلَى مُضَرِيِّهم، وَرَبَعِيهِمْ إِلَى رَبَعِيهِمْ، وَيَمانيهِمْ إِلَى يَمانيهِمْ، فَوَضَعوا فيهِمُ السِّلاحَ، فَثارَ أَهْلُ البَصْرَةِ، وَثارَ كُلُّ قَوْمٍ في وُجوهِ أَصْحابِهِمُ الَّذينَ فاجَؤوهُم. وَخَرَجَ الزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ في وُجوهِ النّاسِ مِنْ مُضَر ... فَقالا: ما هَذا؟ قالوا: طَرَقَنا أَهْلُ الكوفَةِ لَيْلاً، فَقالا: "قَدْ عَلِمْنا أَنَّ عَليّاً غَيْرُ مُنْتَهٍ حَتَّى يَسْفِكَ الدِّماءَ، وَيَسْتَحِلَّ الحُرْمَةَ، وَأَنَّهُ لَنْ يُطاوِعَنا" ثُمَّ رَجَعا بِأَهْلِ البَصْرَةِ، وَقَصَفَ أَهْلُ البَصْرَةِ، المهاجِمِيْنَ حَتَّى رَدّوهُمْ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، فَسَمِعَ عَليٌّ وَأَهْلُ الكوفَةِ الصَّوْتَ، وَقَدْ وَضَعوا رَجُلاً قَريباً مِنْ عَليٍّ لِيُخْبِرَهُ بِما يُريدونَ، فَلَمّا قالَ: ما هذا؟ قالَ ذاكَ الرَّجلُ: ما فجئنا إِلا وَقَوْمٌ مِنْهُمْ بَيَّتونا، فَرَدَدْناهُمْ مِنْ حَيْثُ جاؤوا، ... فقالَ: "لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ غَيْرَ مُنْتَهَيَيْنِ حَتَّى يَسْفِكا الدِّماءَ، وَيَسْتَحِلا الحُرْمَةَ، وَأَنَّهُما لَنْ يُطاوِعانا" والسَّبَئِيَّةُ لا تَفْتُرُ إِنْشاباً وَنادَى عَليٌّ في النّاسِ: أَيُّها النّاسُ، كُفّوا فَلا شَيْءٌ.

---

[1] الغَلَسُ: ظُلْمَةُ آخِرِ اللَّيْلِ.

فَكانَ مِنْ رَأْيِهِمْ جَميعاً في تِلَكَ الفِتْنَةِ أَلا يَقْتَتِلوا حَتَّى يُبْدَؤوا، يَطْلُبونَ بِذَلِكَ الحُجَّةَ، وَيَسْتَحِقّونَ عَلَى الآخَرينَ، وَلا يَقْتُلوا مُدْبِراً، وَلا يَجْهِزوا عَلَى جَريحٍ، وَلا يُتْبِعوا، فَكانَ مِمّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الفَريقانِ وَنادَوْا فيما بَيْنَهُما.

وهذا يدلُّ مرَّةً أُخرى على أنَّ عليَّ بنَ أَبي طالِبٍ وعائشةَ، كانا بَعيدَيْن عن الفتنَةِ كلَّ البُعْدِ، وأَنَّهما اجتمعا على التَّوافقِ وعدمِ الحرب، إلّا بعد نفادِ كل وسائل السِّلْمِ.

وأَقْبَلَ كَعْبُ بْنُ سورٍ[1] حتى أَتى عائشَةَ فقالَ: أَدْرِكي فَقَدْ أَبى القومُ إِلَّا القِتالَ، لعلَّ اللهَ يُصْلِحُ بِكِ. فركِبَتْ وأَلْبَسوا هَوْدَجَها الأَدْراعَ، ثمَّ بعَثوا جَمَلَها.

فلمَّا برَزَتْ مِنَ البُيوتِ، وكانَتْ بِحَيْثُ تَسْمَعُ الغَوغاءَ وَقَفَتْ. فلمْ تلبَثْ أَنْ سَمِعَتْ غَوْغاءَ شَديدةً فقالتَ: ما هذا؟ قالوا: ضجَّة العَسْكرِ، قالتْ: بِخَيْرٍ أَو بِشَرٍّ؟ قالوا: بِشَرٍّ، قالت: فأيُّ الفريقيْنِ كانت منهم هذه الضَّجةُ فهم المهزومونَ. ثم ما لبِثَتْ أنْ علِمَتَ هَزيْمَةَ أَصحابِها.

فظاهرٌ أنَّ عائشةَ رضي الله عنها لم تُردِ القِتالَ، وخرجَت لمنعِه حتى فاجأَها مُفاجأَة، فقالت لكعْبِ بنِ سورٍ: تقدَّم بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ فادعهم إليه. ودفعت إليه مصحفاً، وأقْبلَ القومُ، وأَمامهم السَّبئيَةُ يَخافونَ أنْ يجري الصُّلحُ؛ فاستقبلهم كعبٌ بالمصحَف، وعليٌّ من خلْفِهم يؤخِّرهم ويأبون إلّا إِقْداماً. فلمّا دَعاهُم كَعبٌ، فَرَمَوْهُ رَشْقاً واحِداً فَقَتَلوهُ، وَرَمَوْا أُمَّ المُؤْمِنينَ في هَوْدَجِها، فَجَعَلَتْ تُنادي: البَقيَّةَ البَقيَّةَ يا بُنَيَّ! - وَيُعْلو صَوْتُها كَثْرَةً - اللهَ اللهَ! اذْكُروا اللهَ والحِسابَ! فَيَأْبَوْنَ إِلّا إِقْداماً، فَكانَ أَوَّلُ

---

[1] قال ابنُ حِبَّانَ في ترجَمتِه: من أَفاضِلِ التَّابعينَ والعُقَلاءِ الصَّالحينَ، علَّقَ المصْحَفَ في عنُقِه يومَ الجَمَلِ، وجَعلَ يمرُّ إِلى هَؤلاءِ فيذكِّرهُم باللهِ، ويَجيءُ إلى هؤلاءِ فيذكِّرهم باللهِ حتى قُتِلَ بيْن الصَّفَّيْنِ. مشاهير علماء الأمصار: ١٦٢.

شَيْءٍ أَحْدَثَتْهُ حينَ أَبَوْا أَنْ قالَتْ: أَيُّها النّاسُ العَنوا قَتَلَةَ عُثْمانَ وَأَشْياعَهُمْ. وَأَقْبَلَتْ تَدْعو، وَضَجَّ النّاسُ بِالدُّعاءِ، فَسَمِعَ عَليٌّ فَقالَ: ما هَذِهِ الضَّجَّةُ؟ قالوا: عائِشَةُ تَدْعو عَلَى قَتَلَةِ عُثْمانَ وَأَشْياعِهِمْ. فَقالَ عَليٌّ: اللَّهُمَّ العَنْ قَتَلَةَ عُثْمانَ وأَشْياعِهم!

وظاهِرٌ أنَّ عليّاً وعائشَةَ غُلِبا على أَمْرِهِما، فامتد القِتالُ، واستعرت المعركة والقتل حول الجمل حتى قطع بطانه، فحمل الهودج وفيه أم المؤمنين ووضع على الأرض وهو كالقنفذ لكثرة ما فيه مِنَ السهام ثُمَّ طيفَ بِهِ، فَفَرَّ مَنْ كانَ حوْلَهُ مِنَ المقاتِلَة. فَلَمّا انْهَزَموا أَمَرَ عَليٌّ مُنادياً فَنادَى: أَلا لا تَتْبَعوا مُدْبِراً، وَلا تُجْهِزوا عَلَى جَريحٍ، وَلا تَدْخُلوا الدّورَ. وَأَمَرَ عَليٌّ نَفَراً أَنْ يَحْمِلوا الهَوْدَجَ مِنْ بَيْنِ القَتْلَى، وَأَمَرَ أَخاها مُحَمَّدَ بْنَ أَبي بَكْرٍ أَنْ يَضْرِبَ عَلَيْها قُبَّةً، وَقالَ: انْظُرْ هَلْ وَصَلَ إِلَيْها شَيْءٌ مِنْ جِراحَةٍ؟ فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ في هَوْدَجِها، فَقالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟ قالَ: أخوكِ البَر، قالت: عَقوقٌ.

ولمّا كان من آخر الليل خرج محمَّدٌ بعائشَةَ، وأَدْخَلَها البَصْرَةَ.

وانتهى القِتالُ بيْنَ الطَّرَفيْنِ بنصرِ أهلِ الكوفةِ.

توجُّع عليٍّ على قَتْلى يومِ الجَمَلِ:

وأقام عليّ في عسكره ثلاثة أيام لا يدخل البَصْرَة. وندَب الناس إلى موتاهم، فخرجوا إليهم فدفنوهم، وجعل عليٌّ يطوف على القَتْلى وكلَّما مرَّ برجلٍ فيه خيرٌ، قال: زَعَمَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ إِلَيْنا إلا الغَوْغاءُ، هَذا العابِدُ المُجْتَهِدُ، وَصَلَّى عَلَى قَتْلاهُمْ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ، وَعَلَى قَتْلاهُمْ مِنْ أَهْلِ الكوفَةِ، وَصَلَّى عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ هؤلاءِ وهؤلاءِ، ... وَدَفَنَ الأَطْرافَ في قَبْرٍ عظيمٍ، وجمع ما كان في العَسكرِ منْ شَيْءٍ، ثُمَّ بَعَثَ بِهِ إِلَى مَسْجِدِ البَصْرَةِ، أَنَّ مَنْ عَرَفَ شَيْئاً فَلْيَأْخُذْهُ، إِلّا سِلاحاً كانَ في الخَزائِنِ عَلَيْهِ سِمَةُ السُّلْطانِ...

تجهيز عائشة وتسييرها إلى المدينة:

جهز عليٌّ عائشةَ بِكُلِّ شَيْءٍ يَنْبَغي لَها مِنْ مَرْكَبٍ أَوْ زادٍ أَوْ مَتاعٍ، وَأَخْرَجَ مَعَها كُلَّ مَنْ نَجا مِمَّنْ خَرَجَ مَعَها إلا مَنْ أَحَبَّ المُقامَ، واخْتارَ لَها أَرْبَعينَ امْرَأَةً مِنْ نِساءِ أَهْلِ البَصْرَةِ المَعْروفاتِ، وَقالَ [لأَخيها محمَّدٍ]: تَجَهَّزْ يا مُحَمَّدُ، فَبَلِّغْها [المدينةَ].

فَلَمّا كانَ اليَوْمُ الَّذي تَرْتَحِلُ فيهِ، جاءَها حَتَّى وَقَفَ لَها، وَحَضَرَ النّاسُ، فَخَرَجَتْ عَلَى النّاسِ وَوَدَّعوها وَوَدَّعَتْهُمْ، وَقالَتْ: يا بَنيَّ، يَعْتِبُ بَعْضُنا عَلَى بَعْضٍ اسْتِبْطاءً واسْتِزادَةً، فَلا يعتدَّنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى أَحَدٍ بِشَيْءٍ بَلَغَهُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ واللهِ ما كانَ بَيْني وبين عليٍّ في القَديمِ إلا ما يَكونُ بَيْنَ المَرْأَةِ وَأَحْمائِها، وَإِنَّهُ عِندي على مَعتبي مِنَ الأَخيارِ.

وقالَ عليٌّ: يا أَيُّها النّاسُ، صَدَقَتْ واللهِ وَبَرَّتْ، ما كانَ بَيْني وبينها إِلّا ذلك، وإِنَّها لزوجةِ نبيِّكم صلى الله عليه وسلم في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

وَخَرَجَتْ يَوْمَ السَّبْتِ لِغُرَّةِ رَجَبَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلاثينَ، وَشَيَّعَها عَليٌّ أَمْيالا، وَسَرَّحَ بَنيهِ مَعَها يَوْماً.

وقد تحقَّق بصنيعِ عليٍّ هذا ما أخبرَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فعَنْ أَبي رافِعٍ، أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ لِعَليِّ بْنِ أَبي طالِبٍ: "إِنَّهُ سَيَكونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عائِشَةَ أَمْرٌ"، قالَ: أَنا يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: "نَعَمْ"، قالَ: أَنا؟ قالَ: "نَعَمْ"، قالَ: فَأَنا أَشْقاهُمْ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: "لا، وَلَكِنْ إِذا كانَ ذَلِكَ فارْدُدْها إِلَى مَأْمَنِها"[1].

عدد قتْلى يوم الجَمل: اختلفتِ الأَقْوالُ في عددِ الذينَ لَقوا حتْفَهم يومَ الجَملِ، فأَكثرُ ما قيل في ذلك (ثَلاثَةَ عَشرَ أَلْفاً)، وأَقَلُّ ما قيل (ألفان وخمسمئة).

---

[1] أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب السُّنَّةِ.

إجمال القول في الفتنة

وبعدُ فلسْنا بحاجَةٍ إلى تأويلِ موقفِ عليٍّ وطَلْحَةَ والزُّبَيْرِ وعائشَةَ، رضي الله عنهم، فموقفُهم جميعاً واضحٌ في سياق الأحداث، وكلٌّ منهم مخلصٌ مع نفسه ومع أَصْحابِه، لا يُريدُ القِتالَ وإنَّما يُريدُ الحَقَّ. والحقُّ في القِصاصِ مِنْ قتَلَةِ عُثْمانَ رضي الله عنه.

واختِلافُهم هو في كيفيةِ الوصول إلى هدفهم بالاقتصاص مِنَ القتلة، فعليٌّ كانَ يرى أَنَّ الاستِعْجالَ في ذلك سيُثيرُ القَبائلَ، ويوقع الخِصام، وأَنَّ الوقتَ قدْ يسمَحُ بذلك فيما بعد، وكادَ عليٌّ ومُعارِضوه أنْ يَصْطَلِحوا على هذا، لولا أنَّ السَّبئيَّةَ أَدركوا أنَّ الصُّلحَ والاتِّفاق بين عليٍّ ومعارضيه سيجْعَلُ الدائرةَ تَدورُ عليهم، فما كان منهم إلّا أنْ أَعادوا إيقاد نار الفتنة بخطةٍ خبيثةٍ أوقعوا فيها بين الفريقين، والظلام مُخيِّم، والمقاتل لا يرى خصْمَه ولا يعرفُهُ.

ثم إنَّ تبِعَةَ المأساةِ التي حلَّتْ بالمسلميْنَ تقَعَ على عاتِقِ «السَّبئيَةِ»، الذين أَشْعَلوا نارَ الفِتْنَةَ مِنَ البِدايَةِ، فَقَتَلوا خليفةَ المُسلميْنَ ظُلْماً، وأَشْعَلوا حرْبَ «الجَمَلِ»، على أنَّه لا ينبغي لنا أَنْ ننسب الفتنة إلى السبئية كاملة، فهُم قدِ استفادوا من وجودِ طبقةٍ مِنَ النّاسِ لا تميِّزُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ، وتؤخذُ بمصلحتِها، فنظمتها على أَساسِ الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِّ عنِ المُنْكَرِ، فغُشَّ جمهرةٌ مِنَ النّاس بذلكَ وحصلَتِ الفتْنَةُ، وكانت النُّفوسُ مُلتهبَةً، والجيل الجديد **لا يوقِّرُ** الجيلَ القديم، ولا يعترفُ له بمكانته الأَصلية إلّا قليلاً فحدَثَتِ الفتْنَةُ قويَّةً عاتيةً.

أَمَّا الصَّحابَةُ رضي الله عنهم أَجمعيْنَ، فإنَّ «ابن خلدون» قد أبرزَ عذرهم، بقولِهِ: «وإذا نظَرْتَ بعَيْنِ الإنْصافِ عَذَرْتَ القَوْمَ أَجْمَعيْنَ، وعلِمْتَ أَنَّها كانَتْ فتْنَة ابْتَلى اللهُ بِها الأُمَّةَ»[1].

[1] تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٦٨).

بين عليّ ومُعاوية رضي الله عنهما

بعد استعراض مراحل الفتنة في آخر عهد عثمان، ثم وضع الخلافة في عهد عليٍّ، إلى وقعةِ الجَملِ، وبعد أنْ تَعرَّفْنا على مواقفِ الصحابة مِنَ الفتنة، يجدُرُ بنا عرض الحوادثِ التي تبِعَتْ ذلك وأَهمّها علاقة عليٍّ بمُعاويَةَ، فقد رأَيْنا أنَّه عزَلَه عن الشّامِ – بعد أنْ سبق أنْ وَليَها لعمرَ وعُثْمانَ – وقد رأَيْنا أنَّ مُعاويَةَ قدْ تمسَّك بحقِّه بالمطالبةِ بدَمِ عُثْمانَ، وشجَّعه أَصْحابُه وحضّوه على المطالبةِ بالقَصاصِ من قتلَةِ عثمانَ، وماجَت بذلك الشّامُ واضطربتْ.

هذا وسنُحاولُ في سياقِ عَرْضِنا للأَحْداثِ أنْ نُحدِّد منْشأَ الخلافِ بيْنَ الطَّرَفيْنِ وحجَّة كلٍّ منهما، وكيف أَمْكَنَ امتدادُ الفتنَةِ، وما العاملُ الفعّالُ في امتدادها.

وسَنُلاحظُ أنَّ النُّصوص التي تروي خِلافَ مُعاويَةَ مع عليٍّ رضي الله عنهما تَكادُ تتَّحد الاتِّجاه، وتَكادُ تَسْتَقي مِنْ نبْعٍ واحدٍ، وهو الإِخْباريُّ أَبو مِخْنَفٍ الشّيعيُّ، مِنْ أَهلِ أَوائلِ القرنِ الثّاني الهجري، وقد عاشَ أَبو مِخْنَفٍ في ظلِّ الواقِعةِ، على أنَّ هناك علَّةً في هذا المصدر، فأَبو مِخْنَفٍ ضعيفٌ متَّهَمٌ عندَ أهلِ الحديثِ، وهم لا يَقْبَلونَ مَرويَّاتِهِ لشدَّةِ ضَعْفِهِ[1]، ولكنَّنا مُضَّطرونَ هنا إلى قبول أَخْبارِه جَرْياً على سننِ المؤرِّخينَ إذ لا يمكن ضبط حوادث التاريخ دوماً بمروياتٍ صحيحةٍ، وبالشروط التي تتوافر للحديث

---

[1] تَرْجَمَهُ الذَّهبيُّ، فقال: أَبو مِخْنَفٍ لوْطُ بنُ يَحْيَى الكوْفيُّ، صاحِبُ تَصانيْفٍ وَتَواريْخٍ، رَوَى عَنْ: جابِرٍ الجُعْفيِّ، وَمُجالِدِ بنِ سَعيْدٍ، وَصَقْعَبِ بنِ زُهَيْرٍ، وَطائِفَةٍ مِنَ المَجْهوْليْنَ. وَروى عَنْهُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَغْراءَ، وَعَليُّ بنُ مُحَمَّدٍ المدائِنِيُّ. قالَ يَحْيَى بنُ مَعيْنٍ: لَيْسَ بِثِقَةٍ. وَقالَ أَبو حاتِمٍ: مَتْرُوْكُ الحَديْثِ. وَقالَ الدّارَقُطْنِيُّ: أَخْباريٌّ ضَعيْفٌ ، وتوُفِّيَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسيْنَ وَمئَةٍ. سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٠١-٣٠٢).

الصحيح؛ فالمحدثون من رجال الصحاح وغيرهم لم يهتموا بأَخبار التاريخ اهتمامهم بالحديث. فمتابعة الرِّواياتِ التّاريخيةِ تضطرُ المؤرخَ أَحْياناً إلى التَّعامُلِ مع ما يرويه بعضُ ضُعفاءِ الإِخْباريِّنَ من أَخْبارٍ ومن ثمَّ تَمْحيصها لاستخلاص ما يمكن قبوله منها وفق قَواعِدِ النَّقْدِ الدّاخليِّ[1] للرِّواية التّاريخيةِ، بمعنى أَنَّنا لنْ نقبلَ هذه الأَخْبار على علّاتها بل بل سنحاول جهد الاستطاعة استخدام النقد الداخلي للحادثة ومن خِلاله نميز بين ما يمكن قبوله مِنَ الأخبار، وما هو واجبُ الرَّدِّ، وذلك وفق قرائن أحوال الحوادث، وبذلك نقترب قدْرَ الإِمْكانِ منَ الحَقيقةِ التّاريخيةِ.

وعليه فإِنَّنا إذا عارضْنا رِوايةَ أَبي مِخْنَفٍ مع رِوايةِ غيْرِه مِنْ رواة المؤَرِّخينَ نجدُ التَّوافقَ بيْنَ تِلْكَ الرِّواياتِ إِلّا في القليلِ الذي لا يُمكِنُ تسويته. وجملة تلك الأخبار تُسْفِرُ عن موقفِ المُتنازِعَيْنِ إِلّا في بعض النواحي التي يتجلَّى فيها الخلل.

ولعلَّنا سنَستَغْربُ إِذا علِمْنا أَنَّ اعتماد المؤَرِّخيْنَ في تَسْطيرِ مَواقفِ مُعاويَةَ على أَقْوالِ مؤَرِّخٍ متحزِّبٍ عليه كأبي مِخْنَفٍ، لكن يجب ألا يدعونا ذلك إلى ردِّ تلك الأخبار بالكليةِ، فسيظهر من خلال أَقوال أبي مِخْنَفٍ مَوْقِفُ مُعاويَةَ وفيه إِبرازٌ لحجَّتِه وتبريرٌ لأَفعاله، وهذا ما يدفعنا إلى أَنْ نولي الثِّقَةَ بأخبارِ أَبي مِخْنَفٍ، أَمّا الأَخْبارُ التي تُظْهِرُ تَحامله على خصْمٍ له، فلنا أَنْ نرى فيها حكمنا المناسب.

---

[1] يقصد بالنقد الداخلي نقد متن الخبر، بينما يسمى نقد الإسناد بالنقد الخارجي.

وأمّا نقاط البحث التي تهمنا خاصة في الصراع بين عليٍّ ومُعاويَةٍ فهي بالدَّرجةِ الأوْلى الحججُ التي أَدْلى بها كلٌّ مِنَ الفريقين لتأْييدِ موْقِفِهِ والحججِ التي ساقها في أَثْناءِ المفاوضات التي جَرَتْ بينهما قبْلَ القِتالِ، وبيان ذلك فيما يلي:

بَعْدَ أَنْ فرغَ عليٌّ رضي الله عنه من أَمْرِ أَصْحابِ الجمَلِ أَعادَ تَنْظيمَ صُفوفِ جَيْشِه وسارَ به محاذياً لنهرِ الفُراتِ نحو الشَّمالِ الغَرْبيِّ منَ العراق، إلى أنْ نزلَ في مكانٍ قريبٍ من مدينةِ الرَّقَةِ يُدْعى (صفِّين)، وكانَ جَيْشُ مُعاويَةَ، قدْ سبَقُ إلى ذلك الموقع بأيَّامٍ قليلَةٍ، وذلك في أوَّل ذي الحجَّةِ سنة (٣٦هـ)، وقَدْ وَقَعَتْ بيْنَ الفِئتَيْنِ مُبارزاتٌ فَرْديَّةٌ، ومناوشات جماعيَّةٌ محْدودةٌ، قبْلَ أَنْ يَدخُلَ شَهْرُ المُحرَّم سنةَ (٣٧هـ) ويتوقَّفُ القِتالُ، معَ حْرِصِ الطَّرَفيْنِ على التَّفاهُمِ وظهورِ رغبَةٍ كامنَةٍ لديهما في المصالحة، وبخاصة أنَّ كلَّ طرفٍ كان يتخالَط مع الطَّرفِ الآخرَ، ويدخلُ مُعَسْكَرَه وسَط جوٍّ مِنْ حسنِ الجِوار.

استمرَّت الهدنَةُ شهراً واحداً تخلَّلها اتِّصالاتٌ، ومُفاوضاتٌ على أَمَلِ الوصولِ إلى اتِّفاقٍ يُنْهي النِّزاعَ، ويحقِنُ دِماءَ المُسلميْنَ، فبَدَأَتْ المُراسلاتُ بينهما لعله تتقارَبُ الآراءِ ويندَفِعُ القِتالُ، ويجتَمِعُ المسلمونَ على كلمةٍ سواءٍ.

روى الطبري[1] مِنْ طَريقِ أَبي مِخْنَفٍ: لَمّا تَوادَعَ عليٌّ ومُعاويةَ يومَ صفّينَ، اختلف فيما بينهما الرُّسلُ رَجاءَ الصُّلْحِ، فبعث عليٌّ عَديَّ بنَ حاتمٍ ويَزيدَ بنَ قيسٍ الأَرْحبيَّ وشبثَ بنَ رِبعيٍّ وزيادَ بنَ خصفة إِلَى مُعاويَةَ، فلما دخلوا حمد الله عدي بن حاتم، ثُمَّ قالَ: أَمّا بَعْدُ، فإنا أتيناك ندعوك إِلَى أمر يجمع الله عَزَّ وَجَلَّ بِهِ كلمتنا وأمتنا، ويحقن بِهِ الدماء، ويؤمن بِهِ السُّبل، ويُصْلِحُ بِهِ ذات البَيْنِ ... وتكلَّم يَزيدُ بنُ قيْسٍ، فَقالَ: إِنّا

[1] تاريخ الطبري: حوادث سنة (٣٧هـ)

لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا بِهِ إليك، ولنؤدي عنك ما سمعنا مِنْكَ، ونحن على ذلك لم ندع أَنْ ننصح لك، وأن نذكر ما ظننا أَنَّ لنا عَلَيْك بِهِ حجَّة، وإنك راجع بِهِ إِلَى الأُلْفَةِ والجماعةِ.

إنَّ صاحبَنا من قَدْ عرفْتَ وعرَف المسْلِمونَ فضلَه، وَلا أظنُّه يَخفى عَلَيْك، أنَّ أهلَ الدّينِ والفضل لنْ يعدِلوا بعليٍّ، ولن يميلوا بينك وبينه، فاتَّقِ اللهَ يا مُعاويَة، وَلا تُخالِفْ عَليّاً، فإنّا واللهِ ما رأينا رجلاً قطّ أعمل بالتقوى، وَلا أزهد في الدُّنْيا، وَلا أجمع لخصالِ الخيْرِ كلها مِنْهُ.

فَحَمِدَ اللهَ مُعاويَةُ وأثنى عليه، ثم قالَ: أما بَعْدُ، فإنكم دعوتم إِلَى الطاعة والجماعة، فأمّا الجماعة الَّتي دعوتم إِلَيْها فمَعَنا هي، وأما الطّاعةُ لصاحبِكُم فإنّا لا نَراها، إنَّ صاحبَكم قتلَ خليفَتَنا، وفرَّقَ جَماعتَنا، وآوى ثأْرَنا وقتَلَتَنا، وصاحبُكم يزعُمُ أنَّه لم يقتلْه، فنحنُ لا نردُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، أَرأيْتُم قتَلَةَ صاحبِنا؟ أَلَسْتُم تعْلَمونَ أَنَّهُمْ أَصْحابُ صاحبِكم؟ فليَدْفَعهُم إِلَيْنا فلنقتلْهُم بِهِ، ثُمَّ نحن نُجيبُكم إِلَى الطّاعةِ والجَماعَةِ.

لقد وضحَ لنا منْ خِلالِ هذا الحوار أنَّ حجَّةَ أَصحابِ سيدنا عليٍّ رضي الله عنه – التي أَدْلوا بها أَمامَ مُعاويَةَ – أنَّه إِمامٌ تَنْبَغي له الطّاعَةُ، وأَنَّ مُعاويَةَ لا يعدلُ عليّاً في الفضل والسابقة، إِذاً فواجِبُ مُعاويَةَ أَنْ يبايعَ عليّاً ويتبعه.

وأما حجَّة مُعاويَةَ فهي أنَّ عليّاً إِنْ لم يكنْ قد قتلَ عُثْمانَ فهو آوى قَتلَتَه، ولنْ يَرْضى مُعاويَةُ بأَقلَّ مِنْ أَنْ يسلِّمَه عليٌّ قتلَة عثْمانَ ليقتصَّ منهم.

وهناك روايات أُخرى متعدِّدة تتضمن حوارات جرت بين الطرفين لا تخرج في مضمونها عن هذا المعنى، فالظاهر مِنَ الروايات المتعددة في هذا الإطار محاولة مبعوثي مُعاويَة إِثْباتَ أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه قُتِلَ مَظْلوماً وأنَّ القصاص لولي دمه – وهو مُعاويةُ –.

وأمّا عليٌّ رضي الله عنه فيريدُ إثباتَ أحقيَّته بالخِلافَةِ بلا منازع، على أَنْ يُترَكَ أَمرُ قتَلَةِ عُثْمانَ إلى الوقت الذي تأْتَلِفُ فيه الكَلِمةُ وتَجْتَمِعُ الرَّعيَةُ على إمامِ المسلميْنَ الذي تمَّتْ بيعتُه مِنْ غيْرِ تَطلُّعٍ منه إلَيْها[1].

وسنَجِدُ حجَّةَ أَصْحابِ مُعاويَةَ تظهَرُ بشكلٍ أَوْضح، عندما أَدْلى بها عمرو بنُ العاصِ في قصَّةِ التَّحكيمِ الآتية.

ويُظهِر الإمامُ الغزاليّ حجَّةَ الطَّرَفينِ – عليٍّ ومُعاويَةَ – في هذه المسألة فيقول[2]: "ظنَّ عليٌّ رضي الله عنه أنَّ تسليمَ قَتَلَةِ عثمانَ مع كَثْرَةِ عشائرِهم واختلاطِهم بالعسكر يؤدِّي إلى اضطرابِ أمْرِ الإمامَةِ في بدايتِها فرأى التَّأْخير أصوبَ.

وظنَّ مُعاويَةُ أنَّ تأْخيرَ أمْرِهم مع عِظَمِ جِنايتِهم يوجبُ الإغراءَ بالأئمةِ ويعرِّض الدِّماءَ للسَّفْك" ، ويُثْبِتُ الغزاليُّ أنَّ مُعاويَةَ لم يكن يطمَحُ للخِلافَةِ بموقِفِه هذا، فيقولُ: "وما جرى بينَ مُعاويَةَ وعليٍّ رضي الله عنهما كان مبنيّاً على الاجتهاد لا مُنازعةً مِنْ مُعاويَةَ في الإمامةِ".

ويقول الإمام الخطابي[3]: "كانوا أئمةً عُلماءَ قد اجتَهدوا في طلبِ الحقِّ وتحرَّوا وجهتَه وتوخَّوا قصدَه، فالمُصيبُ منهم مأْجورٌ، والمُخطئ معذورٌ، وقد تعلَّق كلٌّ منهم بحجَّة، وفزِعَ إلى عذرٍ، والمقايسةُ عليهم والمُباحثةُ عنهم اقتِحامٌ فيما لا يَعنينا".

---

[1] في إحدى الرِّواياتِ يذكُر عليٌّ ذلك بصراحةٍ، إذْ قالَ: أَتاني النَّاسُ وأَنا معتزلٌ أُمورَهم، فَقالوا لي: بايع، فأَبَيْتُ عَلَيْهِم، فَقالوا لي: بايع، فإنَّ الأُمَّةَ لا تَرضى إلَّا بكَ!، وإنَّا نَخافُ إنْ لم تفعَلْ أَنْ يفترِقَ النَّاسُ، فَبايعتُهم، فلمْ يرعني إلا شِقاقُ رَجلينِ قَدْ بايَعاني، وخِلافُ مُعاويَةَ.

[2] إحياء علوم الدين (٤٢٢/١) ط دار المنهاج.

[3] في كتاب العُزْلَةُ (٢٨).

وقعة صفين والتحكيم (صفر سنة ٣٧ هـ)

بعد أنْ عرفنا حجَّةَ الطَّرفيْنِ في النِّزاعِ الواقع بينهما ننتقل إلى وقعة صفين مكتفين بذكر الحوادث الأساسية منها التي تدلُّ على أسبابِ الموقعةِ ونتائجِها.

الذي حدَثَ أنَّ عليّاً ومُعاويَةَ بعد تعذُّر الاتفاق بينهما كان لا بدَّ من حصول المواجهة والقتال بين الطرفين.

كان جيشُ عليٍّ خمسين ألفاً أو مئة ألفٍ، وجيشُ مُعاويَةَ سبعين ألْفاً، وانضوى في جيش عليٍّ عددٌ كبيرٌ مِنَ الصَّحابةِ، وكان مع مُعاويَةَ في جيْشِه أَيْضاً عددٌ مِنَ القُرّاءِ والعُبّادِ والصَّحابَةِ[1] واستمرت المعركة بالليل والنهار، وكانت الغلبة فيها أولاً لمعاويَة، ثم آلت لعليّ بفضل الأشتر النخعي الذي أحسن القيادة، وأسفرت الموقعة عن مقتل أعداد كبيرة مِنَ الطرفين وقد ذكر بعض المؤرخين أرقاماً فيها مبالغات كبيرة، ولما أصبح النصر قاب قوسين أو أدنى من عليّ نصح عمرو بن العاص مُعاويَة برفع المصاحف، طالبا تحكيمها في الخلاف، وفطن عليّ إلى أنها خدعة لكن العباد الذين كانوا في جيشه طلبوا منه قبول التحكيم فأوضح لهم الموقف وأن في المسألة خدعة، فأصروا على موقفهم فقبل رضي الله عنه مكرهاً.

أرسل عليّ إلى مُعاويَة يسأله: يا مُعاويَة لأي شيء رفعت المصاحف؟

---

[1] ذكر ابن حبيب في المحبر (ص: ٢٨٩-٢٩٦) أسماء عدد من الصحابة الذي شهدوا صفين مع عليّ أو مع مُعاويَة رضي الله عنهما.

قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عز وجل في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضونه، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أَنْ يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقوا عليه.

ولعل مُعاويَة كان يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما﴾ [النساء: ٣٥] وقوله عز وجل: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

وهنا يكمِنَ السؤال التالي: كيف يكون القرآن حكماً بينهما وعلى أي أساس؟

إنَّ المصادر التي بين أيدينا لا تشير إلى شيء من ذلك وكأن الطرفين رأيا ألا يجعلا تفصيلاً في الأمر بل يترك الأمر برمته إلى المحكمين في الخلاف.

نصُّ التحكيم:

هذا وقد جاء نص التَّقاضي على النَّحو التالي وفق ما جاء في تاريخ الإمامِ الطَّبريِّ:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومُعاويَة بن أبي سفيان قاضي عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم مِنَ المؤمنين والمسْلِمِيْنَ، وقاضي مُعاويَة على أهل الشام ومن كان معهم مِنَ المؤمنين والمسْلِمِيْنَ، أنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عَمِلا به، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة ...)

واجتمع الحكمان وظهرت براعة عمرو بن العاص إذ كان يعرف أَنَّ أبا موسى لم يدخل في الفتنة ولم يحبذها وهو مشفق منها، ومما ساعد عمرو بن العاص في ذلك أنه

لم توضع للحكمين خطة للتحكيم، وأجرؤهما على إثارة المشاكل هو الذي يستطيع أَنْ يكسب الحكم لجانبه، وهذا ما أورده عمرٌو، قال: يا أبا موسى ألست تعلم أَنَّ عُثْمان رضي الله عنه قُتل مظلوماً؟ قال: أَشْهَدُ. قال: ألست تعلم أَنَّ مُعاويَة وآل مُعاويَة أولياؤه؟ قال: بلى. قال: فان الله عز وجل قال ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾ [الإسراء: ٣٣] فما يمنعك من مُعاويَة ولي عُثْمان يا أبا موسى؟!.

وهذه حجَّة قوية على أبي موسى، تقدم بها عمرو وجعلها وصلة إلى المرحلة التالية في الحوار، تلك أنه إذا كان مُعاويَة وليا لدم عثمان، فلم لا يكون خليفة للمسلمين، إلا أَنَّ أبا موسى اعترض على ذلك بشدة، ولم يكن اعتراضه ليفاجئ عَمْراً فهو لم يكن يريد إقناع أبي موسى بالأمر، بل اتخذ ذلك حجة ليسقط دعوى عليّ في أحقيته بالخلافة، أما أَنْ يحاول أبو موسى إيجاد حل لقضية الخلافة فهذا لا يضر عمراً لأن الحل لن يكون إلا ما يطالب به أصحاب مُعاويَة من بداية الأحداث وهو ترك الأمر شورى بين المسْلِميْنَ ينتخبون خليفتهم، والواقع أَنَّ أبا موسى انتهى إلى ما يريده عمرو من ترك أمر الخلافة شورى، أما ما يورده أبو جناب الكلبي من أَنَّ عمراً خدع أبا موسى واستمر يقول بحق مُعاويَة في الخلافة فإنما هي رواية لا تؤيدها مصلحة مُعاويَة ولا دهاء عمرو، ويجب رفضها.

نتيجة التحكيم

- إن عُثْمان قتل مظلوماً.
- أَنْ يبقى أمر الخلافة شورى بين المسلين وليس حقا خالصاً لعلي.

– ولم يظهر في نتائج التحكيم ما هو مصير قتَلَةِ عثمانَ، والظاهرُ أَنَّ أَبا موسى نجح في إقناع عمْرٍو بأنْ لا يتشدَّد في هذا الأمر لأنَّه يُثيرُ الفتنة ويؤججها، وهما يسعيان لإخمادها لا تأجيج أوارها، ولاسيما أَنَّ الله تعالى يقول مخاطباً ولي مَنْ قُتِلَ مَظْلوماً: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ في الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصوراً﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقد قُتِلَ ممن اشترك في قتل عُثْمانَ عددٌ كبيرٌ في المعارك.

موقف عليّ من نتيجة التحكيم

لقد كان عليّ مضطراً في الظاهر لقبول ما أسفر عنه التحكيم، فقد تعهد في كتاب التحكيم أَنْ يقبل بحكم المحكمين، أما في حقيقة الأمر فهو رافض لما توصل إليه الحكمان، وكانَ يَرى أَنَّهُما لم يَعْمَلا فيها بِما يُمْليهِ كِتابُ اللهِ وسنَّةُ رَسولِهِ صلى الله عليه وسلم، ذَلِكَ أَنَّه يَرى أَنَّ المسْلِمينَ قد بايعوه على الخلافة، ولا يجوز له أَنْ يخلع ثوباً ألبسه الله عز وجل إياه.

وأما اتفاقهما على أَنَّ عُثْمان قد قتل مظلوماً فليس لهذا الأمر علاقة بتنحية عليّ عن الخلافة، لأنه لم يَقتل ولم يُشارك ولم يَرْضَ، والأولى أَنْ يُردَّ الأمر إليه ليفعل ما يراه مناسباً لا أَنْ يُعزل.

ثم لعلَّ عَليّاً استند إلى شيء آخر وهو أَنَّ الحكمين اتفقا على أَنْ يحدثا الشورى، لينتخب المسلمون خليفتهم، ولكن المسْلِميْنَ لم يقبلوا بذلك، فالذين كانوا مع الحكمين من أصحاب عليّ وأصحاب مُعاويَة لم ينتهوا في ذلك إلى شيءٍ، ولم يثبت رأي الحكمين في كتاب، ولم تؤخذ عليهم الشهادة فكأنه لم يكن، وبقي الأمر معلقا وكأن الطرفين في حل مما رآه الحكمان.

تفسير أحداث صفين وما تلاها

على المؤرِّخ أَنْ يحاول تفسير الأحداث والبحث عن عللها، وفي حالتنا هذه لا بدَّ لنا من فهم ما حدث ولِمَ حَدَث.

كيف عاد عليّ من موقعة صفين وقد أضاع الكثير مما كسبه؟

وكيف عاد مُعاويَة وهو كاسب بعد أَنْ خسر؟

وتأسيساً لفهم ذلك نقول: إن ما يقوي الحاكم وقضيته أنْ يكون إلى جانبه رجال مطيعون له مخلصون وفاهمون لقضيته، وعليه فإننا نرى أنه يجب أَنْ نعلل ما حدث برجال عليّ ووضعهم ورجال مُعاويَة ووضعهم.

إن الذي تسبب بانقلاب عليّ خاسراً في مواجهته مع مُعاويَة إنما هم أصحابه فقد كانوا مؤلفين من فريقين:

الأول: أهل الحجاز الذين قدم بهم إلى العراق وعددهم غير قليل.

الثاني: أهل العراق وهم كانوا في الحجاز ممن تألبوا على عُثْمان وانضم إليهم من كان في العراق لم يغادرها.

وأهل العراق مكوَّنون من فئتين:

الفئة الأولى: فئة شبه متحضرة قد مارست بعض أحوال الحكم، وهم أهل الحيرة ممن كان تحت حكم المناذرة، وهؤلاء كانوا مطيعين لأمرائهم لمعرفته بطبيعة الملك التي كانت سائدة قبل الإسلام تحت حكم الأكاسرة. وهؤلاء كانت سيرتهم مع عليّ شبيهة بسيرتهم مع حكامهم السابقين، فخضعوا له كل الخضوع وأطاعوه طاعة عمياء وكانوا يقولون له: (نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت) وسنرى أَنَّ هؤلاء قد غالوا كل

المغالاة في التشيع لعليّ رضي الله عنه، ولو كان جيش عليّ كله من هذا النموذج لكان باستطاعته رضي الله عنه أَنْ يهزم مُعاويَة شر هزيمة.

الفئة الثانية: فئة ليس لها مما تقدم نصيب، وهم الأعراب، وهؤلاء دخلوا العراق أساساً مع الفتح الإسلامي، واستوطنوا في الكوفة والبَصْرَة، وهم قبائل مختلطة، عاشوا في الجاهلية عيشة البداوة والخصام والنزاع واعتادوا الغزو، ثم جاء الإسلام فدخلوا فيه، وكانوا على اتجاهين، منهم من تمسك بالإسلام كما ينبغي، وآخرون لم يؤمنوا بالإسلام كما يتطلب منهم، فلم يكن الأعراب يستطيعون أَنْ يقبلوا الحكم عليهم حكماً مدنيا، وما كانوا يعرفون الحروب المنظمة، التي تجمع الأعداد الغفيرة، بل كانت حروبهم على نمط الغارة الخاطفة يترأسهم فيها رؤساء أشبه ما يكونوا برؤساء العصابات لا قادة جيوش منظمة، يتميزون بالتهاب العاطفة وضعف المنطق والتحليل العقلي، يؤخذون بظواهر الأمور ولا يدركون مراميها وأبعادها، ولذلك تجدهم يتعشقون رأيا تارة ثم لا يلبثون أَنْ ينبذوه ويخالفوه مخالفة شديدة، وقد تعبد قسم منهم عبادة شديدة، وتركوا الدنيا ونبذوها وراءهم ظهرياً لكن عقلهم وفهمهم لأسرار التشريع لم يكن ناضجا، وبالمقابل فإن قسماً منهم تهالك على المحرمات واستباحها كل الاستباحة.

والآن لنرى الدور الذي لعبته هذه الفئة وما جَرَّ من نتائج كارثية على سيدنا رضي الله عنه.

في بداية الأحداث كانوا مع قتلة عُثْمانَ رضي الله عنه لاعتقاد المتعبدين منهم أنه أخطأ، واعتقاد الآخرين أَنَّهُم لم ينصفهم وهضم حقوقهم وقدم أهل بيته عليهم.

ثم بايعوا عَليّاً، وقد اضطر عليّ لقبول بيعتهم وذلك أنه رأى مِنَ المتعبدين منهم خشوعاً زائداً لم ير مثله – وهو يقدر مثل هذا الأمر – ولعل مِنَ الأسباب التي منعته من معاقبة قتلة عُثْمان أَنَّ بينهم هؤلاء المتعبدين رجاء أَنْ يتوب الله عليهم فيتوبوا.

ولما رُفعت المصاحف في معركة صفين رأينا أَنَّ عَليّاً أدرك أنها خَدعة ولكن هؤلاء المتعبدين لم يستطيعوا إلا الخشوع للقرآن ضغطوا عليه ليقبل التحكيم، مع أنه رضي الله عنه استعمل معهم المنطق ليفهمهم أبعاد الخدعة وراء رفع المصاحف ولكن ذلك لم يجد نفعا معهم ولم تتقبل عقولهم الحكمة التي كان عليّ يضع أيديهم عليها. مما اضطره أَنْ يقبل بالتحكيم على مضض.

ثم بعد أَنْ مشى مشروع التحكيم إذا بهم ينقلبون على عليّ وباقي المسْلِميْنَ رافعين شعار (لا حكم إلا لله).

فماذا كانت النتيجة؟!

إمارةُ الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما

قيلَ لعليٍّ بعدَ أَنْ أُصيبَ: أَلا تَستَخْلِفْ عَلَيْنا؟ قالَ: "ما استَخْلَفَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فأَسْتَخْلِف، ولكنْ إِنْ يُرِدِ اللهُ بالنّاسِ خيْراً فسيَجمَعهم بعْدي على خيْرِهم، كما جمَعَهُم بعدَ نبيِّهم على خَيْرِهِمْ"[1].

ولمَّا لم يعهد عليٌّ بالخلافة إلى أحدٍ فقد التفَّ أهلُ العراقِ حول ابنه الحسن بن عليٍّ واختاروه أَميراً عليهم، عنِ ابنِ شِهابِ الزُّهْريِّ قالَ: (بايَعَ أَهْلُ العِراقِ الحَسَنَ بنَ عليٍّ بالخِلافَةِ، فطفِقَ يشتَرِطُ عليهم الحسنُ: إِنَّكُم سامِعونَ مُطيعونَ تُسالِمونَ مَنْ سالَمْتُ وتُحارِبونَ مَنْ حارَبْتُ).

وفي نصٍّ آخَرَ: (إِنَّ أَوَّلَ من بايَعَهُ قيْسُ بنُ سعْدٍ، قالَ لهُ: ابسُطْ يَدَكَ أُبايِعْكَ على كِتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وسنَّةِ نبيِّه، وقِتال المحلّين، فقالَ لهُ الحَسنُ: "على كِتابِ اللهِ، وسنَّةِ نبيِّهِ، فإِنَّ ذلكَ يأْتي مِنْ وَراءِ كلِّ شرْطٍ"، فبايَعَهُ).

لقد واجه الحسن بن عليّ الوضع نفسه الذي واجهه والده عليّ من قبلُ فماذا يفعل؟

إن نظرة الحسن غير نظرة علي، إذ كان أصغر منه في السن وألزم لحوادث العصر، وكان ينظر إليها بمنظار رجال ذلك الجيل، وهكذا وجد أنه لا قِبَلَ له بتولي إمامة المسْلِميْنَ، ذلك أَنَّ شروط العصر كانت لا تلائم نفسه، ورأى أنه ينبغي له ألا يثق بأصحابه ؛ وقد عرفهم وعرف ما قاساه والده عليّ منهم.

---

[1] أخرجه الحاكم في المستدرك: ٧٩/٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢٢٣/٧، عن أبي وائل. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٢.

ويبدو أنه كان في نفس الحسن كثير مِنَ الأسى على عثمان، ومِنَ الغيظ على من قتَلَه أو تسبَّب بقتله، وكان قد عرفهم على حقيقتهم يوم حِصارهِم لسيدنا عثمانَ يوم الدَّار، فهو لم يكن يحبُّ صحبتهم، فلذا آثر أَنْ يترك الإمامة لغيره خشيةً أَنْ يُبْتلى بهم، وهو يكرههم.

ولذلك إذا دقَّقنا النظر بنصِّ البيعة التي أخذها على المبايعين يظهر لنا عدم ميله إلى القتال والحرب، بل كان يميل إلى المسالمة وجمع الكلمة ، وأنه كان يبغي الصلح.

ولعلَّه وجد أَنَّ مُعاويَة خير لهذا العصر منه، ومعه من الأصحاب من يثق بهم ويستطيع أَنْ يشق بهم طريقه، فكان في نفسه أَنْ يسلم الأمر لمعاويَة، ولم يكن في ذهنه أَنْ يقاتل.

وهذا يعني أَنْ يصبح مُعاويَةُ خليفةً.

وقد سارت الأمورُ بهذا الاتجاه، وكان مع الحسن جيش مكون من أربعين ألفاً مصمِّمين على القتال، متشدِّدين فيه أكثر من ذي قبل، برئاسة قيس بن سعد.

ويدَّعي بعضُ المؤرِّخين بأنه أُلْقيَ على الحسنِ مِعوَلٌ، وهو في خيمته، فدفعه ذلك إلى كره القتال، والصلح مع مُعاويَة.

أما الحقيقة فإن هذا المِعوَلَ الذي أُلقيَ في ظروف مجهولة حدث بعد أَنْ شرع في مفاوضة مُعاويَة، وإلا فما معنى إلقاء المعول من قبل جيشه تعبيراً عن سخطهم عليه مع أنه سائر إلى حرب عدوهم؟

إنَّ الحسنَ أراد أَنْ يوقفَ القِتالَ، وأرسل إلى مُعاويَة – وكان قد اتَّجه إلى العراق – في طلبِ الصُّلحِ ، كما أَنَّ مُعاويَة كان في نفسِه الأمرُ ذاته، فأَرسل إلى الحسنِ بصكٍّ مختوم، ليس به كتابة، وطلب إلى الحسن أن يملي فيه ما شاء من الشُّروطِ، فكتب

الحسن مشترطاً : الأمانَ لجيشِهِ، ولشيعة عليٍّ رضي الله عنه ... فرضي معاوية بذلكَ، وتمَّ الاتفاق بين الطرفين، وسمي العام عام الجماعة.

وقد تمَّ الصلحُ بين سيدنا الحسن ومعاويَةَ رضي الله عنهما في شهر ربيعٍ الآخر، عام إحدى وأربعين، وانحسمت الفتنة، ودخل مُعاويَةُ الكوفةَ في أول جمادى الأولى من هذا العام.

العوامل التي أدت إلى انتقال الحكم

من الراشدين إلى الأمويين

حدَثَ في عصْرِ عُثْمانَ تغيُّر كبيرٌ كان حريّاً بأنْ يؤدِّي إلى تغيُّرٍ في صفَةِ الحُكْمِ وتناول هذا التَّغيُّر أُموراً كثيرةً، منها:

أولاً – اتساع رقعة العالم الإسلامي بنتيجة الفتوح بحيث لم تعد المدينة – من حيث موقعها الجغرافي – صالحةً لأن تكون عاصمة لتلك الرقعة الكبيرة، إذ إنها أصبحت نائية عن أطراف تلك الرقعة، ولا تستطيع أَنْ تتحكم فيها. وأصبحت دمشق أصلح لأن تتخذ مقراً للعاصمة.

ثانياً – تغير مركز الثقل أيضاً في اقتصاد الدولة، فالحجاز أصبح يعيش على ما تأتيه به الأقطار المفتوحة من غنائم، وليس له أي أثر اقتصادي فيها.

ثالثاً – تغيرت طبيعة الحياة المادية فانتقل النّاس من حياة الزهد والتقشف التي كانوا يعيشون عليها في عهد الرسالة والخليفتين الراشدين الأولين، إلى حياة البذخ والترف التي كانت لا تتفق مع صفة الحكم واتجاهه.

رابعاً – حدث تغير في المجتمع له شأنه، فقد ظهرت طبقة الأعراب والمرتدين التي كانت منزوية عن المشاركة في شؤون ذلك المجتمع بأثر من الخليفتين الأولين. وكان لظهورها ومشاركتها الآن أثر كبير في قلب أحوال ذلك المجتمع، ولا سيما حين توقفت الفتوح عند حد زمني كان يجب أَنْ تقف عنده قبل أَنْ تستأنف.

خامساً – وحدث في المجتمع تغيرٌ أكبر، ذلك أَنَّ جيلاً جديداً من النّاس ظهر، وأخذ يحتل مكانه في المجتمع ؛ وهو غير جيل الصحابة.

جيلٌ فائرٌ ثائرٌ لا يرْضى بالواقِعِ الذي كان يتَّسمُ به الجيلُ الَّذي سبَقهُ.

سادساً – من كل ذلك تكونت عقلية جديدة ومفهوم جديد للحياة، وهو مفهوم قد ابتعد عن العقلية التي كانت سائدة في عصر الراشدين الأولين، فأصبح لا يفهم تلك العقلية ولا يستطيع تشربها ولا يسعه أَنْ يذعن لحكمها.

وينبغي لنا أَنْ نقول هنا: إن حكم الراشدين حكم سبّاق لزمنه بشكل عجيب، فقد كان فريداً في ذلك العصر بمفهومه:

= فهو حكم الشورى، وكان الحكم في العالم آنذاك فردياً في كل مكان.

= وهو حكم المساواة والعدل، وكان الحكم في ذلك العصر حكم الاستبداد والسيطرة لفئة على فئة.

= وشكل الاقتصاد في حكم الراشدين عجيب في ذلك العصر أيضاً، فهو اقتصاد مبنيٌّ على توزيع مالِ الأُمَّةِ على أَفْرادِها جميعاً، سواء منهم المقاتل في جبهات القتال، أو المقيم .

ولذلك فإنَّ حكم الراشدين في زهده وتواضعه ما كان ليستطيع أَنْ يقف أمام المتآمرين على الخليفة، فليس بين يدَي الخليفةِ جيشٌ أو شرطةٌ تُدافِعُ عنه.

من كلِّ ذلك ما كان بوسع حكمِ الرَّاشِدينَ أَنْ يستمرَّ طَويلاً، فالمجتمع الجديد بجيله الجديد وبعقليته الجديدة لم يكن مؤهلاً للاستفادة من ذلك الحكم والانطباع به؛ فكان لا بد من أَنْ يحل محله حكم جديد بعقلية تشابه عقلية الجيل الجديد واتجاهه ومفهومه للحياة.

وخوّل هذا الاتجاه الجديد أَنْ يستلم هذا الحكم رجل من رجال أسرة كانت في الجاهلية مقاربة في عقليتها ومفهومها للصفة التي كان يتطلَّبها ذلك المجتمع الجديد.

لقد كان مُعاويَةُ حقّاً يمثل هذا الجيل في مفهومه وعقليته ورغباته في الحياة. وكانت بلاد الشام أهلاً لأن تكون مركزاً وعاصمة لهذا المجتمع الجديد.

وهكذا نشأت الدولة الأموية معبرةً عن العصر الجديد وحاجاته، ثم صادفت من المصاعب ما قدمته لها الأحداث التي أسلمتها الحكم. فهي مدينة لتلك الأحداث ببؤسها ونعيمها معاً.

الخِلافَةُ الأُموية

ينسب الأمويون إلى أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وعبد مناف هو الأب الرَّابع للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

قامت الدولة الأموية بعد انتهاء الخلافة الراشدة عام (٤١هـ)، واستمرت حتى معركة الزَّاب التي جرت بين العبَّاسيين والأمويين حيث هُزِمَ مروانُ بنُ محمَّدٍ آخر الخلفاء الأمويين في (١١/ جمادى الأولى/١٣٢هـ).

وقد توالت عليها أُسرتان، وكان خلفاؤهما اثني عشر خليفة.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الأسرة السُّفيانيَّة (٤١ – ٦٤هـ)

وتوالى عليها خليفتان هما

١- مُعاويَة بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ)

٢- يزيد بن مُعاويَة (٦٠-٦٤هـ)

الأسرة المروانية[١] (٧٣ – ١٣٢هـ)

وصحَّت خلافة عشرة منهم

١- عبد الملك بن مروان (٧٣ – ٨٦هـ)

٢- الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦هـ)

٣- سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩هـ)

٤- عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩ – ١٠١هـ)

٥- يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ)

٦- هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ)

٧- الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ)

٨- يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦-١٢٦هـ)

٩- إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦-١٢٧هـ)

١٠- مروان بن محمد بن مروان (١٢٧-١٣٢هـ)

---

[١] نسبة إلى مروان بن الحكم رأس الأسرة، ولم تصح خلافته كما سيأتي قريباً.

مدخلٌ لابدَّ منه:

يجب أَنْ لا ننسى أَنَّ عبد الله بن الزُّبَيْرِ، رضي الله عنهما، قد بقيَ تسعةَ أَعوامٍ خليفةً في الحجازِ، وامتدَّت رقعةُ نفوذِه في أَقصى اتِّساعِها لتَشملَ اليمنَ، والعراقَ، وخراسانَ، ويُعَدُّ هو الخليفةُ الشَّرعيُّ بينَ سنتي (٦٤-٧٣ هـ) أي منْ وَفاةِ يزيدَ بنِ مُعاويَةَ وحتَّى مقتلِ ابنِ الزُّبَيْرِ في حربه مع الحجَّاجِ بنِ يوسفَ الثَّقفيِّ – على ما سيأتي بيانه – وفي هذه الأَثناءِ لا يُعدُّ مُلكُ مُعاويَةَ الثَّاني، ومَروانَ بنِ الحكَمِ، وشطَر من حكْمِ عبدِ الملكِ بنِ مَروانَ خلافةً، وإنَّما يعدُّه الفُقهاءُ استِئثاراً واغتِصاباً في جزءٍ من أَرْضِ الإِسلامِ[١].

قالَ الإِمامُ الذَّهبيُّ: "إِنَّ مَروانَ لا يعدُّ في أُمراءِ المؤمنينَ، بلْ هوَ باغٍ خارجٌ على ابن الزُّبيرِ، ولا عهده إلى جانب ابنه صحيحٌ، وإنَّما صحَّتْ خلافةُ عبدِ الملكِ من حين قَتِلَ ابنُ الزُّبيرِ[٢].

---

[١] نصَّ على ذلك ابن حزم كما في موجز تاريخ الإسلام.

[٢] تاريخ الخلفاء للسيوطي: (٣٤٩).

ولاية مُعاويَة بنِ أَبي سُفيانَ

رضي الله عنهما

تُعدُّ خلافة مُعاويَة بدءاً من عام (٤١هـ) بعد الصلح[١] الذي أبرمه مع سيدنا الحسن بن علي، رضي الله عنهما، حقناً لدماء المسْلِميْنَ، وتوحيداً لكلمتهم، وتستمر حتى وفاته في رجب عام (٦٠هـ) وهي بذلك تزيد على تسعة عشر عاماً بحدود ثلاثة أشهر. أما ما قبل الخلافة فكان يعرف بـ(الأمير).

وقد كانت هذه الخلافة خيراً للمسلمين، إذ انتهت مدة الفوضى والقتال، وطمع الأعداء باستعادة المراكز التي تخلوا عنها، إذ وجه المسلمون قوتهم إلى الخارج حيث عاد الجهاد وحدثت الفتوحات، وقطع الروم بخاصة أملهم في الرجوع إلى الأماكن التي فقدوها.

وسار مُعاويَة بالنّاس سيرة حسنة فقرب من كان بعيداً، واستمع ممن كان نائياً، وحرص على جمع الكلمة؛ فـ:

= أَعطى الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما ما أراد.

= وأمَّن عبدَ الله بن عباس ووصلَه.

= وكذلك فعل بالنسبة إلى قيسِ بنِ سعدٍ رضي الله عنهما، إذ كان على رأس جيش قوامه أربعون ألفاً أرسله سيدنا عليّ ابن أبي طالب، رضي الله عنهما، لقتال أهل

---

[١] يحسن أن نصف سيدنا الحسن بالسيادة، ونصف صنيعه الذي أفضى إلى اجتماع كلمة الأمة على خلافة سيدنا مُعاويَة بـ (الصلح) وليس تنازلاً، وذلك انسجاماً مع وصف النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «إِنَّ ابْنِي هَذا **سَيِّدٌ** وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ **يُصْلِحَ** بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسلِمِينَ» صحيح البخاري (٢٧٠٤).

أذربيجان، فلما قتل علي، وصالح الحسنُ مُعاويَةَ، أمَّر قادة الجيش عليهم قيسَ بنَ سعدٍ وتعاهدوا معه على قتال مُعاويَة حتى يشترط لهم، فأرسل مُعاويَة إلى قيس بن سعد يذكره الله، ويقول: على طاعَةِ من تُقاتِلُ، وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك؟

فأبى قيسٌ أَنْ يلين له، حتى أرسل له مُعاويَة بسجِلٍّ قد خُتِمَ عليه في أسفله، فقال: اكتب في هذا السِّجِلِّ ما شئْتَ، فهو لك.

فقال عمروٌ لمُعاويَةَ: لا تعطِه هذا، وقاتِلْه، فقال مُعاويَة: على رِسلِك! فإنا لا نخلص إلى قتال هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك! وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدّاً.

فلما بعث إليه مُعاويَة بذلك السجل اشترط فيه قيس له ولمن معه الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل قيسٌ مُعاويَةَ في سجله ذلك مالاً، فأعطاه مُعاويَة ما سأل، فدخل قيس ومن معه في طاعته[1].

= وقرَّب إليه زياد بن أبيه، و كان من أنصارِ عليّ ووالي خراسان له، فلما قتل علي، وتمَّ الصلح اعتصم زياد بخراسان فما زال به مُعاويَة حتى أرضاه واستقدمه، واستلحقَه بأبيه أبي سفيان، فصار يقال له (زياد بن أبي سفيان)، ثم ولَّاه العراق.

وهكذا لم يبق في أيام مُعاويَة معارض له، بل كل دخل في طاعته، وانخرط في صفوف المقاتلين، فعادت الفتوحات إلى أيامها الأولى، وكان الصحابة رضوان الله عنهم، في طليعة المجاهدين أمثال عبادة بن الصامت، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزُّبَيْرِ، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو، وشداد بن أوس وغيرهم، كما تسلم بعض الصحابة الأعمال لمُعاويَة.

---

[1] تاريخ الطبري: (١٦٤/٥).

وإذا كان قد بقي بعض أصحاب الآراء الخاصة إلا أَنَّ عددهم قليل، وهم ليسوا على ذلك المستوى، إضافة إلى أنه لا يكاد يخلو منهم مجتمع، فقد بقي عدد من الخوارج الذين يُخفون آراءهم حول الأحوال العادية حتى إذا سنحت لهم فرصةٌ أظهروا آراءهم ، وأعلَنوا الخروج عن الدولة ولم يكن أثرُهم كبيراً أيام مُعاويَة.

كما بقي عددٌ من المشاغبين وأهلِ الفوضى والأهواءِ، ومركزهم الرئيسي كان في الكوفة ثم في البَصْرَة وهؤلاء يظهر شغبهم وقت اللِّين، ويختفون وقت الشِّدة، لذا فقد اضطر ولاة هاتين المنطقتين إلى اللُّجوء إلى الشِّدة واشتهروا بذلك حتى غدوا نموذجاً في القسوة، وهذا السلوك هو الذي جعل الكثيرين يحملون عليهم، وكان أهل العراق قد تقاعسوا عن سيدنا عليّ حتى قتل، وتقاعسوا عن الحسن حتى صالح، ثم سلَّموا مسلم بن عقيل، وقاتلوا الحسين رضي الله عنه بعد أَنْ طلبوا منه الحضور، وثاروا مع زيد بن عليّ بن الحسين ثم تخلوا عنه وهكذا، ولهذا السلوك نفسه قتل حِجْرِ بنِ عَديٍّ رضي الله عنه، وجهل قاتله فاتهموا به الخليفة.

وعليه فإنَّنا نجد أنَّ معاوية قد استعان بكبار الرجال أصحاب ممن امتاز بحسن الإدارة وصلابة الموقف أمثال عمرو بن العاص واليه على مصر، وزياد بن أبي سفيان واليه على العراقِ.

الفتوح في عهد مُعاويَة:

كانت همة المسْلِمِيْنَ موجهة نحو مملكة الروم، وكان على عهد مُعاويَة من ملوك الروم ملكان:

أحدهما: قسطنطين الثاني ابن هرقل الثاني الذي ولى الملك من سنة (٦٤١م إلى سنة ٦٦٨م).

والثاني: قسطنطين الرابع بوغاناتس الذي ولي سنة (٦٦٨م إلى سنة ٦٨٥م).

ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الإسلامية لما بينهما من الجوار، فرتب مُعاويَة الغزو إليها براً وبحراً أما البحر فكانت الأساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله (١٧٠٠) ألفاً وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة.

الفتوح البحرية:

جهَّز معاوية أسطولاً بحريّاً قويّاً في البحر المتوسط، وذلك لمواجهة القوة الرومانيَّة البحرية، وقد استطاع الأسطول الإسلامي هذا افتتاح عدَّة أماكن وجزر في البحر المتوسط منها جزيرة قبرص، وبعض جزائر اليونان، وجزيرة رودس افتتحها **جنادة بن أبي أمية الأزدي**، ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم، وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم، وكان مُعاويَة يكثر لهم العطاء.

= وأما في البرِّ فرتَّب الشَّواتي والصَّوائفَ:

(الشواتي): جمع شاتيه، وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء.

(الصَّوائف): جمع صائفة وهي الجيش الذي يغزو في الصيف.

فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو.

= وفي سنة (٤٨هـ) جهز مُعاويَة جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان الجيش بقيادة ابنه يزيد بن معاوية، وضمَّ في صفوفه عدداً من الصحابة الكرامِ، منهم ابن عباس، وابن عمر، وابن الزُّبَيْرِ، وأبو أيوب الأنصاري، وغيرهم، وعبد العزيز بن زرارة الكلابي فساروا حتى بلَغوا القسطنطينية[1].

---

[1] وهو أوَّلُ جيشٍ للمسلمينَ يغزو القسطنطينية، وقد ورد في فضلِ هذا الجيشِ حديثٌ أخرجَه البخاريُّ (٢٧٨٧) عن أمِّ حرامٍ رضي الله عنها أنَّها سمِعَتِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، يقولُ: "أوَّلُ جيشٍ من أمَّتي يغزونَ مدينةَ قيصر مغفورٌ لهم".

لم يتمكَّن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لـ: متانة أسوارها، ومنعة موقعها، وفتك النار الإغريقية بسفنهم.

وفي أثناءَ الحصار توفي أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد رضي الله عنه وهو الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريباً من أسوار القسطنطينية.

الثورات:

قامتْ في عهد مُعاويَة عدَّة ثوراتٍ وبخاصَّةٍ في العراق (الكوفة والبَصْرَة) فقضي عليها، وكان والي البَصْرَة زياد بن أبيه ومن بعده ابنه عبيد الله شديدين جداً عليهم.

بيعة يزيدَ ووفاةُ مُعاويَة:

أخذ مُعاويَة البيعة لابنه يزيد في حياته، فكان أول خليفة مسلم يفعل ذلك.

وكان ممن عارضه في ذلك من الصحابة الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزُّبَيْرِ، وعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهم.

وواجهته مصاعبُ جمَّة ومشاكلُ ومعارضاتٌ شديدةٌ؛ حتى تمكَّن من هذا الأمر.

سار مُعاويَةُ في النّاس سيرةً حسنةً، وحرص على جمع الكلمة، ولم يبق معارضاً إلا عدد من الخوارج وتأثيرهم كان ضعيفاً. وكان عهده من أنضر عهود الخلافة الإسلامية، واستتب الأمن الداخلي، وكل العناصر المادية له مغلوبة، وفتوحاته الخارجية مستمرة على كل الجبهات، مكلَّلةً بالانتصارات، كما كانت سابقاً.

وكلُّ ما أَخَذَهُ بعضُ الصحابة وأَبْناؤُهم على مُعاويَة أَخْذُه البيعةَ لابنه يزيدَ من بعده.

وقد نقل عن ابن عمر رضي الله عنها أنَّه قال لما تمَّت البيعة ليزيد: "إن كان خيراً رضينا، وإنْ كان بلاءً صبرنا"[1].

توفي في رجب (٦٠هـ) فكانت خلافته عشرين عاماً.

أوَّلياتُه:

= مُعاويَةُ أوَّلُ مَنْ وضَعَ البَريدَ في الإسلامِ.

= وهو أوَّلُ من اتَّخذَ ديوانَ الخَتْمِ.

= وفي أيامه بنيت مدينة القيروان في الشمال الإفريقي.

يزيدُ بنُ مُعاويَة

(٦٠-٦٤هـ)

هو يزيد بن مُعاويَة بن أبي سفيان، وصَلَته الخلافة بعهد من أبيه، وكان مما دفعَ معاويةَ لاختيار ولده يزيد لولاية العهد ما كان عليه يزيد من قوةٍ وشجاعةٍ، ورأيٍ وحزم وفطنة وفصاحةٍ -كما يقول الذهبي في تاريخ الإسلام-.

وقد بايعه الأَمصار في حياة أبيه، ما عدا نفر من المدينة -كما مرَّ-، وقد حاول يزيد إجبارهم، فبايع ابنُ عُمرَ وابنُ أَبي بكْرٍ وابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهم.

أما الحسينُ بنُ عليٍّ وعبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ رضي الله عنهم فقَدْ رَحَلا إلى مكَّة، ولم يبايعا، وكانا يطمعان في الخلافة.

وكان معاوية قد أوصى ولده وصيةً توضح مدى إدراكه للمصاعب والمتاعب التي سيواجهها يزيد مع المذكورين، ونصُّ الوصية كما أوردها الطبري هو:

---

[1] طبقات ابن سعدٍ : (١٧٠/٤).

"أنظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عَلَيْك مِنْهُمْ، وتعاهد من غاب. وأنظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عَنْهُمْ كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن تشهر عَلَيْك مئةَ ألف سيفٍ. وأنظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شَيْء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إِلَى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم.

وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حُسَيْن بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزُّبَيْرِ؛

= فأما ابن عمر فرجل قَدْ وَقَذَهُ الدِّينُ، فليس ملتمسا شَيْئًا قِبَلك.

= وأما الْحُسَيْن بن علي فإنه رجلٌ خفيفٌ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن لَهُ رحماً ماسَّة، وحقّاً عظيماً، وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم، وَلا أظن أهل العراق تاركيه حَتَّى يُخرجوه، فإن قدرت عَلَيْهِ فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه.

= وأما ابن الزُّبَيْر فإنه خب ضب، فإذا شخص لك فألبد لَهُ، إلا أن يلتمس مِنْكَ صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك مَا استطعت"[1].

فاجعة كربلاء (١٠محرم٦١هـ):

لم يبايع الحسين بن عليّ يزيداً، وخرج إلى مكة المكرمة حيث مكث فيها من شعبان إلى ذي الحجة سنة (٦٠هـ).

وفي هذه الفترة كان أهل العراق يراسلونه، وتَقْدُم إليه وفودهم، إلى أَنْ صحَّ عزمه على الخروج إليهم، فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة ليستجلي

---

[1] تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٣)

له حقيقة أمر أهلها، فلما وصل مسلم إلى الكوفة وبلغ أهلها قدومه بايعه اثنا عشر ألف منهم، فتأكَّد له رغبة أهل الكوفة في الحسين وقدومه، فكتب إليه: "أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله إن جميع أهل الكوفة معك فأَقْبِل حين تنظر في كتابي"[1].

تجهَّز الحسين وعزم على المُضي إلى الكوفة بأهله وخاصته، وعلم بذلك الصحابة فجاءه أولاً أخوه محمد بن الحنفية فأعلمه أَنَّ الخروج ليس له برأي يومه هذا، فأبى الحسين، ونصحه ابن عباس رضي الله عنهما قائلاً: "إنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أَنْ يستفزوا عليك النّاس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذين دعوك أشد النّاس عليك". وقال له أيضاً: "يا ابن عم ... إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قوم غُدرٌ فلا تغترنَّ بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوهم ثم اقْدُم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصوناً وشعاباً، ولأبيك به شيعة، وكن عن النّاس بمعزل، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم، فإني أرجو إذا فعلت ذلك أَنْ يكون ما تحب". فقال الحسين: "يا ابن عم! والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكني قد أزمعت المسير". فقال له: "إن كنت لا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك، فوالله إني لخائف أَنْ تقتل كما قُتل عُثْمان ونساؤه وولده ينظرون إليه" إلى أَنْ قال: "فوالله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أَخَذْتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك النّاس أطعتني وأقمت لفعلت ذلك".

وكذلك نصحه بعدم الخروج ابن عمر رضي الله عنهما وعبد الله بن جعفر وأبو واقد الليثي والمسور بن مخرمة رضي الله عنهم، فلما رأوا إصراره على الخروج ودَّعوه، وعلموا أنه لابد مقتول.

---

[1] أنساب الأشراف (١٦٧/٣) .

ويقال إن الفرزدق الشاعر لقي الحسين في الطريق فسأله عما وراءه، فلما أعلمه بقصده قال الفرزدق: "أنت أحب النّاس إلى النّاس، والقضاء في السماء، والسيوف مع بني أمية". فقال له الحسين: "هذه كتبهم معي"، فردَّ عليه الفرزدق: "يخذلونك فلا تذهب فإنك تأتي قوماً قلوبهم معك وأيديهم عليك"[1].

هذا مع أَنَّهُم – أي الصحابة – كانوا يرون رأي الحسين بعدم كفاءة يزيد بن مُعاويَة للخلافة، وهم لم يبايعوا يزيد لأَنَّهُم يرونه أفضل من غيره من الصحابة والتابعين، ولكنهم فعلوا ذلك دفعاً لمفسدة التفرق والاختلاف بين المسْلِمِيْنَ، فعن حميد بن عبد الرحمن قال: دخلنا على رجلٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين استخلف يزيد بن مُعاويَة، فقال: أتقولون إن يزيد ليس بخير أمة محمد فقهاً ولا شرفاً؟ قلنا: نعم. قال: وأنا أقول ذلك، ولكن والله لأن تجتمع أمة محمد أحب إلي من أَنْ تفترق، أرأيتم باباً لو دخل فيه أمة محمد وسعهم، أكان يعجز عن رجل واحد لو دخل فيه؟ قلنا: لا. قال: أرأيتم لو أَنَّ أمة محمد قال كل رجل منهم: لا أُهريق دمَ أخي، ولا آخذ ماله، أكان هذا يسعهم؟ قلنا: نعم. قال: فذلك ما أقول لكم[2].

لقد توقَّع كل من نصح الحسين أنه لابد سيقتل وذلك من خلال كلمات التوديع له. استنتجوا ذلك من الأحداث التي سبق أَنْ جرت إبان الفتنة بين عليّ ومُعاويَة وعرفوا من خلالها الدوافع والأهواء التي تدفع ببعض النّاس أصحاب المصالح الخاصة للاستفادة من إثارة الفتن.

هذا ولما تأكد ليزيد بن مُعاويَة تصميم الحسين على الاستجابة لدعوة أهل الكوفة، كتب لابن عباس قائلاً: "نحسب أَنَّ رجالاً أتوه من المشرق فمَنَّوه الخلافة، فإنهم عندك

---

[1] البداية والنهاية (١١/٥١٠) .

[2] تاريخ خليفة بن خياط: ١٦٤ .

منهم خبرة وتجربة، فإن كان فعل فقد قطع وشائج القرابة وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه، فاكففه عن السعي في الفرقة" فكتب إليه ابن عباس: "إني لأرجو أَنْ لا يكون خروج الحسين لأمرٍ تكرهه، ولست أَدَعُ النصيحة له في كل ما يجمع الله به الألفة وتطفي بها الثائرة".

تسارعت الأحداث في الكوفة حيث بدأ والي الكوفة عبيد الله بن زياد يضيق الخناق على مسلم بن عقيل ويتعقبه، واستطاع أَنْ يُخذِّل النّاس عنه، فأخذ أتباع الحسين ينفضّون سريعاً حتى لم يبق مع مسلمٍ أحد وبقي وحيداً في طرقات الكوفة، ثم قبض عليه، واقتيد إلى ابن زياد فأيقن أنه مقتول، فبكى، فقيل له: "إن من يطلب مثل ما تطلب لا يبكي إذا نزل به مثل الذي نزل بك". قال: "إني أبكي لأهلي المقبلين إلى الكوفة، أبكي حسيناً وآل الحسين". وقال لعمر بن سعد ابن أبي وقاص: "ابعث إلى الحسين، فإني كنت قد كتبت إليه أَنَّ النّاس معه، ولا أراه إلا مقبلاً" فذكر عمر لابن زياد ما قال له مسلم فأجاز ذلك، وقال: "أما حسين فإنه لم يُردنا ولا نُرده، وإن أرادنا لم نكفَّ عنه" ثم أُمِر بمسلم ابن عقيل، فأُصْعِد إلى أعلى القصر، وهو يكبر ويهلل ويسبح ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ويقول: "اللهم احكم بيننا وبين قومٍ غرُّونا وخذلونا وكذبونا وقتلونا" ثم ضُرِب عنقُه.

وصل خبَرُ مقتَلِ مسلمِ بنِ عقيلٍ للحُسينِ، فكان لهذا الخبر وقعه الشَّديد على الحسين رضي الله عنه، لتخاذل أهل الكوفة عن نصرته. وقال لمن معه: "من أحب أَنْ ينصرف فلينصرف" فتفرَّق النّاس عنه يميناً وشمالاً، وقال له من ثبت معه: "ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أَنْ يكونوا عليك". فوثب بنو عقيل إخوة مسلم، وقالوا: "والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم".

لم يبق مع الحسين إلا الذين خرجوا معه من مكة، واستمر في سيره حتى لقي طلائع جيش الأمويين، فاتجه شمالاً على طريق الشام، وطلائع جيش الأمويين يسايره وينصحه بعدم المقاتلة ويذكره بالله، ويبين له أنه إذا قاتل فسوف يقتل، وكان الحسين يصلي بالفريقين إذا حضرت الصلاة.

ولما وصل الحسين إلى كربلاء أدركته خيل عمر بن سعد، وكان هذا الجيش الذي يقوده عمر بن سعد مكوناً من أربعة آلاف مقاتل، وكان وجهة الجيش في الأصل إلى الري لجهاد الديلم، أحاط الجيش بالحسين. وبدأ الحسين بن عليّ بالتفاوض مع عمر بن سعد، وبيَّن الحسين أنه لم يأت إلى الكوفة إلا بطلب من أهلها. وأشار إلى حقيبتين كبيرتين تضمن أسماء المبايعين والداعين، وقال: "كتب إليَّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني، فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم".

فعُرض على الحسين أَنْ يبايع ليزيد بن مُعاويَة وجميع أصحابه.

رفض الحسين هذا العرض، وعرض عرضاً آخر يتمثَّل في إجابته إلى واحدة من ثلاث خصال: أَنْ يتركوه فيرجع من حيث أتى، أو يتركوه ليذهب إلى الشام فيضع يده في يد يزيد بن مُعاويَة، أو يسيروه إلى أي ثغر من ثغور المسْلِميْنَ فيكون واحداً منهم له ما لهم وعليه ما عليهم.

ولكنَّ عبيد الله ابن زياد طلب من الحسين أَنْ ينزل على حكمه – أي حكم ابن زياد – حتى يكون هو صاحب الأمر المتحكم فيه، فرفض الحسين الطلب، وقال: "لا والله لا أنزل على حكم عبيد الله بن زياد أبداً"، وقال لأصحابه الذين معه: "أنتم في حلٍّ من طاعتي" فأصرّوا على مصاحبته والمقاتلة معه حتى الشهادة.

وفي صباح يوم الجمعة نظم الحسين رضي الله عنه أصحابه وعزم على القتال وكان معه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً، وبدأت المعركة سريعة وجُوْبِهِ جيشُ الأمويين بمقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسين، في البداية لم يشترك الحسين رضي الله عنه في القتال، وكان أصحابه يدافعون عنه، فلما قتل أصحابه حملوا عليه حتى قتل رضي الله عنه في العاشر من محرم سنة إحدى وستين[1].

قُتِلَ مع الحُسَينِ رضي الله عنه اثنان وسَبْعونَ رَجُلاً، وقُتِلَ من جيشِ الأُمويينَ ثمان وثمانون رجلاً.

وبعد انتهاء المعركة أمر قائد الجيش :

= أن لا يدخل أَحَدٌ على نِساءِ الحُسَيْنِ وصُبْيانِهِ[2].

= وأن لا يتعرَّض لهم أحدٌ بسوءٍ، وأرسلهم إلى ابن زياد ولما وصلوا إليه أمر لهم بمنزل في مكان معتزل وأجرى عليهم الرزق، وأمر لهن بالكسوة والنفقة[3].

---

[1] تاريخ الطبري (٥/٤٠٠) .

[2] وكان في مقدمتهم عليُّ بنُ الحُسيْنِ الملقب بـ(زين العابدين) إذ أنه لم يشْتَرِكْ في مَعْرَكةِ كَرْبلاءَ بسببِ المرضِ الذي كانَ مُلازِمه، وكان أَثْناءَ احتِدامِ المعرَكةِ طَريحَ الفِراشِ فحُمِلَ إلى ابنِ زيادٍ معَ بقيَّةِ الصِّبيانِ والنِّساءِ.

[3] وأما ما ذكر من سبي نسائه والدوران بهن على البلدان وحملهن على الجمال بغير أقتاب، فهذا كذب، وباطل وما سبى المسلمون هاشمية قط، ولا استحلت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هاشمية قط. بل المرجح أن ابن زياد بعد أن ذهبت عنه نشوة النصر، أحس فداحة خطئه وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد أسرته القريبين منه ، فقد كانت أمه تقول له : ويلك ماذا صنعت ، أو ماذا ركبت. =

ولما بلغ الخبر يزيد بن مُعاويَة بكى، وقال: "كنت أرضى من طاعتكم – أي أهل العراق – بدون قَتْلِ الحسَينِ، أما والله لو أنِّي صاحبُه لعفَوْتُ عنه، فرَحِمَ اللهُ الحسينَ" وفي رواية أنه قال: "أما والله لو كنت صاحبه، ثم لم أقدر على دفع القتل عنه إلا ببعض عمري لأحببت أَنْ أدفعه عنه" وأمر بإرسال أهل الحسين إليه، فأُعْطوا عشرة آلاف درهم فتجهزوا بها، ولما دخل أبناء الحسينِ على يزيد قالت فاطمة بنت الحسين: "يا يزيد أَ بناتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا؟" قال: "بل حرائر كرام ادخلي على بنات عمك تجديهن قد فعلن ما فعلت".

قالت فاطمة: "فدخلت إليهن فما وجدت فيهن سفيانية إلا ملتزمة تبكي".

وعندما دخل عليُّ بنُ الحُسينِ زيْنُ العابدينَ قال يزيدُ: "إنَّ أَباكَ قطعَ رَحمي وظَلَمني فصنَعَ اللهُ بهِ ما رأَيْتَ" فردَّ عليُّ بنُ الحُسيْنِ على يزيدَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. فقال يَزيدُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ثم إنَّ يزيدَ أَرْسلَ إلى كلِّ امرأَةٍ مِنَ الهاشِميّاتِ يَسْأَلُ عنْ كلِّ ما أُخِذَ منهنَّ، وكلُّ امرأَةٍ تدَّعى شيئاً بالغاً ما بلغَ إلاَّ أَضْعَفَه لهنُّ في العَطيةِ.

وكان يزيدُ لا يتغذى ولا يتعشَّى إلاَّ دعا عليَّ بنَ الحُسَينِ.

ثم بعث يزيد إلى المدينة فقدم عليه ذوي السن من موالي بني هاشم ومن موالي بني علي، وبعد أَنْ وصل الموالي أمر يزيد بنساء الحسين وبناته أَنْ يتجهزن، وأعطاهن كل ما طلبن حتى لم يدع لهم حاجة بالمدينة إلا أمر بها، ثم

= وكان أخوه عُثْمان بن زياد يقول: لوددت والله أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأن حسينا لم يقتل: فلا ينكر عليه عبيد الله قوله.

أمر النعمان بن بشير أَنْ يقوم بتجهيزهم، وقبل أَنْ يغادروا قال يزيدُ لعليِّ بنِ الحسينِ إن أحببت أَنْ تقيم عندنا نَصِلُ رَحِمكَ ونَعرِف لك حقَّك فعَلْتَ. ولكن عليّ بن الحسين اختار الرجوع إلى المدينة، وأكرم أبناء الحسين وخيرهم بين المقام عنده والذَّهاب إلى المدينة فاختاروا الرجوع إلى المدينة، وعند مغادرتهم دمشق كرر يزيد الاعتذار من عليّ بن الحسين وقال: "أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيتها إياه، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ولكن الله قضى ما رأيت، كاتِبْني بكلِّ حاجَةٍ تكون لك".

قال ابنُ كثير[1] في يزيد: "وأكرم آل بيت الحسين، ورَدَّ عليهم جميع ما فقد لهم وأضْعَفه، ورَدَّهم إلى المدينةِ في محامل وأبهةٍ عظيمةٍ، وقد ناح أهله على الحسين".

---

[1] في البداية والنهاية: (٨ / ٢٥٤).

هذا وللإمام الغزالي رحمه الله تعالى فتوى بشأن يزيدَ بنِ مُعاويَةَ من المناسبِ إيرادُها هنا، وهي أنه سُئلَ عمَّن صرَّحَ بلَعْنِ يزيدَ وقد فعل كذا وكذا؟ هل يُحكَمُ بفسْقِه أَم هل يكون ذلك مُرخَّصاً فيه؟ وهل كان مُريداً قتْلَ الحسين، رضي الله عنه، أم كان قصدُه الدَّفْع؟ وهل يَسوغُ التَّرحُّمُ عليه أم السكوت عنه أفضل؟ ينعم بإزالَةِ الاِشْتباه مثاباً.

فأَجاب: لا يجوز لعنُ المسلمِ أَصلاً، ومَنْ لَعنَ مُسلِماً فهو الملعونُ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المُسلِمُ لَيْسَ بِلَعّانٍ)، وكيف يَجوزُ لَعْنُ المسلمِ ولا يَجوزُ لعنُ البهائمِ، وقد ورد النَّهيُ عن ذلك، وحرْمةُ المسلمُ أَعظَمُ مِنْ حرمَةِ الكَعْبَة بنصِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم. ويَزيدُ صحَّ إسلامُه، وما صحَّ قتْلُه الحسين رضي الله عنه، ولا أَمَرَه ولا رِضاهُ بذَلك، ومهما لم يصحَّ ذَلِك منه لا يَجوزُ أَنْ يُظنَّ ذلك به فإِنَّ إساءَة الظَّنِّ بالمسلم أَيضاً حَرامٌ، وقد قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اجْتَنِبوا كَثيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ حرَّم مِنَ المُسلِمِ دَمَهُ ومالَهُ وعرْضَهُ ، وأَنْ يُظنَّ بِه ظَنَّ السّوءِ) ، ومَنْ زَعَمَ أَنَّ يزيدَ أَمَرَ بقَتْلِ الحُسين رضي الله عنه ، أو رَضيَ به فينبغي أَنْ يُعْلمَ به =

لقد كان قتْلُ الحُسينِ "ثالثةُ مَصائبِ الإسلام[1] بعد أمير المؤمنين عثمان، أو رابعها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وخرومِه" كما قال ابن حزم.

وكانت هذِه فتْنةٌ أَيسرُ ما نقولُ عنها: إنَّها وسَّعتْ بابَ الفرقَة بيْنَ المسْلِميْنَ.

وقعة الحرة (ذو الحجة ٦٣هـ)

بعد استشهاد الحُسينِ رضي الله عنه تعاطَف أهل الحِجازِ مع عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما الذي رفَضَ مبايعَة يزيدَ ابتداءاً، وانقسم أهل المدينة تجاه البيعة ليزيد والدخول في طاعته إلى قسمين؛

= غاية حماقة، فإنَّ مَنْ قُتِلَ من الأَكابِرِ والوزراءِ والسَّلاطين في عَصْرِهِ لو أَراد أَنْ يَعْلَمَ حَقيقةَ مَنْ أَمَرَ بقتْلِه ومن الذي رَضيَ به؟ ومَن الذي كَرِهَه؟ لم يقدِرْ على ذلك، وإنْ كان قد قُتِلَ في جوارِهِ وزَمانِهِ وهو يُشاهِدُه، فكيف لو كان في بلدٍ بعيدٍ وزمنٍ قديمٍ قد انقضى، فكيف يعلم ذلك فيما انقضى عليه قريبٌ من أربعمئة سنة في مكان بعيد، وقد تطرَّق التَّعصُّب في الواقعة فكثُرَتْ فيها الأحاديث من الجوانب، فهذا أمرٌ لا تعرف حقيقته أصلاً، وإذا لم يُعرَف وجَبَ إحْسانُ الظَّنِّ بكلِّ مسلِمٍ يُمكِنُ إحسانُ الظَّنِّ به، ومع هذا فلو ثبت على مسلم أنَّه قَتلَ مُسلماً فمذهبُ الحقِّ أنَّه ليس بكافرٍ، والقتلُ ليس بكفرٍ بل هو معصيةٌ، وإذا ماتَ القاتلُ فربَّما مات بعد التوبة، والكافرُ لو تابَ من كُفْرِه لم تجز لعنته، فكيف من تاب عن قتلٍ، وبِمَ يُعْرَف أنَّ قاتِلَ الحسين رضي الله عنه مات قبل التوبة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، فإذاً لا يَجوزُ لَعْنُ أحدٍ ممن مات مِنَ المسْلِميْنَ، ومن لعنَه كان فاسقاً عاصياً لله تعالى، ولو جاز لعْنُه فسكتَ لم يكن عاصياً بالإجْماع بل لو لم يلْعَنْ إبليسَ طولَ عُمرِه لا يُقالَ له يوم القيامة:= = لِمَ لَمْ تلعنْ إبليس، ويُقالُ لِلاَّعنِ: لم لَعَنْتَ ومَنْ أَينَ عَرَفْتَ أنَّه مطرودٌ ملعونٌ والملَعونُ وهو المبْعدُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وذلك غَيْبٌ لا يُعرفُ إلى فيمَنْ ماتَ كافراً فإنَّ ذلك عُلِمَ بالشَّرْعِ، وأما التَّرحُّم عليه جائِزٌ، بل هو مُسْتَحبٌ، بل هو داخلٌ في قَوْلِنا في كلِّ صلاةٍ (اللَّهمَّ اغْفِرْ للمُؤمنينَ والمؤْمِناتِ)، فإنَّه كان مؤمناً والله أعلم؛ كتبه الغزالي. وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٨-٢٨٩).

[1] أوَّلُ تلك المصائب انتِقالُ الحبيبِ المصطفى سيدِ ولَدِ آدمَ صلى الله عليه وسلم إلى الرَّفيقِ الأَعلى.

= قسم تزعَّمه عددٌ ممن دفعه الحماس والغيرة على الدين إلى خلع يزيد، ومنهم بعض الفقهاء، ولقد اعتمدت ثورة أهل المدينة على فتوى هؤلاء العلماء في مقاومة حكم يزيد بن مُعاويَة، ويتضح ذلك في خطاب عبد الله بن حنظلة حين قال: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أَنْ نرمى بحجارة من السماء.

= والقسم الآخر والذي يُمثِّلُهُ معظمُ الصَّحابَة الذينَ امتدَّ بهم العمر إلى هذا التاريخ، ومعهم بعضٌ من كبار التابعينَ، ومنهم عبدُ اللهِ بنُ عمَرَ بنِ الخطَّابِ، والنُّعمانُ بنُ بشيرٍ، وسعيدُ بنُ المسيب، ومحمد بن الحنفية، وعليُّ بنُ الحسينِ، وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم، وغيرهم، فهؤلاء لم يشترِك أحدٌ منهم في هذه الفتنة ولا رضي بها، بل حاولوا إقناع الثائرين بعدم خلع يزيد والخروج على حكمه.

وأما أهمُّ الأسباب والدَّوافع التي قامت عليها حركة أهل المدينة في الخروج على يزيد فهي:

= الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن بني أمية قد تجاوزوا في حكمهم حدود الشريعة.

= عدم تمتع الخليفة بالكفاءة والعدالة في شخصه.

كل ذلك بعد أَنْ كانوا قد أعطوا البيعة ليزيد، لكنهم وللأسباب الآنفة رأوا أنه يجوز لهم نقض البيعة وخلع يزيد نظراً لعدم كفاءته وصلاحه للحكم، وهو أمر خالفهم فيه عامة الصحابة لأَنَّهُم يرون أَنَّ نقض البيعة لا يجوز، وأنَّ فسوقَ الحاكم لا يوجب الخروج عليه.

يضاف إلى ذلك خوف مفتي الصحابة وكثير من الفقهاء من استعار القتل، والخوف على انتهاك قدسية مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وقع ذلك بالفعل.

قام الثائرون بمحاصرة بني أمية في المدينة في دار مروان بن الحكم، فبلغ ذلك يزيد فأرد أَنْ يخلِّصهم من هذا الحصار قبل أَنْ يُقتلوا أو يَحلَّ بهم مكروه، فأمر بتجهيز جيش ليذهب إلى المدينة، فيخلِّص بني أميَّة، ويردّ هؤلاء المتمردين إلى الطاعة، وعيَّن **مسلمَ بنَ عُقْبَةَ المرّيَّ** قائداً للجيش ، وأمرَه أَنْ يدعوهم ثلاثاً، فإنْ رَجعوا إلى الطاعةِ، قَبِلَ منهم وكفَّ عنهم، وإلاَّ قاتلهم، ثم إذا فرغ من المدينة أَنْ يذهب لحصار ابن الزُّبَيْرِ، وقال له: إنْ حدَث بكَ أمْرٌ فعلى النّاس **حُصينُ بنُ نمير السكوني**.

سار مسلمٌ إلى المدينة فوجد بني أمية قد أُخرجوا منها، وساروا تجاه الشام، فاستوقفهم وسألهم عن الوضع في المدينة، فلم ينطقوا بجواب، وكان أهل المدينة، قد أطلقوا حصارهم بعد أَنْ أخذوا عليهم العهود والمواثيق ألاَّ يدلوا على عورة ولا يعاونوا عدوّاً، فغَضِبَ مسلمٌ منهم غضباً شديداً، ولم يُهدِّء غضبَه إلا عبد الملك بن مروان الذي دلَّه على الخطَّة التي يَجبُ اِتِّباعُها في حرب المدينة، فأشار عَليه بأنْ يأْتيَها مِنْ جِهَتِها الشرقية، ويلحق في الجنوب منها، يواجه أهل المدينة، في مكان يسمى الحرَّة، وتأتي الشمس أمام جيشِ الشام فتلمع خوَذهم وسلاحهم فيرهبون عدوهم، ويكون لهم السيطرة من الوجهة الحربية.

وهذا ما قام به مسلمٌ، ففي آواخر شهر ذي الحجة سنة (٦٣ هـ) التقى جيش الشام بقيادة مسلمٌ بجيش أهل المدينة، وانتهت المعركة لصالح جيش الشام، وقُتِل عدد كبيرٌ من القادة ووجوه النّاس، منهم عدد من الصحابة رضوان الله عليهم[1].

---

[1] عن سعيد بن المسيب قال: وقعت الفتنة الأولى – يعني مقتل عُثْمان – فلم تُبْقِ مِنْ أصحابِ بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية – يعني الحرَّة – فلم تُبْقِ من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طبّاخ – كأنَّه أرادَ أنَّه لم تُبقِ الفتنةُ بينَ الناسِ صحابياً –. البخاري في كتاب المغازي، =

هذا وقد أورد خليفةُ بنُ خيَّاط[1] قائمةً بأَسْماءِ قتلى الحرَّة وقال: فجميع من أُصيبَ من قريشٍ والأَنصار ثلاثمئةِ رجلٍ وستَّةُ رِجالٍ.

وبعد انتهاء معركة الحرّة أَحْضَرَ مسلِمٌ مدبِّري الفتن واستعرضهم، وطلب إليهم أَنْ يبايعوه على أنّهم خَوَلٌ ليزيد، ويحكم في أهلهم ودمائهم وأموالهم ما يشاء، فلم يقبلوا بأن يبايعوا هذه البيعة فقتلهم، وكان يريد أَنْ يقضي على فتنتهم بالصَّغارِ، والحط من منزلتهم والتحقير من شأْنِهِم، بحيث يعتبرون عبيداً، هم وما يملكون. وهذا انحراف عظيم وتجاوز لحدود ما شرع الله تعالى.

لقد كانت وقعة الحرَّةِ وما تلاها مصيبة[2]: "من أكبر مصائب الإسلام وخُرومه، لأن أفاضل المسْلِميْنَ وبقية الصحابة وخيار المسْلِميْنَ من جِلَّة التابعين قُتِلوا فيها". كما قال ابن حزم.

ولما بلغ يزيدُ خبرَ أهلِ المدينةِ وما وقعَ بهم قال: "واقوْماه" ثم دعا الضَّحّاكَ بنَ قيْسٍ الفِهْريَّ فقال له: "ترى ما لقي أهل المدينة، فما الرَّأْيُ الذي يَجْبُرهم؟" قال: "الطَّعامُ والأُعْطيَةُ" فأمر بحَمْلِ الطعام إليهم وأفاض عليهم أُعْطيَتَه.

تحليل موقف ابن عمر من هذه الفتنة:

قدمنا أَنَّ كَثيراً مِنْ عُلَماءِ المدينةِ وأَعيانِها من الصَّحابةِ والتَّابعينَ اعترض عن خَلْعِ يزيدَ فلم يؤيدوا من قام بالخروجِ، بل نصحوا إخوانهم واعتزلوا الفتنة، وفي مقدمة هؤلاء

= باب شهود الملائكة بدراً، بعد الحديث رقم (٣١٨١) فتح الباري (٧/ ٣٧٥)، وينظر تاريخ ابن أبي خيثمة (١٢١/٤).

[1] ينظر تاريخ خليفة: (٢٥٠).

[2] إنما قلنا إنَّها من أَكْبَرِ المصائبِ، لأَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم جعَلَ المَدينَةَ حَرَماً، فانْتُهِكتْ تلك الحرْمة.

عبدُ اللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنهما فإنَّهُ (لَمَّا خَلَعَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ، جَمَعَ حَشَمَهُ وَوَلَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ» وَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ غَدْرًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُبَايَعَ رَجُلٌ عَلَى بَيْعِ اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُنْصَبُ لَهُ القِتَالُ، وَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْكُمْ خَلَعَهُ، وَلاَ بَايَعَ فِي هَذَا الأَمْرِ، إِلَّا كَانَتِ الفَيْصَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ)[1].

فقد عارَضَ ابنُ عُمَرَ من خرج من أهل المدينة لنقضهم البيعة، فهم لم يفعلوا مثل الحسين رضي الله عنه، حيث كان موقفه واضحاً منذ البداية، ولم يعط البيعة.

هذا ولقد استدلَّ الحافظ ابنُ حجر رحمه الله بموقِفِ ابنِ عُمَرَ، والأحاديث التي استشهد بها على وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه، ولو جارَ في حُكْمِه، وأنه لا ينْخَلِعُ ولا يُخْلَعُ بالفسق[2].

والواقع أَنَّ موقف ابن عمر يدل على تحريم الغدر بكل أشكاله، وفي جميع مواضعه، بما فيها غدر الأُمَّةِ برئيسِ الدَّولَة الذي تم اختياره، – وهو أي ابن عمر – مع وفائه ببيعة يزيد، اعتزل القتال ولم يشارك أيّاً من الطَّرفينِ، فهذا موقف شيْخِ الصَّحابةِ في عَصْرِهِ، وأَوْرَع النّاسِ وأزهدهم وأفقههم في دين الله، الذي قالَتْ عنْهُ السَّيدَةُ عائشَةُ رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُ أَلْزَمَ لِلْأَمْرِ الْأَوَّلِ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ»[3].

---

[1] أخرجه البخاري في كتابُ الفِتنِ، باب إذا قالَ عندَ قومٍ شيْئاً ثم قال بِخِلافِهِ (٧١١١).

[2] فتح الباري (١٣/ ٦٠).

[3] المستدرك على الصَّحيحينِ للحاكِمِ (٣/ ٦٤٤).

أسباب فشل الخارجين على يزيد من أهل المدينة:

لقد كان محكوماً على حركة أهل المدينة بالفشل، لعدَّة اعتبارات، منها:

١- تفرُّق صفوفهم فلم يكن لهم قائدٌ واحدٌ، وقد تنبّأ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما بهذه النَّتيجةِ عندما سأَلَ عَنْ حالِهِمْ: فقيلَ استَعْمَلوا **عبدَ اللهَ بنَ مطيعٍ** على قريشٍ، و**عبدَ اللهِ بنَ حنْظَلَةَ** على الأَنصارِ. فقال ابن عباس: أميران؟ هَلكَ القومُ.

ولو حصل الانتصار، فدواعي اشتعال الفتنة موجودة ممَّنْ يكون الخليفة؟ هل يتولاها رجل من قريش أو من الأنصار؟ فهم لم يعلنوا أَنَّهُم تَبَعٌ لابنِ الزُّبَيْرِ.

٢- عدم وضوح الهدف الذي يريدون تحقيقه بعد خلع يزيد والنصر، فإذا كان هدفهم خلع يزيد: هل كانوا يريدون أَنْ تكون إمارة مستقلة؟ وهذا غير ممكن. وإذا كان هدفهم تولية ابن الزُّبَيْرِ، لماذا لم يرفعوا راية واحدة باسم ابن الزُّبَيْرِ، ولماذا لم يطلبوا المدد منه؟ إِذْ لو ضَمَّ ابنُ الزُّبَيْرِ جندَه إلى جندِ المدينة، لتكوَّنت قوة تستطيع أَنْ تقف أمام جيش مسلم بن عقبة، ولكنهم عندما وزعوا قواتهم وعدَّدوا معاركهم استطاع الأمويون أَنْ ينتصروا عليهم وهم متفرقون.

يقولُ ابنُ تيْميَّة[1]: "... وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلاَّ كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الخيْرِ، كَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى يَزِيدَ بِالمدِينَةِ،...

فَهُزِمُوا وَهُزِمَ أَصْحَابُهُمْ، فَلا أَقَامُوا دِيناً وَلا أَبْقَوْا دُنْيا ... وَاللهُ تَعَالَى لا يَأْمُرُ بِأَمْرٍ لا يَحْصُلُ بِهِ صَلاحُ الدِّينِ وَلا صَلاحُ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ فَاعِلُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ المتَّقِينَ ... وَكَانَ أَفَاضِلُ الْمُسْلِمِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الخرُوجِ وَالقِتَالِ فِي

---

[1] منهاج السنة النبوية ٤/٥٢٨-٥٢٩. باختصار.

الفِتْنَـةِ، كَمَـا كَـانَ عَبْـدُ اللهِ بْـنُ عُمَـرَ، وَسَـعِيدُ بْـنُ المسَـيَّبِ، وَعَلِـيُّ بْـنُ الحسَـيْنِ وَغَيْرُهُمْ يَنْهَوْنَ عَامَ الحرَّةِ عَنِ الخرُوجِ عَلَى يَزِيدَ".

خروج عبد الله بن الزبير وحصار مكة المكرمة

انتقلَ ابنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه من المدينَةِ إلى مكَّةَ رفضاً لبيعةِ يزيد، إلاَّ أَنَّه لمْ يطلُبِ البيعةَ لنَفسِه، وإنَّما كانَ يهدفُ إلى إعادةِ أمرِ الخلافَةِ إلى الشُّورى، وكان يخطبُ ويقولُ: «والله لا أُريدُ إلاَّ الإصْلاحَ وإقامَةَ الحقِّ، ولا أَلْتَمِسُ جمْعَ مالٍ ولا إدِّخاره، وإنَّما بطني شِبْرٌ أو أَقل، يَكفيني ما مَلأَهُ»[1]. وقدِ التفَّ النّاسُ حولَه في مكةَ ردَّة فعلٍ للذي أحدثَتْهُ فاجِعَةُ كَربُلاء.

عندما سمع ابن الزُّبَيْرِ بمقْتَلِ الحُسينِ رضي الله عنه قام خطيباً في مكَّةَ وترحَّم على الحسين وذمَّ قاتليه، ونظراً للمشاعر العاطفية التي أَثَّرتْ على المسلمينَ عموماً بسبب قتلِ الحسينِ رضي الله عنه أخذَ ابنُ الزُّبيْرِ يدعو إلى الشُّورى ويحطُّ على يزيدَ ويثبِّط النّاس عنه، وأخذ النّاس يلتفُّونَ حوْلَهُ.

حاول يزيد في بداية الأمر أَنْ يحتوي الأمرَ حتى لا تتَّسع دائرةَ النِّزاع وتفضي إلى القتالِ من جديدٍ، فكتَبَ يزيدُ رسالَةً ابْنِ الزُّبيْرِ يدعُوه إلى البيعة، ويَذكُرُ فيها فضائلَهُ ومآثِرَهُ في الإسْلامِ، ويُحذِّرُه من الفتْنَةِ والسَّعي فيها، ويقول: أُذكِّرُكَ اللهَ في نفسك، فإنَّك ذو سِنٍّ في قريشٍ، وقد مَضى لك سَلَفٌ صالحٌ، وقَدَمُ صدقٍ من عِبادَةٍ واجتهادٍ، فادْخُلْ فيما دَخلَ فيه النَّاسُ، ولا تُرْدِهِم في فِتْنَةٍ، فتُحلَّ ما حرَّم الله تعالى.

---

[1] أنساب الأشراف للبلاذري (٥/ ٣١٥)

فلمَّا وَقَفَ ابنُ الزُّبير على كِتابِهِ، كتبَ إليه: "أمَّا بعد، فاجْعَلْها شُورى بَيْنَ المسلمينَ..." وأغلظَ له في العبارة، ... فغضبَ يزيد، وحلف لا يقبلُ له بيعةً[1].

وفي أوَّلِ المحرم من عام (٦٤ هـ) وبعد فراغِ مسلم بن عُقْبة من المدينة المنورة سار إلى مكَّةَ قاصداً قِتالَ ابْنِ الزُّبَيْرِ، ولكنَّه مات في طريقِه، فتولَّى القيادةَ من بعدِه الحُصَيْنُ بنُ نُمَيْرٍ السكونيُّ الذي وصل إلى مكة قبل انقضاء شهْرِ المحرَّم بأربعِ ليالٍ. وعسكَر بالحجون، فقام ابنُ الزُّبَيْرِ يحثُّ النّاس على قتال جيش أهل الشام وانضم المنهزمون من معركة الحرّة إلى ابنِ الزُّبَيْرِ، وقَدِمَ على ابنِ الزُّبَيْرِ أَيْضاً **نَجْدَةُ بْنُ عامِرٍ الحنَفيُّ** في ناسٍ مِنَ الخَوارِجِ، وذلك لمنعِ البيتِ من أَهلِ الشَّامِ، وكانَ عددُ المقاتلينَ الذينَ اشتَركوا مع ابنِ الزُّبَيْرِ أَقلُّ بكثيرٍ مِنَ المقاتلينَ الذين اشترَكوا في معركَة الحرَّةِ، فلم تكنِ القوَّات متكافئة، وتحوَّلَ الوضعُ لصالح الحُصَيْنِ بنِ نُمَيْرٍ، بعد أَنْ مُنِيَ ابنُ الزُّبَيْرِ بفقد خيْرَة أَصْحابِه.

وفي أَثناءِ احتدامِ المعاركِ بينَ ابنِ الزُّبَيْرِ والحُصَيْنِ بنِ نُمَيْرٍ ، وصلَ الخبرُ بموتِ يزيدَ، فأرسل الحُصيْنُ إلى ابنِ الزُّبَيْرِ واجتمَعَ به وفاوَضَه في الخِلافَةِ، فالتقيا وتَحادَثا طَويلاً واشتَدَّ بينهما الجدَلُ، وكانَ فيما قالَ الحُصَيْنُ لابنِ الزُّبَيْرِ وهو يدعوه للخِلافَةِ: " إِنْ يَكُ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ هَلَكَ فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ، هَلُمَّ فَلْنُبَايِعْكَ، ثُمَّ اخْرُجْ مَعِي إِلَى الشَّامِ، فَإِنَّ هَذَا الْجُنْدَ الَّذِينَ مَعِي هُمْ وُجُوهُ اهل الشام وفرسانهم، فو الله لا يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ اثْنَانِ، وَتُؤَمِّنُ النَّاسَ وَتَهْدِرُ هَذِهِ الدِّمَاءَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَالَّتِي كَانَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الْحَرَّةِ" فَقَالَ ابنُ الزُّبَيْرِ: أَنَا أَهْدِرُ تِلَكَ الدِّمَاءَ! أَمَا وَاللهِ لا أَرْضَى أَنْ أَقْتُلَ بِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَشَرَةً"، فافترقا.

---

[1] أنساب الأشراف للبلاذري (٤/ ٣٣٧ – ٣٣٨)، ومرآة الزمان (١١/٨).

ورَجعَ الحُصينُ بالجيشِ إلى الشَّامِ، وهنا أَعْلَنَ ابنُ الزُّبَيْرِ البَيْعَةَ لنَفْسِهِ.

الفتوحات:

على من الرَّغْمِ من الأَحْداثِ الخَطيرةِ والخُطوبِ العَظيمةِ التي مرَّ ذِكْرُها فإنَّ الفتوحاتِ الإسلاميةِ لم تتوقَّفْ بالكلية وإنْ هدأَتْ في مُعْظَمِ الجِهاتِ.

ففي أفريقيا واصلَ **عقبةُ بنُ نافعٍ** الفتوحات غَرْباً، فَفتَح بلادَ المغْرِبِ كلَّها ووصل إلى المحيط الأطلسي، ويُرْوى أَنَّ عقبةَ صعدَ على رَبْوةٍ مقابلَ المحيطِ وقال: يا ربّ لولا هذا البحرُ لمضَيْتُ مُجاهداً في سبيلكَ، ولو كنْتُ أَعْلمُ بعدَه أَرْضاً وناساً لخضته إليهم.

وفاة يزيد: توفي يزيد (ربيع أول ٦٤ هـ) وله نَيِّف وثلاثون سنة، ودامَتْ خِلافَتُه أربع سنوات.

شأنُ مُعاويَةَ الأَصْغر

كانَ يزيدُ بنُ مُعاويَةَ قد كتبَ بولايةِ العَهْدِ لولَدِه مُعاويَةَ بنِ يزيدَ، (مُعاويَة الأَصْغر)، وتتَّفقُ المصادِرُ التَّاريخيةُ على وصْفِ مُعاويَةَ هذا بالصَّلاحِ والتَّقْوى والبُعْدِ عن الدنيا والتَّرفُّع عنها، فبويعَ له بالخِلافَةِ بعد موتِ أَبيهِ، في رابعَ عشرَ ربيعٍ الأَوَّل سنةَ أربعٍ وستِّين هجرية، وكانَ مريضاً، ولهذا لم يؤثر له عمَلٌ ما مُدَّةَ ولايته التي لم تَزِدِ عن ثلاثةِ أَشْهُرٍ، حتى الإمامةَ في الصَّلاةِ لم يقم بها، فقد أمرَ **الضَّحاكَ ابنَ قَيْسٍ** أَنْ يُصلِّي بالنّاسِ، ويُسيِّرَ الأمورَ[1].

[1] استمرَّ الضَّحاكُ يُصلِّي بالنّاسِ بعدَ وفاةِ مُعاويَةَ، إلى أَنْ استقرَّ الأَمرُ بالشَّامِ لمَرْوانَ بنِ الحَكَمِ.

ولما أحسَّ مُعاويَةُ بنُ يزيدَ بدنو أجَلِه نادي في النّاس: "الصَّلاةُ جامِعَةٌ"، وخطَب فيهم قائلاً: "أيها النّاس إنّي قد ولّيتُ أَمْرَكم وإنّي ضعفْتُ عن أَمْرِكم، فابتغيتُ مثلَ عمَرَ بنِ الخطّابِ حين استخلَفَه أبو بكرٍ فلم أَجِدْه، فابتغيت ستَّةً مثل ستَّةِ الشُّورى فلم أَجِدْهُم، فأَنْتُم أَوْلى بأَمْرِكم فاختاروا له من أَحبَبْتُم" ثمَّ دخل منزلَه وتغيَّب حتى ماتَ.

واعتُبِرَ هذا الموقفُ منه دَليلاً على عدمِ رِضاهُ عن تَحويلِ الخِلافةِ من الشُّورى إلى الوراثة، فقد رفضَ أَنْ يعهَدَ لأَحَدٍ من أَهْلِ بيته حينما قالوا له: "اعهد إلى أحدٍ من أهلِ بيتك"، فقال: "والله ما ذقتُ حَلاوةَ خِلافتِكم، فكيفَ أتقلَّدُ وزْرَها، وتتعجَّلون أنتم حَلاوَتَها، وأتعجَّل مَرارتها، اللَّهم إنِّي بريءٌ منها، مُتخلٍّ عنها".

ماتَ مُعاويَةُ بنُ يزيدَ عن إحْدى وعشرينَ سنَة، وقيل غير ذلك، رحمه الله تعالى.

ولكونه رحمه الله لم يقمْ بأَعباءِ الوِلايةِ ولم تستقرَّ لهُ الأُمورُ لم يُعدَّ من الخلفاءِ، وإنَّما صحَّت الخِلافةُ لعبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما.

خلافة عبد الله بن الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما

(٦٤-٧٣هـ)

هو عبد الله بن الزُّبَيْرِ بن عوام، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ولد بالمدينة، بعد الهجرة بسنة، وهو أول مولود للمهاجرين، لذا فرح به المسلمون، فقد كان هناك ادعاء أَنَّ عقماً أصاب المهاجرين، وهو صحابي جليل، روى عن الرسول (٣٣) حديثاً، شهِدَ اليرموك، ودافع عن سيدنا عُثْمانَ يوم الدار، وجرح آنذاك.

شارك في غزو القسطنطينية، وكانت له فتوحات في أفريقية في أيام مُعاويَةَ، كان كثيرَ العِبادةِ، وكان فارسَ الخُلفاءِ لا يوازيه أَحَدٌ في شجاعتِه.

بيعته:

تقدم أَنَّ ابن الزُّبَيْرِ دعا لنفسه بعد وفاة يزيد، فبايعه أهل المدينة ومكة، واستقرت له الأمور فيهما، ثم بايعه أهل الأمصار، ولم يبق لبني أمية إلا جزء من الشام فقط، وصار – ابن الزُّبَيْرِ – خليفةً للمسلمين.

شأنُ مروانَ بنِ الحكمِ:

بايع الأمويون بعد مُعاويَةَ الأَصْغرِ لِمَروانَ بنِ الحَكَمِ عام (٦٤هـ)، فاستطاع أَنْ يُخضِعَ الشَّامَ لسيطرته، إثر موقعة مرج راهط[1]، ثم استولى على مصر، وعاجلتهُ منيَّته فتوفي سنة (٦٥هـ)، بعد أَنْ عهِدَ لابْنِهِ عبدِ الملكِ.

---

[1] مرج راهط موقع أول مشارف حوران للقادم من الجزيرة العربية.

حركة المختار الثقفي (٦٤-٦٧هـ)

هو المختار بنُ أَبي عُبيدِ بنِ مَسعْودٍ الثقفيُّ، أبو إِسْحاقَ، كانَ مِنْ أَتْباعِ ابنِ الزُّبَيْرِ بمكَّةَ، وقدِ اغترَّ بهِ ابنُ الزُّبيرِ ووثِقَ، فاستأْذنَ ابنَ الزُّبيرِ في الذَّهابِ إلى الكُوفَةِ ليدعو النَّاسِ إلى طاعتِهِ، فأَذِنَ له، فما كان منه إلاَّ أنْ دعا الناس إلى إمامة محمَّدِ ابنِ الحنفيَّة، فبايعه حوالي سبْعَةَ عشرَ ألف رجلٍ سرّاً، فخرج بهم على والي الكوفةِ عَبْدِ اللهِ بنِ مُطيعٍ، فغلبَ عليها، واستولى على الموصل، وعظُمَ شأنه. وتتبَّع قتلَةَ الحسينِ فقتلَ مَنْ وَقَعَ تحتَ يدهِ منهم ونكَّلَ بهم، كما قَتَلَ عُبيدَ اللهِ بنَ زيادٍ[1].

عَمِلَ مصعَبُ بنُ الزُّبيرِ، أميرُ البَصرَةِ بالنِّيابةِ عن أَخيهِ عبدِ اللهِ، على مُقاتَلَةِ المختارِ، فنشبَتْ بينهما وقائع ومعارك انتهت بحصرِ المختار في قصرِ الكوفةِ، وقتلهِ ومَنْ كانَ معهُ، وذلكَ في رمضان سنة (٦٧هـ)، واستمرت مدَّةُ خروجه نحو ثلاث سنين، قضى منها في إمارةِ الكوفة ستَةَ عشَر شَهْراً.

ثم قضى عبدُ الملكِ بنُ مَروانَ بنفسِه على مصعَبَ بنِ الزُّبَيْرِ، سنة (٧١هـ) وأَخضَعَ العراقَ له.

ثُمَّ قَدِمُ جيشُ الأُمويِّن إلى المدينة المنورة فأَخْضَعَها.

مقتل ابنِ الزبَيْرِ وإِخْضاعُ الحِجازِ:

سيَّر عبد الملك جيشاً كبيراً إلى مكة بقيادة قائده الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان ابن الزُّبَيْرِ مُتحصِّناً بها، حاصر الحجَّاجُ مكَّة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وتخاذل النّاس عن ابن الزُّبَيْرِ، فقاتل مع خاصته بشجاعةٍ

---

[1] ويُقالُ: إنَّه الكذَّابُ الَّذي أَشارَ إِلَيْه النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بقولِهِ: "يَخْرُجُ مِنْ ثَقيْفٍ كَذَّابٌ ومُبيرٌ".

نـادرةٍ عنـد الكعبـة، حـتى سـقطت عليـه إحـدى شـرفات الكعبـة فقتلتـه في عـام (٧٣هـ).

فخضعتِ الحجازُ لعبدِ الملِكِ، وهكذا خضعتْ لهُ الأمصارُ كلُّها فصار هو الخليفة في عام (٧٣هـ).

دامتْ خلافةُ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما تسْع سنوات تقريباً.

وفي أيَّامِه جدَّد بناءَ الكعبة المشرَّفة على قواعِدَ إبراهيم فأدخَل فيها الحِجْرَ، وجعل لها بابين ، لـمَّا حدَّثته خالته السيدةُ عائشةُ رضي الله عنها زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوْا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ" قَالَتْ: فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ"[1].

وبعد أنْ جدَّد بناء الكعبة كساها الديباج، وكانت كسوتها المسوح والأنطاع (الجلود).

عبدُ الملكِ بنُ مَروانَ (٧٣-٨٦هـ)

هو عبدُ الملكِ بنُ مَروانَ بنِ الحكَم بنِ أَبي العاصِ بنِ أُميَّة، ولاَّه مُعاويَة على المدينة وعمره (١٦) عاماً، وكان قبل خلافته عابِداً زاهِداً فقيهاً، ومن علماءِ المدينةِ، شاركَ في فتوحاتِ أفريقيا عام (٤١-٤٥هـ).

---

[1] البخاري (١٥٨٦) ومسلم (١٣٣٣).

في سنة (٦٥هـ) تولَّى الأمرَ بعد وفاةِ والدِه مَروانَ بنِ الحكَمِ، وكان الخليفةُ ابنُ الزُّبَيْرِ فانتزَع العِراقَ من ابنِ الزُّبَيْرِ، ثم أَخضَع الحِجازَ كلَّها بعد أَنْ قتلَ ابنَ الزُّبَيْرِ، فبايعته باقي الأمصار، وغدا خليفةً منذ عام (٧٣هـ)، فاستقر الوضع له تماماً.

الفتوحات:

لم تحدث فتوحات واسعة في عهده لانشغاله في قتالِ الخوارجِ وقتالِ ابنِ الأَشعثِ، وعادَ إلى قتالِ الرُّومِ وكانوا يُهدِّدون بلادَ الشَّامِ.

وفي أيَّامه أُعيدَ فتحُ بلادِ المغربِ، وأَشهرُ القادة في ميدانَ الشَّمالِ الأفريقي **موسى بن نصير** الذي أَعادَ الاستقرارَ للمنطقة بعدَ استشهادِ عُقبةَ بنِ نافعٍ، وفتحَ طنجَةَ وسبتَة.

حارَبَ التُّركَ في الشرق وبلاد ما وراء النهر، وسار محمد الثقفي لفتح السند.

ولم تحصل فتوحات واسعة في الشرق ولكن الاستقرار في عهده مهد لفتوحات عظيمة في عهد ولده الوليد.

فتنـــةُ ابنِ الأشْعثِ، وموقف العلماء منها

تُعَدُّ فتنةُ ابنِ الأَشْعثِ منَ الفتنِ التي هزَّت الأمة الإسلامية، وكادت تطيح بالخلافة زمن بني أمية؛ وقدْ كان ابتداؤها سنة إِحْدى وثمانينَ، واستمرت إلى سنة خمس وثمانين للهجرة، وكان من شأنه ما لخَّصَه الحافظ ابن كثير في تاريخه.

قال الحافظ ابن كثير: كان سبب هذه الفتنة أَنَّ ابن الأشعث **كان الحجاج يبغضه، وكان هو يفهم ذلك، ويضمر للحجاج السوء وزوال الملك عنه**، ثم إنَّ الحجَّاجَ بنَ يوسفَ نائب الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق جهَّز جيشاً من البَصْرَة والكوفة وغيرهما لقتال رُتْبيل الكافر ملك الترك، الذي آذى أهل الإسلام وقتل فئات منهم،

وأمَّر الحجَّاجُ على ذلك الجيش ابنَ الأَشعَث، مع أنَّه كان يُبغضه – كما تقدَّم – حتى إنَّه كان يقول: ما رأيته قط حتى هممت بقتله. ودخل ابنُ الأَشعَث يوماً على الحجاج وعنده عامر الشَّعبيُّ، فقال الحجَّاجُ: انظر إلى مشيته!! والله لقد هممت أَنْ أضرب عنقه. فأخبر الشعبيُّ ابنَ الأشعث بما قال الحجاج، فقال ابن الأشعث: وأنا والله لأجهدنّ أَنْ أزيله عن سلطانه إن طال بي البقاء.

فسار ذلك الجيش بإمرة ابنِ الأَشعَثِ، حتى وطئ أرضَ (رُتْبيل)، ففتح مدناً كثيرة، وغنم أموالاً كثيرةً، وسبى خلقاً من الكفار، ورُتْبيل ملك الكفار يهرب منهم من مدينة لأخرى.

ثم إن ابن الأشعث رأى لأَصْحابِه أَنْ يوقفوا القتال، حتى يتَقوّوا إلى العام المقبل، ولتستقرَّ الأمور في البلاد التي فتحوها.

فكتب إليه الحجاج يأمره بالاستمرار في القتال، **ويذمُّه ويُعيِّره بالنُّكولِ عن الحرب، فغضب ابن الأشعث،** ثم سعى في تأليب النّاس على الحجاج. وقام والد ابن الأشعث – وكان شاعراً خطيباً – فقال: إنَّ مثل الحجاج في هذا الأمر ومثلنا كما قال القائل: (احمل عبدَك على الفرس، فإنْ هلكَ هلكَ، وإنْ نجا فلَكَ) إنكم إنْ ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطان الحجاج، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء.

ثم قال: **اخلعوا عدو الله الحجاج – ولم يذكر خلع الخليفة** – اخلعوا عدو اللهِ الحجَّاجَ وبايعوا لأميركم عبد الرحمن بن الأشعثِ، فإني أُشْهِدُكم أنِّي أول خالعٍ للحجاج. فقال النّاس من كلِّ جانبٍ: **خلعنا عدو الله الحجاج – وكانوا يُبْغِضونَه –** ووثبوا إلى ابن الأشعث فبايعوه، **ولم يذكروا خلع الخليفة.**

وبعد بيعة الفتنة تلك **تبدَّلت الأمور، ووقع ما لم يكن في الحسبان،** فقد **انصرف ابن الأشعث عن قتال الترك الكفرة!! وسار بجيشه المفتون مُقبلاً إلى**

الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق، فلما توسَّطوا في الطريق، قالوا: إنَّ خَلْعَنا للحجاج خَلْعٌ لابن مروان، **فخلعوا أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان**، وجدّدوا البيعة لابن الأشعث، فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وخلع أئمة الضَّلالة، وجهاد الملحدين.

فلما بلغ الحجاج ما صنعوا مِن خلْعِه وخلْعِ أمير المؤمنين، كتب إلى الخليفة بذلك يُعلِمه، **ويستعجله في بعثه الجنود إليه**، فانزعج الخليفة واهتم وسعى الناصحون المصلحون في درء الفتنة.

فكتب المهلَّب بنَ أَبي صُفْرة إلى ابن الأشعث **يُحذِّره، وينهاه عن الخروج على إمامِهِ وقال**: (إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركابٍ طويلٍ، أَبْقِ على أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم، الله الله!! انظر لنفسك فلا تُهلكها، **ودماء المسْلِميْنَ فلا تَسْفِكْها، والجَماعة فلا تفرِّقها، والبيعة فلا تنكثْها**، فإن قلت: أخافُ النّاس على نفسي! فالله أحقُّ أَنْ تخافه من النّاس، فلا تُعرِّضها لله في سفك دمٍ أو استحلال محرم، والسلام عليك).

ثم أخذ الخليفة عبد الملك في تجهيز الجنود في نصرة الحجاج **في قتاله الخارجين على الجماعة**، وجعل المفتونون يلتفّون على ابن الأشعث من كلِّ جانبٍ، حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس، ومئة وعشرون ألف راجل!!!

حتى دخلوا البَصْرَة، فخطب ابن الأشعث وبايعهم، وبايعوه على خلع الخليفة ونائبه الحجاج بن يوسف، وقال لهم ابن الأشعث: (ليس الحجاج بشيءٍ، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك الخليفة لنقاتله، **ووافقه على خلعِهما جميعُ من بالبَصْرَة من الفقهاء والقراء والشُّيوخِ والشَّبابِ**).

قال الحافظ ابن كثير: **وتفاقَمَ الأَمرُ وكَثُرَ مُتابعُ ابنِ الأَشْعثِ على ذلكَ، واشتدَّ الحالُ وتفرَّقت الكلِمةُ جدّاً، وعظُمَ الخَطْبُ واتَّسعَ الخَرْقُ** ا.هـ.

ثم التقى جيش الخليفة وجيش ابن الأشعث، فقال القراء الذين خلعوا البيعة: أيها النّاس **قاتلوا عن دينكم ودنياكم**.

وقال عامِرٌ الشَّعبيُّ – وكان من الأئمة، لكن ابن الأشعث فتَنَهُ –: **قاتلوهم على جَوْرِهم، واستغلالهم الضعفاء!! وإماتتهم الصلاة.**

ثم بدأَ القتال، ما بين كرٍّ وفرٍّ، يقتتل النّاسُ كلَّ يومٍ قِتالاً شديداً، حتى أصيب من رؤوس النّاس خلقٌ كثيرٌ، واستمر هذا الحال مدَّة طويلةً، ثم كتب الخليفة إلى ابن الأشعث ومن معه يقول: (إنْ كان يُرْضيكُم منِّي عزلُ الحجَّاجِ خلعْتُه، وأبقيتُ عليكم أُعطياتِكم، وليخيَّر ابنُ الأَشْعَثِ أي بلدٍ شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت).

فلما بلغ ذلك ابن الأشعث خطب النّاس وندبهم إلى قبول ما عرضه عليهم أمير المؤمنين من عزل الحجاج وإبقاء الأعطيات، **فثار النّاس من كل جانب، وقالوا: والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عدداً وعدَّة!!**

ثم جدَّدوا خلع الخليفة عبد الملك واتفقوا على ذلك كلهم، واستمر القتال بين الفئتين مئة يوم وثلاثة أيام – على ما قاله ابن الأثير –.

وصبر جيش الخليفة بقيادة الحجاج، بالحرب، **فأَمَرَ بالحملة على كتيبةِ القُرَّاءِ الذين خلعوا الخليفة**، لأنَّ النّاس كانوا تَبَعاً لهم، وهم الذين يحرِّضونهم على القتال، والنّاس يقتدون بهم، فحمل جيش الحجاج عليهم، **فقتل منهم خلقاً كثيراً**، وبعدها انهزم ابن الأشعث ومن معه، فلحقهم جيش الحجاج يقتلون ويأسرون، **وهرب ابن الأشعث ومعه جمع قليل من النّاس، فأرسل الحجاجُ خلفه جيشاً كثيفاً ليقتلوه**

ويأسروه ففرَّ ابن الأشعث حتى دخل هو ومن معه إلى بلاد رُتبيل الكافر ملك الترك!!! فأكرمه وأنزله عنده وأَمَّنَه وعظَّمه كيداً للمسلمين.

هرب ابن الأشعثِ بعد أَنْ أثار فتنة أهلكت الحرث والنسل فقُتِل مِن أتباعه مَن قُتِل، وأُسِر كثيرٌ منهم، فقتلهم الحجاج بن يوسف، وهرب من بقي منهم، ومنهم عامر الشعبي الإمام الثقة، فأمر الحجَّاجُ أَنْ يُؤْتى بالشَّعبيِّ فجيءَ به حتى دخلَ على الحجَّاجِ.

قال الشَّعبيُّ: فسلَّمتُ عليه بالإِمْرَة، ثم قلتُ: أيها الأمير، إنَّ النّاس قد أمروني أَنْ أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق، ووالله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله تمرَّدنا عليك وحرَّضنا، وجهدنا كل الجهد، **فما كنا بالأتقياء البررة، ولا بالأشقياء الفجرة، لقد نصرك الله علينا، وأظفرك بنا**، فإن سطوت فبذنوبنا، وما جرت إليك أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فالحجَّة لك علينا.

فقال الحجاج لما رأى اعترافه وإقراره: أنت يا شعبي أحبُّ إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول ما فعلت ولا شهدت، قد أمنت عندنا يا شعبي.

ثم قال الحجَّاجُ: كيف وجدْتَ النّاسَ بعدَنا يا شَعْبيُّ؟ وكان الحجَّاجُ يُكْرِمُه قبلَ دخوله في الفتنة.

فقال الشَّعبيُّ مخبراً عن حاله بعد مفارقته للجماعة: أصلح الله الأمير؛ قد اكتحلتُ بعدك السهر!! واستوعرتُ السهول!! واستجلستُ الخوف!! واستحليتُ الهمَّ!! وفقدتُ صالحَ الإخوان!! ولم أجد من الأمير خلَفاً!!

فقال الحجَّاجُ: انصرف يا شَعْبيُّ، فانصرفَ آمنا.

ثم شرع الحجَّاجُ في تتبُّع أَصْحابِ ابنِ الأَشْعَثِ، فقتلهم مثنى وفرادى!!! حتى قيل إنه قُتِلَ منهم بين يديه مئة ألف وثلاثين ألفاً!!! منهم محمد بن سعد ابن أبي وقاص، وجماعاتٌ من السادات، حتى كان آخرهم سعيد بن جبير رحمه الله.

وكان ممن تبع ابن الأشعث طائفة من الأعيان منهم (مسلم بن يسار، وأبو الجوزاء، وأبو المنهال الرياحي، ومالك بن دينار) وقد حاول أن يستميل الحسن البصري، وذلك أنه قيل لابن الأشعث: «إنْ سرَّك أَنْ يُقتلوا حولك كما قُتلوا حول جمل عائشة، فأخْرِجِ الحسنَ، فأرسلَ إليه، فأكرهَهُ».

وعن ابن عون قال: «استبطأ النّاسُ أيام ابن الأشعث؛ فقالوا له: أخْرِجْ هذا الشيخ – يعني الحسن – قال ابنُ عون: **فنظرتُ إليه بين الجسرين، وعليه عمامةٌ سوداء. قال: فغفلوا عنه، فألقى نفسه في بعض تلك الأنهار، حتى نجا منهم، وكاد يومئذٍ أَنْ يهلك**».

وكان ممن خرج أيضاً: سعيد بن جبير، وابن أبي ليلى الفقيه، وطَلْحَةُ بْنُ مُصرِّفٍ، وعطاءُ بنُ السَّائبِ، وغيرهم.

قال أيوبُ: **فما منهم من أحَدٍ صُرِعَ مع ابنِ الأَشْعَثِ إِلَّا رَغِبَ عن مَصْرَعِه، ولا نجا أحد منهم إِلَّا حمد الله أَنْ سلَّمه!!!**

ثم إن الحجاج كتب إلى رُتْبيل ملك الترك الذي لجأ إليه ابن الأشعث، يقول: «**والله الذي لا إله إلا هو، لئن لم تبعث إلي بابن الأشعث لأبعثنَّ إليك بألف ألف مقاتل ولأخرِّبنّها**».

فلما تحقَّق الوعيد من الحجاج استشار في ذلك بعض الأمراء فأشاروا عليه بتسليم ابن الأشعث قبل أَنْ يخرب الحجاج دياره، ويأخذ عامة أمصاره، **فعند ذلك غدر رُتْبيلُ بابنِ الأَشْعَث فقبض عليه وعلى ثلاثين من أتباعه، فقيَّدهم بالأصفادِ وبعثهم مع رسل الحجاج إليه.**

فلما كانوا ببعض الطريق بمكانٍ يقال له (**الرخج**) صعد ابنُ الأشعث وهو مقيدٌ بالحديدِ إلى سطح قصر، ومعه رجلٌ موكَّلٌ به لئلا يفرَّ **فألقى ابن الأشعث بنفسه من**

ذلك القصر، وسقط معه الموكَّلُ به فماتا جميعاً، فعمد الرسول إلى رأْسِ ابن الأشعث فاحتزَّه، وقتل من معه من أصحابه، **وبعث برؤوسهم إلى الحجَّاجِ، فأمر فطيْفَ برأس ابنِ الأشْعَثِ في العِراقِ، ثم بعثَه إلى أمير المؤمنين عبد الملك فطيْفَ به في الشام، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيْفَ برأسه هناك، ثم دُفن.**

قال الحافظ ابن كثير: **والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة** كيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسْلِميْنَ من سنين، فيعزلونه وهو من صليبة قريش، ويبايعون لرجلٍ هنديٍّ بيْعَة لم يتَّفق عليها أهل الحلِّ والعقد!!!

ولهذا لمّا كانت هذه زلَّةٌ وفلتة نشأ بسببها شرٌّ كثير، هلك فيه خلق كثير، فإنّا لله وإنّا إلَيْهِ راجِعون. ا.هـ.

ذكر ابن الأثير في تاريخه: أَنَّ رجلاً من الأنصار جاء إلى عمر بن عبد العزيز فقال: أنا ابن فلان بن فلان، قتل جدي يوم بدر، وقتل جدي فلان يوم أحد، وجعل يذكر مناقب سلفه، فنظر عمر إلى جليسه فقال: هذه المناقب والله، لا يوم الجماجم ويوم راهط، من الخروج وحمل السلاح على المسْلِميْنَ، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

إن فتنة ابن الأشعث كانت فتنة عظيمة فرَّقت الكلمة، وقتل فيها أكثر من مئة ألف مسلم، وفي هذه الحادثة فوائد منها:

أولها: أَنَّ للفتن في أول نشوئها لذة وحلاوة تستهوي كثيراً من النّاس، إلا مَن عصمه الله ونجّاه، وقد خرج كثير من القراء مع ابن الأشعث، فضلاً عن عامَّة النّاس، كان كلامهم في أول الفتن قوياً ومهيجاً، تكلَّم مُتكلِّموهم، وأبدع خطباؤهم، في التحريض على قتال جند الخليفة.

قال أبو البختري: أيها النّاس قاتلوهم على دينكم ودنياكم، فوالله لئن ظهروا عليكم ليُفْسدُنَّ عليكم دينَكم، وليَلُنَّ على دنياكم.

قول عامر الشعبي: أيها النّاس قاتلوهم، ولا يأخذْكم حرج من قتالهم، واللهِ ما أعلم على بسيط الأرض أعملَ بظلمٍ ولا أعملَ بجورٍ منهم.

وقال سعيد بن جبير نحو ذلك.

ولو كانوا يعلمون ما ستؤول الأمور إليه لما قالوا ما قالوا، ولكنها الفتن تَعمى فيها الأبصار.

ثانياً: إذا وقعت الفتن فإن ضحاياها الأبرار والفجار، قال الله تعالى: ﴿واتَّقوا فِتْنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَموا مِنْكُمْ خاصَّةً واعْلَموا أَنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]

ذكَرَ ابنُ الأَثيرِ في تاريخه: أَنَّ الحجّاج لما غلب جيش ابن الأشعث أخذ يبايع النّاس وكان ظالماً، وكان لا يبايع أحداً إلا قال له: اشهد على نفسك أنَّك كفرت – يعني بنقضك البيعة وحملك السلاح – فإن قال نعم بايعه، وإلا قتَله.

فأتاه رجل من خثعم كان معتزلاً للناس كلهم، فسأله الحجاج عن حاله فأخبره باعتزاله، قال الحجاج، بل أنت متّربص بنا، أتشهد أنك كافر؟ قال الرجل: بئس الرجل أنا، أعبدُ الله ثمانين سنة، ثم أشهد على نفسي بالكفر. قال الحجاج: أقتلُك إذاً؟ قال الرجل: وإن قتلتَني. فقتله الحجاج، ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق إلا رحمه، وحزن لقتله.

ثالثاً: إذا ولَّت الفتنة مدبرة، عند ذلك يندم من دخل فيها لما يراه من الفساد والشرِّ الذي نتج عنها، واستمع إلى أهلها وقد جيء بهم حتى أوقفوا بين يدي الحجاج بن يوسف. ها هو فيروز بن الحصين أُسر فأُتيَ به إلى الحجاج فقال له: أبا عُثْمان!! ما

أخرجك مع هؤلاء، فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم؟ فقال: أيها الأمير فتنة عمّتْ، فأمر به الحجاج فضربت عنقه.

ثم دعا الحجاج بعمر بن موسى فجيء به موثقاً، فعنّفه الحجاج، فاعتذر، وقال: أصلح الله الأمير!! كانت فتنةً شملت البرّ والفاجر، فدخلنا فيها، فقد أمكنك الله منا، فإن عفوت فبفضلك، وإن عاقبت ظلمت مذنبين. فقال الحجاج: أما إنها شملت البر والفاجر، فقد كذبت، ولكنها شملت الفاجر وعوفيَ منها الأبرار، وأما إقرارك فعسى أَنْ ينفعك، فرجى له النّاس السلامة، لكن الحجاج أمر به فضُربت عنقُه.

ثم دعا الحجَّاج بـ(الهِلْضامِ بنِ نعيم) فقال: ما أخرجك مع ابن الأشعث؟ وما الذي أَمَّلْت؟ فقال الرجل: أَمَّلْت أَنْ يملك ابن الأشعث فيولّيَني العراق، كما ولاَّك عبد الملك، فقتَلَه الحجاج.

ثم دعا بأعشى همدان وقد تبع ابن الأشعث، وعمل الشعرَ في التحريض على قتال الخليفة، فلما دخل على الحجاج أنشد يعتذر:

أبى اللهُ إلا أَنْ يـــــتمِّمَ نـــــورَه ... ويطفـــئ نـــارَ الفاســـقين فتَخمـــدا

فقَـــتلاهمُ قتلـــى ضـــلالٍ وفتنـــة ... وجيشـــهمُ أمســـى ذلـــيلاً ممـــردا

فمـــا لبـــثَ الحجّـــاج أنْ سـلَّ سـيفَه ... علينـــا فـــولى جيشـــنا وتبـــدّدا

جنـــود أمـــيرِ المـــؤمنين وخيلُـــه ... وســـلطانُه أمســـى عزيـــزاً مؤيَّـــداً

ليهنـــأ أمـــيرُ المـــؤمنين ظهـــورَه ... علـــى أمـــةٍ كـــانوا سُـــعاةٍ وحُسَّـــدا

نزلـوا يشـتكون البغـيَ مـن أُمـرائهم ... وكـــانوا هـــمُ أبغـــى البُغـــاةِ وأعنَـــدا

فقال الحجاج: والله يا عدو الله لا نحمدك، وقد قلتَ في الفتنة ما قلت، وحرّضتَ النّاس علينا، فضُربت عنقه وألحق بأصحابه.

رابعاً: إذا وقعت الفتنة سعى أهلها في استدراج بعض الخواصّ إليهم ليحتجّوا بهم عند العامة، وقد قيل لابن الأشعث: إذا أردت أَنْ يقاتل النّاس حولك كما قاتلوا حول هودج عائشة فأَخْرِج الحسن البصري معك، فأَخْرَجَه. وخرج مع ابن الأشعث بعض الأئمة، كسعيد بن جبير، ومالك بن دينار وغيرهما، ففُتِن النّاس والمعصوم من عصمه الله. **ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من الفتن ويأمر بذلك في كل صلاة، لأن بعضها يجعل الحليم حيراناً، ذلك أَنَّ أهل الفتنة يزيّنون فعلهم بكثرة موافقيهم.** فابن الأشعث قاتل معه أكثر من مئة وخمسين ألفاً، وتبعه جماعة من السادات، لكن فعلهم لم يكن مرضياً، إذ هو خلاف النصوص الآمرة بالجماعة والصبر، الناهية عن الخروج والفرقة والمنازعة. قال أيوب: ما منهم من أحد صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه، ولا نجا من نجا منهم إلا حمد الله وسلمه.

قال الإمامُ ابنُ بطَّةَ العكبريُّ في التَّحذيرِ منَ الاغْترارِ بالكثْرَةِ: **والنّاسُ في زَمانِنا أَسْرابٌ كالطَّيرِ يتْبَعُ بعضُهم بَعْضاً!! لو ظهَرَ فيهم من يدَّعي النُّبوَّةَ – مع علمِهم بأنَّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم خاتمُ الأَنبياءِ – أو من يدَّعي الرُّبوبيةَ لوجَدَ على ذلكَ أَتْباعاً وأَشْياعاً.**

خامساً: عاقبةُ الفتن وخيمة، ومآل أهلها الخسران، فها هو ابنُ الأشعث خرج على جيش إسلامي مجاهداً في سبيل الله، ثم صار رأساً في الفتنة، فترك قتال الكفار وهجم على أهل الإسلام!! وقُتِل بسببه جمعٌ كثير، واضطربت الأمور وكثُر الشر، ثم آلت به الحال أَنْ يلجأ إلى ملك الكفار الذي كان يقاتله بالأمس، ففرح به الكافر وأكرمه إغاظةً للمسلمين.

وهكذا الفتن تقود صاحبها إلى ما لا يريد، لقد غدر به الملك الكافر وأرسله موثَّقاً إلى الحجاج، فأُسْقِط في يده، فلما كان ببعض الطريق، صعد قصراً فألقى نفسه، فمات، **فمن كان يظن أَنَّ نهايته تكون كذلك.**

سادساً: أَلْبَسَ ابن الأشعث فتنته هذه لباس الشرع، وأوهمهم أنها إنكار للمنكر ونصرَة للدين، لكن الباطنَ خلاف ذلك، قد ذكر ابن كثيرٍ أَنَّ الحجاج كان يبغض ابن الأشعث، ويقول: ما رأيته قط إلا وأردت قتله، وهو يعلم ذلك، وكان يهدد ويقول: وأنا والله لأجهدن أَنْ أزيل الحجاج عن سلطانه إن طال بي البقاء. فبيَّن سبب تلك الفتنة كره ابن الأشعث للحجاج، ثم جمع حوله من يبغضون الحجاج، فانظروا كيف استغل كره النّاس ليثأر منه ويُنَكِّد عليه!!

ولهذا فمن دعا إلى مفارقة الجماعة وإثارة الفتنة فهو صاحب هوىً مريض قلب، مخالف للسُّنّة، وإن ظهر فعله ذلك في صورة إنكار للمنكر.

سابعاً: إذا وقعتِ الفتنَةُ، فإن أوّلَ من يصْطَلي بنارِها مَن أَوْقَدَها، فتنقلب الأمورُ عليهم، ويتسلَّطُ الجُهّالُ من أتباعِهم حتى يكون الأمر والنهي عليهم.

وقد كتب الخليفة إلى ابن الأشعث عزل الحجاج وتوليته مكانه، وبقاء أعطيات النّاس، فمال إلى ذلك ابن الأشعث، فخطب النّاس وقال: اقبلوا ما عرض عليكم، وأنتم أعزّاء أقوياء، فوثب الجهال من كل مكان يقولون: لا والله لا نقبل نحن أكثر منهم عدداً وعدَّة، وأعادوا خلع الخليفة ثانية، وبايعوا ابن الأشعث، **فانصاع لأمرهم ووافقهم حتى آل أمره إلى ما آل إليه.**

ثامناً: من فارق الجماعة ودخل في الفتنة فهو في غربة ووحشة، ومآله أَنْ يتخلى عنه أحبابه وأعوانه، ها هو الشعبي يصف حاله بعد أَنْ خلع البيعة ودخل مع ابن الأشعث: فقدتُ صالحَ الإخوان ولم أجد من الأمير خلفاً.

من أجل ذلك كان الأئمة يحرصون على الاجتماع زمن الفتن، يقول حنبل: اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى أبي عبد الله – يعني الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله – يقولون له: إن الأمر تفاقم وفشا – يعنون إظهار القول بخلق القرآن، ولا نرضى بإمرته ولا سلطانه، فناظرهم الإمام أحمد في ذلك وقال: **عليكم بالإِنْكارِ في قلوبِكُم، ولا تخلعوا يَداً مِنْ طاعَةٍ، لا تشقُّوا عَصا المسْلِميْنَ ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسْلِميْنَ معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بَرٌّ ويُستراح من فاجر، وقال لهم: ليس هذا – يعني نزع أيديهم من طاعتهم – صواباً، هذا خلاف الآثار**. ا.هـ.

الإمام أحمد يقولُ هذا، وقد آذاهُ السُّلْطانُ وجلَدَه وسجَنَه، ثم منَعَه من لُقيا النّاسِ، لكن أهل السنة أهلُ عدْلٍ واجتماعٍ ومتابعةٍ للنُّصوصِ يرجون ما عند الله تعالى.

ولذلك كان من الأهمية بمكان **التمسك بالآداب الشرعية أيام الفتن**، ومنها:

١– الحذر من الفتن وعدم الاستشراف لها واعتزال أهلها.

٢– الحلم والرفق، فلا تعجل في قبول الأخبار، والأفكار والآراء، والحكم على النّاس تخطئة وتصويباً، فما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

٣– لزوم جماعة المسْلِميْنَ وإمامهم والحذر من التفرق، لقول حُذيفَةَ رضي الله عنه لَمّا ذَكَرَ لهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الفِتَنَ، قالَ: فَما تَأْمُرَنِي إِنْ أَدْرَكَني ذَلِكَ؟ فَقالَ: «تَلْزَمُ جَماعَةَ المُسلِمينَ وَإِمامَهُمْ»[1].

---

[1] أخرجه البخاري في المناقب، بابُ عَلاَماتِ النُّبَوَّةِ في الإِسلاَمِ (٣٦٠٦) مسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسْلِميْنَ عند ظهور الفتن (١٨٤٧).

٤- الالتفاف حول علماء السنة الأثبات الذين عُرفوا بثَباتِهم وعَدم تقلُّبهم، والحذر من التَّفرُّق عنهم ومنازعتهم، والصدور عن آرائهم والاستجابة لنصحهم، **وأول باب يلج الرجل منه إلى الفتنة الطعن بأمثال هؤلاء الأئمة الأعلام، والاستبداد بالرأي دونهم**، ومن يقدح في أمثال هؤلاء فهو مفتون.

٥- إذا وقعت الفتن فما كلُّ ما يُعلم يقال، وعلى النّاس أَنْ يتركوا الأمور العظام للعلماء الكبار حِفاظاً على اجتماع الكلمة، لأنَّ مردَّ النّاس في آخر أمرهم للعلماء، فمن كان عنده رأي فليعرضه عليهم ﴿وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذاعوا بِهِ وَلَوْ رَدّوهُ إِلَى الرَّسولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتَنْبِطونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

نُضيفُ إلى ما ذكر أعلاه ما ورد عن ندَمِ النّاس لأَنَّهُم لم يستمعوا إلى نُصْحِ الحسنِ البصريِّ الذي أَمرَهم بترْك قِتالِ الحجَّاجِ:

لقد ثبَت مرويّاً بإسناد صحيح من طريق الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري: ندِمَ كثيرٌ من النّاسِ على عدَمِ الأخذ بِنُصح الحسن البصريِّ زمن فتنة ابن الأشعث، وَتَرْكِ قتالِ الحجّاج الحاكم الظالم، قالوا: **(يا ليتنا كُنّا أَطَعْناهُ، يا لَيتَنا كُنّا أَطَعْناهُ)**.

- روي البخاري في تاريخه[1] عنْ مالكِ بنِ دينار، قال: لقيت معبداً الجُهَنيَّ بمكَّة، بعد (فتنة) ابن الأشعث وهو جريحٌ، وقد قاتل في المواطن كلها، فقال: لقيت الفقهاء والنّاس، لم أرَ مثل الحسن، يا ليتنا أطعناه!! كأنَّه نادمٌ على قتال الحجَّاج.

---

[1] التاريخ الكبير: (٣٣٩/٧) والتاريخ الأوسط: (١٠٧٥/٢ رقم: ٨٦٧).

شأن الخوارج:

قوي نشاطهم في العراق والجزيرة، واستطاع القائد الأموي الملقب **المهلَّبُ بنُ أَبي صُفْرةَ** أَنْ يحقِّق انتصارات عظيمة عليهم، ويقضي على أعداد ضخْمَةٍ منهم.

ومن القادة البارزين للخوارج في هذه الفترة **قَطريُّ بنُ الفجاءَةَ**، و**شبيب الشيباني**.

أعمال هامة لعبد الملك بن مروان:

- إصدار العملة الإسلامية عام (٧٦هـ)، فهو أوَّلُ من صكَّ الدِّينار الإسلامي.
- إعادة بناء المسجد الأقصى.
- تعريب الدواوين (٨١ - ٨٦هـ).
- وسَّعَ عبدُ العَزيزِ بنُ مَرْوانَ - والي مصر - جامعَ الفُسطاطِ مِنْ جِهاتِه الأَربعِ.

بعد قضاء الحجَّاج على ابن الزُّبير رضي الله عنهما ودخولهِ إلى مكَّة المكرمة، هدم الكعبة وأعادها إلى ما كانت عليه ، وبقيت على ما هي عليه إلى أيَّامنا.

وفي أيَّامِه بنى واليه على العِراقين الحجَّاجُ بنُ يوسفَ الثَّقفيُّ مدينةَ واسطٍ في مكانٍ بين الكوفة والبصرة.

وفاته : توفي عبدُ الملكِ بنُ مَروانَ سنة (٨٦هـ) وكانت مدَّة حكمِه منْ مقتَلِ ابنِ الزُّبَيْرِ (١٣) سنة.

الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ)

يكنى بأبي العباس؛ تولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه.

كانت أيَّام الوليد هادئة في كلِّ الولايات، فقد ضعُف أمرُ الخوارج، ولم تقم حركةٌ تُذكر في أيَّامه، وكان عهده عهد سعةٍ ورخاءٍ وأمنٍ واستقرارٍ، ولذلك توسَّعت الحركة العمرانية اتساعاً كبيراً، وبذا فقد كانت تلك الأيام من أحسن ايَّام التاريخ الإسلامي، وكثُر فيها العاملون لمصلحة الأمَّةِ، ارتحت الدَّولة من الفتن الدَّاخلية والشِّقاق المزري بالأمم.

أهم أعماله:

– قام الوليد بإصْلاحات وأعمال عمرانية ضخمة، منها:

– بناء جامع دمشق الكبير، وانتهى منه بانتهاء خلافته (١٠ سنوات)، فكان هذا الجامع آية في الإبداع والروعة.

– بنى صخرة القدس.

– وسع مسجد النبوي في المدينة المنورة.

الفتوحات:

حدثت فتوحات واسعة وعظيمة جداً، واتسمت بامتدادها على مختلف الجبهات، في المشرق والمغرب والأندلس وفرنسا.

في بلاد الروم:

وصل القائد **مسلمة بن عبد الملك** إلى عمُّورية (أنقرة) وهرقلة ففتحها سنة ٨٩هـ، ووصل المسلمون إلى خليج القسطنطينية وغزوا أذربيجان وكان سكانها ينقضون مرة بعد مرة، فكثرت الغزوات في تلك الجهات عام ٩٣هـ.

وفي البحر المتوسط:

فتح المسلمون جزيرة صقيلية وميروقة سنة (٨٩هـ).

وفي أفريقية:

وطد **موسى بن النصير** الفتوحات هناك، ثم عمل على نشر الإسلام بين البربر.

فتح الأندلس: قرر القائد **موسى بن النصير** أَنْ يعبر معبر المضيق وينشر الإسلام في بلاد أوروبا ويدخلها نطاق الدولة الإسلامية، فسيَّر **طارق بن زياد** إلى الأندلس سنة (٩٢هـ)، وصل طارق وموسى إلى جبال البرانس، وأخضعا كل تلك المناطق ماعدا جليقية.

الفتوحات شرقاً: إذا ما توجهنا شرقا طالعنا أسماء اثنين من أبرز قادة الفتوحات في هذه المرحلة وهما **محمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي**:

فتوحات محمد بن القاسم الثقفي: أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق – بعد أَنْ تم له القضاء على فتنة ابن الأشعث – جيشاً ضخماً إلى بلاد السند بقيادة ابن أخيه القائد الشاب محمد بن قاسم الثقفي، وقد تمكَّن هذا القائد من تحقيق انتصارات ضخمة هناك، كان من نتيجتها قتل داهر ملك السند، وفتح كامل بلاد السند في الفترة (٩٠-٩٤هـ) فكانت تلك من أعظم الفتوحات.

فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي في بلاد ما وراء النهر:

يعدذُ قتيبة بن المسلم الباهلي من أبرز القادة في زمن الأمويين وقد كانت له صولات وجولات في بلاد ما وراء النهر، ومن أهم فتوحاته فيها:

- فتح مدينة بيكند سنة (٨٧هـ).
- غزا بلاد الصُّغْد ونسف وكش عام (٨٩هـ).

- فتح بخارى سنة (٩١هـ).
- فتح بلاد الطالقان والفارياب وبَلْخ، ثم سمرقند عام (٩٣هـ).
- غزا بلاد الشاش وفرغانه حتى بلغ خوقند عام (٩٣هـ).
- فتح كابل في (٩٤هـ)
- فتح مدينة كاشغر (في تركستان الشرقية) عام (٩٦هـ).

وباختصار فإن هذا القائد الفذَّ قد استطاع أَنْ يصل بفتوحاته إلى كل البلاد الواقعة بين النهرين، ثم واصل فتوحاته حتى دخل الصين.

فبلغت الدولة الإسلامية في هذا العهد أقصى اتساع لها عبر التاريخ.

سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان أبو أيوب.

كان قبل خلافته والياً على الرملة، وتولى الخلافة بعهد من أبيه، وكان أبوه قد عهد لولديه الوليد ثم سليمان.

الفتوحات

كانت الفتوحات محدودة في أيامه:

الجبهة الغربية:

غزا القسطنطينية براً وبحراً تحت قيادة **مسلمة بن عبد الملك** الذي رابط بنفسه هناك، وأقسم أَنْ لا يعود حتى يفتحها فتوفي في أثناء حصارها عام (٩٩هـ).

الجبهة الشرقية:

فتح **يزيد بن المهلب** جرجان وطبرستان عام (٩٨هـ).

وفاته : توفي عام (٩٩هـ)، فكانت خلافته ثلاث سنوات بعد أَنْ كان قد عهد بولاية العهد من بعده لابن عمِّه عمر بن عبد العزيز.

عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

كان قبل خلافته أميراً على المدينة تولى بعهد من ابن عمه سليمان

ونص العهد كما في المصادر التاريخية:

"بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليتك الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك؛ فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم".

أعماله:

عُدَّ عمر بن عبد العزيز من الخلفاء الراشدين لما كان يتمتَّع به من صلاح وتقوى ومحبة للخير فقد امتاز عهده بالكثير من الإِصْلاحات في مختلف المناحي، وردِّ المظالم فمن ذلك:

= استرد من بني أمية كل ما أُعطوا من قطائع وهِبات وأعادها لبيت مال.

= حرَّم على نفسه أَنْ يأخذ من بيت المال شيئاً.

= أصلح الأراضي وحفر الآبار وبنى المساجد.

= وزَّع الصدقات حتى قضى على الفقر.

= عزَل الولاة الظالمين.

أما من جهة الفتوحات فقد:

= قلَّتِ الحروب في أيامه وقابل ذلك نشاط الدعوة للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فدخل الكثيرون في الإسلام.

= فكَّ حصار القسطنطينية، وأمر بعودة الجيوش الإسلامية.

= استمرت الحملات على الترك في بلاد الروم.

= غزا المسلمون فرنسا واخترقوا جبال البرانس، ووصلوا إلى مقاطعتي سبتمانيا وبروفانس، وحاصروا طولوز، ولكن لم يحقِّق المسلمون نتائج ملموسة في هذه الجهات.

وفاته:

توفي في رجب (١٠١هـ) وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر.

يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ)

تولى بعد عمر بعهد من أخيه سليمان.

الفتوحات: يلاحظ أنه عندما تولى الشباب الخلافة في أواخر الدولة الأموية أدى هذا إلى توقُّف الفتوحات وضعف الدولة وبداية نهايتها.

الجبهة الشرقية:

أُعيد فتح أرمينيا وبلاد اللان، كما تمَّ غزو بلاد الصُّغْد عام (١٠٤هـ).

الجبهة الغربية:

انهزم المسلمون وتراجعوا إلى جنوب فرنسا عام (١٠٢هـ)، كما تمَّ غزو جزيرة صقلية.

الخوارج:

وفي أيامه نشط الخوارج بقيادة **شوذب**، فهزموا الأمويين في كثير من المعارك إلى أَنْ قضي عليهم وعلى زعيمهم شوذب.

وفاته: توفي سنة (١٠٥هـ) فكانت مدة خلافته أربع سنوات.

هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ)

هو هشام بن عبد الملك بن مروان، استخلف بعهد من أخيه يزيد، وكان عارفاً بالأمور حليماً موصوفاً بالعقل والفهم، ويكره سفك الدماء، حتَّى قال في حقِّه عبد الله بن عليٍّ العباسيُّ: "جمعت دواوين بني أميَّةَ فلم أرَ ديواناً أصلح للعامَّةِ من ديوان هشام"، وكان يولي أولادَه الجهادَ في بلاد الروم وعرف عهده بالإِصْلاحات الواسعة فقد:

- عمَّر الأراضي.
- بنى مدينة الرصافة.
- ضبط الدَّواوين ضَبْطاً تامّاً.

الفتوحات:

كان الجهاد مستمراً بدون فتوحات جديدة، في فرنسا تقدم القائد **عبد الرحمن الغافقي** بجيوشه إلى أَنْ وصل إلى وسط فرنسا فأصيب الفرنجة برعب شديد. جرت معركة هائلة في بواتييه هي معركة (بلاط الشهداء)، استشهد

فيها الغافقي وتراجع الجيش إلى جنوب فرنسا عام (١١٤هـ)، فكانت هذه أعظم المواقع خطراً على فرنسا.

ومن أهم الأحداث أيامه:

= ثورة زيد بن عليّ بن الحسين، وابنه يحيى:

فقد خرج على بني أمية بالكوفة عام (١٢١هـ) ثم تخلَّى عنه الكوفيون (كعادتهم) فقاتلَ قتالاً عظيماً، حتى قضي عليه في عام (١٢٢هـ).

ثم ثار ابنه يحيى بن زيدٍ في بلْخ بخراسان فقتله الأمويون عام (١٢٥هـ).

= بداية الدعوة العباسية:

نشطت الدعوة في هذه الفترة وكان مركزها في الكوفة، ومجال انتشارها في خراسان، وكان الأمويون يتعقبون الدعاة ويقتلونهم.

مات صاحب الدعوة **محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس** عام (١٢٤هـ)، وتولَّى ابنه **إبراهيم**.

وفي هذه الفترة برز نشاط **أبي مسلم الخراساني** في الدعوة.

وفاته : توفي هشام بن عبد الملك سنة (١٢٥هـ)، ودامت خلافته عشرون عاماً.

الوليد بن يزيد بن عبد الملك
(١٢٥-١٢٦هـ)

استُخلِف بعهدٍ من أبيه يزيد بعد عمِّه هشام، وقد وصمته الأخبار التاريخية بالمجون، فنقَم عليه النّاس، وبايعوا ابن عمه يزيد بن الوليد – وكان مشهوراً بالصلاح – فخلَعه وهو غائب، وقتل في سنة (١٢٦هـ) وكانت مدته ثلاثة أشهر فقط.

وقد أُشيْعَ عنه منكرات بلغتْ حدَّ اتِّهامه بالزندقة، ولو صحَّ ذلك لكانت أعظم فرصة لعمه هشام أَنْ يخلعه من ولاية العهد، ولكن ذلك لم يحصل، والذين دافعوا عنه كانوا كثر، ولم تهدأ الثورات المطالبة بالثأر له حتى انتصر مناصروه بقيادة مروان بن محمد كما سيأتي.

إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك
(١٢٧هـ)

تولَّى بعد أخيه يزيد، فخرج عليه مروان بن محمد الذي كان يدعو للثأر للوليد بن يزيد، وبيعة ابنيه، فقتلهما إبراهيم في السجن، ولما وصل مروان إلى دمشق هرب إبراهيم، ولم تطُلْ مدَّته أكثر من (٧٠ يوماً).

مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ)
(ونهاية الدولة الأموية)

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، ويلقب بـ(الحمار) لنشاطه وجرأته في الحروب، غزا أرض الروم عام (١٠٥هـ)، وفتح مدينة قوينة، وكان أمير أرمينيا وأذربيجان. بويع بالخلافة بعد أَنْ دخل دمشق وهرب منها إبراهيم عام (١٢٧هـ).

كانت مدته في الخلافة كلها فترة اضطرابات وفتن انتهت بزوال الدولة الأموية.

فقد اشتد في أيامه أمر الخوارج في خراسان والعراق والحجاز حتى استولوا على المدينة.

كما قويت الدعوة العباسية مما أتاح لها أَنْ تظهر إلى العلن بعد أَنْ كانت سرية وذلك في سنة (١٢٩هـ)، فقبض مروان على إمامها **إبراهيم بن محمد بن عليّ** وقتله،

فتولَّى بعده أخوه **أبو العباس السفاح**، الذي توجَّه بأهله إلى الكوفة. فبويع هناك بالخلافة عام (١٣٢هـ) وأخضع العباسيون خراسان والعراق.

والتقى مروان بن محمد مع العباسيين على نهر الزَّاب (بين الموصل وأربيل) فهُزِم جيشُه عام (١٣١هـ) ففر إلى عدة جهات، إلى أَنْ قتله العباسيون في مصر سنة (١٣٢هـ) وبمقتله انتهت الدولة الأموية وقامت على أنقاضها دولة بني العباس.

وبعد ... ذلك هو العصر الأموي. عصر حافل بالحركات السياسية والحركات الفكرية، ولا نزاع أنه لا ينافسه عصر آخر فيما خلَّد من فتوح، وما جذب للإسلام من جموع، فهو عصر فريد بين عصور التاريخ الإسلامي، وجدير بأن يكون مفخرة للمسلمين في جميع البقاع حتى العهد الحاضر.

السمات العامة للدولة الأموية[1]

= كانت دولة عربية محضة، فلم يكن لغير العنصر العربي فيها حولٌ ولا سُلطان.

= ولم يتَّخذ الخلفاء قاعدة، إنما كان سُكنى كل أمير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة.

ولا أكثروا احتجان الأموال، ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسْلِميْنَ خطاب التفخيم والسيادة بل استمروا على عادة العرب في خطابهم بخلاف ما أصبح عليه الأمر بعد ذلك من مفتتح الخلافة العباسية، وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد، فكانوا يعزلون العامل، ويولون الأخر، في الأندلس، وفي السند، وفي خراسان، وفي أرمينية، وفي اليمن، فما بين هذه البلاد.

وبعثوا إليها الجيوش، وولوا عليها من ارتضوا من العمال.

وملكوا أكثر الدنيا، فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أَنْ تغلب عليهم بنو العباس بالمشرق، وانقطع به ملكهم.

---

[1] ينظر موجز تاريخ الإسلام لابن حزم الظاهري، تحقيق بديع السيد اللحام: ص ٣٤.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

القسم الثالث

موجز الخلافة العباسية

(١٣٢ – ٦٥٦ هـ)

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

قيام الخلافة العباسية

ينسب العباسيون لسيدنا العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أَنَّ مؤسس هذه الدولة هو (السَّفاحُ عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب).

بداية الدعوة:

ظَهرت في ظل الخلافة الأموية دعوات معارضة لحكمهم ترى أَنَّ غيرهم أحق بالخلافة منهم، وقد تمثَّلت تلك الدعوات بشكل رئيسي بالرؤية التي تقول إن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم هم أولى النّاس بخلافته من بعده، وقد رأينا كيف ابتدأ هذا الأمر بخروج سيد الشهداء سيدنا الحسين بن عليّ رضي الله عنهما (٦٣ هـ) وإلى ما آل أمره، وقد خرج من بعده حفيده زيد بن عليّ في الكوفة (١٢٢هـ).

كما ظهرت فرقه الكيسانية التي قادها المختارُ بنُ أَبي عُبيدِ اللهِ الثَّقفيُّ مدَّعياً أَنَّ الإمامة يجب أَنْ تكون لـ(محمد بن عليّ بن أَبي طالِبٍ) المعروف بـ(ابن الحنفية).

بعد وفاة محمد بن الحنفية ظهر عند أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية طموحٌ لهذا الأَمْرِ فبدأ يجمع حوله الأتباع، محيطاً تحركه بسرية تامَّة، واستمر على التَّردِدِ على خلفاء بني أُميَّة لإبعاد الشبهة عن نفسه، ومع ذلك فقد أحس سليمان بن عبد الملك بالأَمْرِ، ويقال بأنه دسَّ له السمَّ ليتخلَّص منه، فلما أحسَّ بدنو أجله أوصى بالإمامة من بعده إلى ابن عمه محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس الذي كان يقيم في الحُمَيْمَةِ (الأُردن)، وطلب منه أَنْ يعمل على تقويض الحكم الأموي والدعوة لآل البيت.

وقد مرَّت الدَّعوة لآل العبَّاس بمرحلتين:

المرحلة الأولى: السرية (١٠٠ – ١٢٩ هـ)

وكان محمد طموحاً، فحمل الفكرة، وبدأ بتنفيذها منذ سنة (١٠٠ هـ)، فكانت (الحُمَيْمَة) مركزاً للتخطيط وتنظيم العمل، واختار الكوفة مركزاً للدعوة، واختار خراسان مجالاً لانتشار الدعوة، واختار لها دعاة ونقباء أكفاء لنشرها فكانت تنتشر بسرية تامة وببطء باسم آل البيت وأن الخلافة للرضى من آل البيت، فكان عمله يتَّسم بالسياسة والدهاء.

بعد وفاة محمد تولى الدعوة ابنه إبراهيم عام (١٢٥ هـ)، وكان الأمويون قد ضَعُفوا وتفرَّقوا بعد وفاة هشامِ بنِ عبدِ الملَكِ، بينما أخذت الدعوة العباسية بالانتشار.

المرحلة الجهرية وإخضاع خراسان والعراق:

في سنة (١٢٩ هـ) أمر إبراهيم أبرز قواده أبا مسلم الخراساني (وهو صاحب حنكة ودهاء)، أَنْ يعلن الدعوة في خراسان ففعل، فقبض مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين) على إبراهيم وسجنه، فتولى أخوه عبد الله (السَّفاح) الأمر فَقَدِم بأهلهِ إلى الكوفة، ونزل في دار أحد دعاته وهو أبو سلمة الخلاَّل، وبقي أَمْرُه سرّاً.

استطاع أبو مسلِمٍ أَنْ يقضي على نصر بن سيار (والي خراسان) رغم أَنَّ هذا الأخير بذل كل جهوده ومحاولاته لصدِّ أبي مسلمٍ واستنجد بالخليفة مروان بن محمد مرتين. واستنجد بيزيد بن عمر بن هبيره (والي مروان على العراق)، ولكن لم يلق أي استجابة لانشغالهم جميعاً بالحروب والفتن. فتمكَّن أبو مسلم من الاستيلاء على خراسان سنة (١٣٠ هـ).

ثم انتزعت العراق من يد يزيد بن عمر بن هبيرة سنة (١٣٢ هـ).

إعلان الخلافة العباسية:

خرج عبد الله (السفاح) من مخبئه، وذهب مع جماعته إلى جامع الكوفة، وأعلن خلافته ودعا أهل الكوفة لمبايعته، فبويع بها، في ربيع أول سنة (١٣٢ هـ).

معركة الزَّاب والقضاء على الأمويين:

سيَّر السَّفاحُ جيوشه لقتال مروان بن محمد (آخر خليفة أموي) الذي كان قد عسْكَرَ على نهر الزَّاب (قرب الموصل) فهُزِم مروانُ، وفرَّ من مكانٍ إلى مكانٍ، إلى أَنْ تمكَّن العبَّاسيونَ من قتْلِه في مصر سنة (١٣٢ هـ)، فاستتبَّ الوضع لبني العباس في جميع الأقطار الإسلامية عدا الأندلس.

عصور الدولة العباسية

اصطلَح أغلبُ المؤرِّخينَ على تقسيم الدَّولة العباسية منذ قيامها في العراق إلى أَنْ سقطت بغداد بيد المغول سنة (٦٥٦هـ) إلى مرحلتين متمايزتين وذلك وفق التالي:

١ – العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٤٧ هـ):

وهي مرحلة قوة وسيطرة الخلفاء، حيث كان أمر الدولة بيد الخليفة ليس لأحد معه أمر ولا نهي، وقد حكم في هذه الفترة عشرة خلفاء.

٢ – العصر العباسي الثاني (٢٤٧ – ٦٥٦ هـ):

وهي المرحلة التي فقد فيها الخلفاء السُّلطةَ شيئاً فشيئاً حيث تسلَّط على الخلافة الوزراء تارةً والعنصر التركي تارةً أخرى، ثم سلاطين البويهين ومن بعدهم سلاطين السلاجقة، وقد وصل الحال أَنَّ هؤلاء المتسلطين كانوا يُعيِّنون خليفةً ويخلعون آخر ويعتدون على ثالث بالحبس أو الضرب أو حتى سمل عينيه أو قتله دون أَنْ يرعوا لهم حرمة أو تأخذهم بهم شفقة، وأصبحت الخلافة في بعض مراحلها كرة يتقاذَفها المتنفِّذون من السَّلاطين وغيرهم.

وقد حكم في هذه الفترة سبعة وعشرون خليفة.

العصر العباسي الأول

(١٣٢ – ٢٤٧ هـ)

خلفاء عصر القوة

الترتيب	الخليفة	الاسم	فترة الحكم
١	السفاح	أبو العباس عبد الله بن محمد	١٣٢ – ١٣٦ هـ
٢	المنصور	أبو جعفر عبد الله بن محمد	١٣٧ – ١٥٨ هـ
٣	المهدي	محمد بن عبد الله بن محمد	١٥٨ – ١٦٩ هـ
٤	الهادي	موسى بن محمد بن عبد الله	١٦٩ – ١٧٠ هـ
٥	الرشيد	هارون بن محمد بن عبد الله	١٧٠ – ١٩٣ هـ
٦	الأمين	محمد بن هارون بن محمد	١٩٣ – ١٩٨ هـ
٧	المأمون	عبد الله بن هارون بن محمد	١٩٨ – ٢١٨ هـ
٨	المعتصم	محمد بن هارون بن محمد	٢١٨ – ٢٢٧ هـ
٩	الواثق	هارون بن محمد بن هارون	٢٢٧ – ٢٣٢ هـ
١٠	المتوكل	جعفر بن محمد بن هارون	٢٣٢ – ٢٤٧ هـ

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ)

هو عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس. أول خلفاء بني العباس والده هو الذي حمل فكرة الدعوة وعمل على نشرها، فعرف عبد الله الكثير عن الدعوة وأسرارها، ولاه أخوه إبراهيم قبل أَنْ يقبض عليه الأمويون سنة (١٢٩ هـ) فقدم مع جماعته إلى الكوفة سرّاً.

خلافته: بويع له بالخلافة سنة (١٣٢ هـ)، ثم هزم مروان بن محمد وأنهى الدولة الأموية في نفس العام في المشرق، وشمال افريقية. وقد اعتمد في خلافته على ثلاث دعائم:

١ – أسرته: فأعمامه وإخوانه وأبناء عمومته كثيرون، وقد تسلَّموا قيادة الجيوش وأصبحوا أمراء الولايات، وكانوا أهل مشورته.

٢ – أبو مسلم الخراساني: القائدُ الفذُّ المحنَّك، الذي استطاع بحزمه وقوته إخضاع خراسان والعراق. وأن يمهد الأمر لقيام الدولة.

٣ – العصبية القبلية: استفحل أمرها في أواخر العهد الأموي، فاستغلها العباسيُّون فكانوا مع اليمانيين ضدَّ القيسيين (أَنصارِ الأُمويِّين)[1].

العاصمة: كانت الكوفة مركز الدعوة العباسية، وفيها بويعَ للسَّفاح، ثم غادَرها إلى الأَنْبارِ، وجعلها عاصمته سنة (١٣٤ هـ).

---

[1] ينظر: الدولة العباسية الأولى، الأستاذ محمود شاكر، ص ٨٥.

أعماله: كان مشغولاً بتوطيدِ أَركانِ الدَّولة، التي لم تستقرّ بعد، وبخاصَّة بعد أَنْ بدأَ الدعاة الأَوائل – الذين قامت على أكتافهم الدَّعوة – بإِظْهارِ عدم رضاهم لاستئثار العباسيين بالأمر، فيما كانوا هم يدعون لبيعة (الرِّضا منْ آلِ البيتِ)، ظانِّين أنَّه من آلِ عليٍّ وفاطمة رضي الله عنهما، فلذلك نرى أَنَّ السَّفاحَ قتل داعيتَهم في العِراقِ ووزيرَه أبا سلمة الخلاَّل بتهمةِ مُحاولةِ نقلِ الخلافةِ إلى البيت العلويِّ.

ثمَّ سعى للقَضاء على رئيسِ دُعاتِهم في خُراسان أبي مسلمٍ الخراساني إلاَّ أنَّ المنيَّة عاجلته قبل ذلك.

لكلِّ ما تقدَّم فقد انصرف السفاح عن الفتوحات، واستمرت المناوشات في بلاد الترك وبلاد ما وراء النهر طيلة مُدَّتِه في الخلافة.

وفاته:

توفي عام (١٣٦ هـ)، فكانت خلافته أربع سنوات.

أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ)

هو عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس.

كان من عظماء بني العباس مشهوراً بالشجاعة والحزم والدهاء، ويمكن أَنْ يعدَّ المؤسس الحقيقي للدولة ومثبّت أركانها، انتقل مع أخيه أبي العباس السفاح إلى الكوفة، وعمل معه فكان الساعد الأشد والعضد الأقوى له، ثم كان والياً على الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان قبل خلافته.

أهمُ الأَحْداثِ في عَصْرِه: واجهَ المنْصورُ ثورات خطيرة، من شأنِها أَنْ تهزَّ كيان الدَّوْلةِ، ولكنَّه استطاع بحنكته وسياسته ومهارته أَنْ يخرجَ من تِلْكَ الأَحْداثِ مُنتَصراً، ومن أهمِّ الأَحْداثِ التي واجهها المنصور:

١ – ثورَةُ عمِّهِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ:

كان عبد الله بن علي يرى أنَّه الأحقُّ بالخلافة، وادعى أَنَّ السفاح عهِدَ إليه بالخلافة من بعده، فبايعه جيشه، كما بايعه أهلُ الشَّام والجزيرة، فسار بجيشه إلى حرَّان فتحصَّن بها.

سيَّر إليه المنصور أبا مسلِمٍ الخراساني، فقاتله خمسة شهور، انتهت بهزيمة عبد الله وفراره إلى البَصْرَة، ثم قبض عليه المنصور سنة (١٣٧ هـ) وسجنه حتى مات.

٢ – القضاء على أبي مسلِمٍ الخراسانيِّ:

كان أبو مسلم قوياً، داهية (وأصله فارسي)، وكان السيد الوحيد المطاع في خراسان، وكان المنصور يخاف أَنْ يتمرَّد على الدولة، ولما خرج عليه عمه عبد الله في الجزيرة والشام، رأى الفرصة سانحة ليضرب القوَّتين ببعضهما (قوةَ عمِّه عبدِ الله من طرفٍ، وقوة قائده الخراسانيِّ أبي مسلم من طرفٍ آخر) فأرسل إلى أبي مسلم يأمره بالحضور مع جيشه لقتال عبد الله، وبعد أَنْ تمكَّن أبو مسلمٍ من القضاء على تمرُّد عبد الله عمِّ المنصور، طلب منه المنصور الحضور إليه فأوجس منه خيْفَةً فلم يستجب في بداية الأمر، ولكنه وبعد إلحاح شديد وتهديد، قَدِمَ إلى المنصور فأدخله القصر وحده وقتله سنة (١٣٧ هـ).

٣ – ثورة محمد (النفس الزكية) وأخيه إبراهيم: وهما أبناء عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي، خرج محمد في المدينة المنورة فتبعه أهلُها سنة (١٤٥هـ)، فسيَّر إليه المنصور جيشاً قضى عليها.

ثم ثار أخوه إبراهيم في العام نفسه في البَصْرَة، فأطاعه أهلوها، ثم أخضع معظم العراق وفارس والأهواز. وقاوم المنصور مقاومةً عنيفة إلى أَنْ قضى عليه في عام (١٤٥ هـ).

وقد كان خروج محمد وإبراهيم للمطالبةِ بالخلافة فقد كانا يريان أَنَّهُما أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم من بني العباس.

٤ – الخوارج: نشط الخوارج أيام المنصور وبخاصة في المغرب، حيث أقاموا دولة بني مدرار في سجلماسة سنة (١٤٠ هـ)، وقد نشط المنصور في قتالهم، إلا أنه لم يستطع القضاء عليهم.

٥ – الأمويون في الأندلس:

عندما انهزم مروان بن محمد ومن معه من الأمويين في معركة الزَّاب لحقتهم جيوش العباسيين يعملون فيهم القتل والتشريد حتى لم يبقوا لهم باقية في الشام وشمال إفريقية وسائر البلاد، وقد تمكَّن عبد الرحمن بن مُعاويَة بن هشام بن عبد الملك (المعروف بعبد الرحمن الداخل) من النجاة من أيدي العباسيين وانتقل إلى الأندلس، واستطاع أَنْ يؤسس فيها دولة أموية، ولكنه لم يدع الخلافة بل كان يتسمى بالأمير، وذلك سنة (١٣٨ هـ). وقد عجز المنصور عن قتاله، فتركه، بل وحمد الله أَنْ جعل بينهما البحر حائلاً.

الفتوحات: بعد استقرار الأوضاع سيَّر الجيوش إلى بلاد الروم، وأنشأ ثغوراً للمرابطة كانت تُنظّم منها غارات منتظمة عرفت بالصوائف والشواتي، الغرض منها حماية الحدود، وأخضع البلدان التي نقضت العهد ك(طبرستان، والديلم، وكشمير) وغيرها.

أهم أعماله:

١ – بنى مدينة بغداد واتخذها قاعدة الدولة وعاصمتها سنة (١٤٦ هـ).

٢ – بنى الرَّافِقةَ: وهي مدينة على نهر الفرات جانب مدينة الرَّقة، وهي متصلة بها.

٣ – وسَّع المسجد الحرام عام (١٣٩ هـ).

وهو الذي أصَّل الدولة، وضبط المملكة ورتَّب القواعد، وأقام الأنظمة والقوانين.

وفاته: توفي في مكة أثناء حجه عام (١٥٨ هـ)، حكم واحداً وعشرين عاماً.

محمد المهدي

(١٥٨ - ١٦٩ هـ)

هو محمد المهدي بن عبد الله المنصور.

بويع بالخلافة بعد أبيه بعهد منه عام (١٥٨ هـ).

كان جواداً كريماً، كثير العطايا، وكان شاعراً مطبوعاً، وكان عالماً عاملاً، له رواية للحديث، منقاداً للعمل به.

وكانت الأوضاع مستقرة في عهده، فلم تقم حركات تذكر.

أهم أعماله:

= رد المظالم لأهلها، قال السيوطي[1]: لما حصلت الخزائن في يد المهدي أخذ في ردِّ المظالِم، فأخرج أكثر الخزائن ففرَّقها، وبرَّ أهله ومواليه.

= وسع المسجد الحرام فأدخل فيه دوراً كثيرة، وأمر بعمارة طريق مكَّة، وبنى بها قصوراً، وعمل البرك.

= وهو أول من عمل البريد من الحجاز إلى العراق.

موقفه من الزَّنَادِقة:

لقب (الزندقة) كان يُطلقُ على من اعتنق المانوية أو الثَّنويَّة (أي عبدة النور والظلمة) وأصلها القديم من فارس (تنسب إلى مزدك).

ثم أُطْلِقَ لقب زنديق على كل ملحَدٍ أو مُبْتَدِعٍ، وأُطلِق أحياناً على من كان يحيي حياة المجون والخلاعة من الأدباء.

كان المهدي من أكثر الخلفاء العباسيين إيقاعاً بالزنادقة، وتعقُّباً لهم، قال السيوطي: وفيها (سنة ست وستين ومئة للهجرة) جدَّ المهدي في تتبع الزنادقة، وإبادتهم، والبحث عنهم في الآفاق، والقتل على التُّهمة. وقد أوصى ابنه الهادي بتعقبهم، وقد استجاب الهادي لوصية أبيه.

الخوارج: في أيام المهدي قامت الدولة الرستمية في تاهرت (الجزائر) وهم خوارج إباضية، وقامت دولتهم سنة (١٦٠ هـ).

---

[1] تاريخ الخلفاء: ٢٧٢.

الفتوحات:

حقَّقت جيوشُه انتصارات كبيرة في بلاد الروم. وقد تولى ابنه الرشيد قيادة الجيوش، فوصل إلى سواحل بحر مرمرة، وصالح الإمبراطورة أغسطة على الجزية عام (١٦٦ هـ).

وفاته: توفي عام (١٦٩ هـ) ومدة حكمه (١٠) سنوات وعدة أشهر، وكان قد عهِدَ بالخلافةِ من بعدِه لولَدَيْه موسى الهادي وهارون الرَّشيد على التَّوالي.

موسى الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ)

هو موسى الهادي ابن محمد المهدي.

بويع بالخلافة بعد أبيه بعهدٍ منه.

أعماله وأهم الأحداث في عَصْرِه:

= من أهم أعماله متابعته لما كان عليه أبوه من تتبُّعٍ للزنادقة.

= حاول أَنْ يخلع ولاية العهد عن أخيه الرشيد إلى إبنه، فلم يتحقَّق له ذلك.

= **ثورة الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن علي:** في المدينة ومكة، فقد رام الوصول إلى الخلافة، إلا أَنَّ الهادي استطاع القضاء عليه وعلى جماعته في **معركة فخ** (قرب مكة) عام (١٦٩ هـ).

= **تأسيس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى:** كان ممن شارك في ثورة الحسين بن عليّ بن الحسن ابنُ عمٍّ له هو **إدريس**[1] **بن عبد الله بن الحسن بن الحسن،** وقد

---

[1] وهو أخٌ ليحيى بن عبد الله الذي قام بثورة في بلاد الدَّيلم وقضى عليها هارون الرشيد كما سيأتي.

نجى من معركة فخٍّ وتوجَّه نحو المغرب الأقصى حيث استطاع تأسيس دولةٍ هناك عُرِفَتْ بـ(دولة الأدارسة).

وفاة الهادي: لم تطل مدة خلافته فقد توفي عام (١٧٠ هـ)، ولم يحكمْ إلاَّ سنَةً، وثلاثةَ أَشْهرٍ.

هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)

هو أبو جعفر هارون بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور، درة التاج العباسي، ويُعتبَر بحقٍّ أحد عظماء الملوك في التاريخ، وفي عهده شمل الرخاء الإمبراطورية الإسلامية على نحو لم يتوافَر من قبل، وبلغت الدولة في أيامه قمَّة أوجها وعظمتها واستقرارها، واكتملت لها ألوان من العظمة والقوة والمجد العلمي، وكانت الدولة في أيامه مهيبة الجانب عظيمة القدر، وقد كانت أيام الرشيد أيام خير، كأنها في حسنها أعراس وأعياد.

كان الرشيد جواداً شجاعاً، قاد الجيوش إلى بلاد الروم، فأخضعهم في عهد أبيه وهو في سن العشرين، وكان تقيّاً يخشى الله في أموره كلِّها، حجَّ تسعة مواسم، فشاع بين النّاس أنه كان يحجُّ عاماً، ويغزو عاماً. وكان يستمع إلى الوعاظ فيبكي من خشية الله، وهو من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم، ومن فضائله رعايته للعلم وتأسيسه (بيت الحكمة) ذلك العهد الذي كان المنار للثقافة والفكر في العالم آنذاك، والذي انبعثت منه الشعلة التي أضاءت الطريق للنهضة الأوروبية فيما بعد[1].

---

[1] التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي: (٣/ ١٤٦).

وقد أشيعت حوله الشائعات ونُسِجَتِ الأساطيرُ الباطِلَةُ، كما وجِّهَتْ لَهُ التُّهمُ بصفته أعظم خلفاء بني العباس.

أهم الأحداث:

اتَّصف عهده بالهدوء والاستقرار بشكل عام، إلا أنه لم يخل من منغِّصاتٍ وقيام بعض الخارجين عليه ومنهم:

١ – **ثورة يحيى بن عبد الله** (من ذرية الحسن بن علي): خرج ثائراً في بلاد الديلم، وقد خرجت معه جموع كثيرةٌ، واشتدت شوكته، وخضعت له بعض الأقاليم سنة (١٧٦ هـ)، وتمَّ القضاء على هذه الثورة سنة (١٨٠ هـ).

٢ – الخوارج: هبت للخوارج عاصفة قوية في عهد الرشيد كان يقودها رجل ذو بأس شديد، هو **الوليد بن طريف (الشاري)**. وقامت ثورته سنة (١٧٨ هـ) في الجزيرة، واستطاعت جيوش الخلافة القضاء عليه بعد جهدٍ جهيدٍ.

٣ – الزنادقة: تغلبوا على جرجان وعاثوا فيها بالفساد، فقضي عليهم سنة (١٨١ هـ).

٤ – نكبة البرامكة: وهي الحادثة التي حيرت المؤرِّخين والمحلِّلين منذ حصولها إلى يومنا هذا، والبرامكة هم من أصل فارسي، كان لهم نفوذٌ كبيرٌ وسيطرةٌ واسعةٌ أيام الرشيد. حيث جعلهم أُمراءَ ووزَراءَ، فتحكَّموا بالدَّولة ومقدَّراتها. ثمَّ قضى عليهم الرشيد قضاءً مُبرماً. وأنهي وجودهم سنة (١٨٧ هـ)، لأسبابٍ غير واضحةٍ، واختلف المؤرِّخون كثيراً في تلك الأَسبابِ.

٥ – ثورة خراسان: قامت ثورة عنيفة في خراسان قادها **رافع بن ليث بن نصرِ بن سيَّار** نتيجة استبداد وعُسْفِ والي خُراسان، فعزلَ الرَّشيدُ هذا الوالي وحبسه ولكن الثَّورة استمرَّت، واستمرَّ **رافِعٌ** في عصيانه إلى عهد المأمونِ بنِ هارون الرَّشيد.

فتح هرقلة (أنقرة):

كانَ الغزو في بِلادِ الرُّومِ لا يَنقطِعُ، ويَقودُه الرَّشيدُ بنفسِه أَحْياناً، وفي سنةِ (١٨٧ هـ) نقضَ الرُّومُ بعد أَنْ ولوا عليهم نقفور، الذي كتب إلى الرشيد: "من نقفور ملكِ الرُّوم إلى هارون ملكِ العرب؛ إذا قرأْتَ كِتابي هذا، فاردُدْ إليَّ ما حُمِلَ إليكَ مِنَ الأَمْوالِ، وافتدِ نفسَك، وإِلَّا فالسَّيفُ بيننا وبينك". فغضِب الرَّشيدُ غضباً شديداً، وكتب إليه: "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه" وسار إليه على جيش كبير. حتى دخل العاصمة (هرقلة) وانتصر عليهم، وأسرَ ابنةَ ملكهم، وغنم الكثير، وفرض عليهم الجزية.

وفاته:

عهد من بعده لولديه الأمين ثم المأمون، وكان ذلك باب فتنة هوجاء هبَّت عقِب وفاته بين الأَخوَين، أودَت بحياةِ الآلافِ من المسْلِميْنَ، وتوفي الرشيد عام (١٩٣ هـ). ودام حكمه ثلاثة وعشرون عاماً.

محمد الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ)

محمَّد الأَمين بن هارونَ الرَّشيد، وأمُّه زبيدة بنت جعفر بن المنصورِ، وليس في خلفاء بني العبَّاس من أمُّه وأبوه هاشميّان سواه، كان أَبوه قد ولَّاه العِراقَ وأَخذَ البيْعةَ له من بعْدهِ ، وولَّى المأمونَ الشَّرق (خراسان)، على أنْ يكون الخليفة بعد الأَمينِ ، ثم لأَخيهِما القاسم من بعدهما.

وكان الرشيد قد أخذ البيعة لأبناءِه من بعده في مكة ، وأقسمهم على عدم الاختلاف، وأشهد عليهم جميع من حضَر ، ووضع كتاب البيعة في جوف الكعبة.

فقام الفضل بن الربيع (وزير الأمين) بإغرائه بخلع أخيه المأمون ومبايعة ابنه موسى، ففعل، ومزق كتاب البيعة، فخرج عليه المأمون.

صِراعُ الأَخوَة: في عام (١٩٥ هـ)، أرسل الأمين جيشين لقتال أخيه، فهزمهما طاهر بن الحسين قائد المأمون وفي (١٩٦ هـ) ألحق بهم هزيمة أخرى.

ثم سار طاهر إلى بغداد فحاصرها وضيق في حصارها. فانفض أتباع الأمين من حوله. وزاد أتباع المأمون. ودخل جيش المأمون بغداد سنة (١٩٨ هـ)، فاستحر القتال بين الطرفين، وانتهت الأمر بهزيمة الأمين وقتله، بعد خمس سنوات من خلافته.

عبد الله المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ)

عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، بايع الرَّشيدُ لابنيهِ الأَمين ثمَّ المأْمون، فخلعَ الأمينُ أَخاه – كما مرَّ – فاستطاع المأمونُ بعد صِراع دمويٍّ عنيفٍ وبتدبيرٍ مِنْ وزيرِه الفضْلِ بنِ سَهْلٍ أَنْ يقضي عليه ويتولَّى الخلافة سنة (١٩٨ هـ).

جمع المأمونُ إلى الخلافة والسُّلْطان العلمَ، فكان عالماً صاحب نظر ورأيٍ حافظاً لكِتاب الله تعالى، وقيل[1]: إنَّه لم يحفظ القرآن من الخلفاءِ إلا عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والمأمون.

أهم الأحداث:

– ثورة بغداد وتعيين إبراهيم بن المهدي: كتب المأمون لعليّ بن موسى الرضا (من أحفاد الحسين بن علي) بولاية العهد فغضب عليه العباسيون وخلعوه، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي سنة (٢٠١ هـ)، فقدم المأمون من مرو وقد كان مستقراً بها منذ

---

[1] تاريخ الخلفاء، للسيوطي: (٩٤).

توليه ففر عمه. ثم إن عَليّاً الرضا توفي فهدأت الأمور واستقرت الأحوال وذلك (٢٠٢ هـ).

– **حركة بابك الخرَّمي**: هو من مذاهب الزنادقة، وامتداد لأفكار مزدك. وتنسب إلى مدينة فارسية اسمها (خُرَّمه)، والخرمية أباحوا كل المحرمات، وأشهر زعمائهم هو بابك الخرمي كان يقول بعقيدة التناسخ ووجود إلهين للنور والظلمة، ظهر سنة (٢٠١ هـ)، وامتد سلطانه إلى همدان وأصبهان، واستمر المأمون في قتاله طوال فترته، ولكنه لم يستطع القضاء عليه أيام خلافته، بل امتدت أيام القتال بين بابك هذا وبين العبَّاسيّن إلى أيام المُعتصِم.

– **فتنة خلق القرآن**:

حدثت في عهد المأمون في عام (٢١٨ هـ)، وهي القول بأن القرآن مخلوق، وآمن المأمون بهذا الاعتقاد وهو رأي المعتزلة، وقد تعرض عدد من العلماء للتعذيب في ذلك، من أشهرهم الإمام أحمد بن حنبل، وقد امتدت فتنة القول بخلق القرآن إلى عهد المتوكِّل الذي انتصر لرأي أهل السنة.

الفتوحات:

لاحظنا أَنَّ الفتوحات عموماً محدودة جداً أيام العباسيين، فقد توقَّفت منذ أواخر دولة بني أمية، وقد جرى زمن المأمون بعض الفتوحات الجديدة، من ذلك فتح اللَّاز والشَّيْزَر من بلاد الدَّيْلَم سنة (٢٠٢ هـ)، كما تمَّتْ فتوحات في بلاد النوبة والبجاة.

والمأمون هو الذي بدأ باستقدام العسكر من الترك.

وفاة المأمون: توفي عام (٢١٨ هـ) بعد أَنْ عهد بولاية العهد لأخيه المعتصم ابن هارون الرشيد، وكانت مدَّة حكمه عشرين عاماً.

المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ)

هو محمد بن هارون الرشيد، تولى الخلافة بعد أخيه المأمون بعهدٍ منه.

أهم أعماله:

= استخدم المعتصم الجند الأتراك بكثرة، حتى ازداد أذاهم في بغداد، فبنى لهم مدينة سامراء، ويبدو أَنَّ المعتصم لجأ إلى الترك لفقده الثقة في الفرس والعرب؛ أما الفرس فقد اتضح أَنَّهُم يقصدون الاستبداد بالسلطة، وقد نكَّل بهم الخلفاء العباسيون (بداية بأبي سلمة الخلال، فأبي مسلم الخراساني، ومن بَعدِهما نكَّل هارونُ الرشيد بالبرامكة، والفضلِ بنِ سهلٍ وغيرهم)، وأما العرب فقد زال سلطانهم بزوال دولة الأمين بسيوف الفرس، لذلك اضطر المعتصم أَنْ يبحث عن عنصر جديد فكان العنصر التركي، ولم يدر أنه بذلك التصرف أوقع الدولة في شر مستطير، حيث وضع أمور الدولة في أيديهم.

= تابع المعتصم مقولة خلق القرآن، واستمر في تعذيب الإمام أحمد بن حنبل فهو كان امتداداً لسياسة المأمون في أغلب أموره.

أبرز الأحداث:

– **القضاء على حركةِ بابكِ الخُرَّميّ**: قاتله عدَّة مرَّات، إلى أنْ تمَّ القضاء عليه عام (٢٢٣ هـ)، وكان يوم الانتصار على بابك من أَزْهى أيَّام النَّصرِ التي شهدها المسلمون، فقد قُضيَ بذلك على الخُرَّميَّة بعد جهادٍ استمرَّ أكثر من عشرين سنةً.

– **فتح عمورية**: سارَ ملكُ الرُّومِ ومعه الخُرَّميَّة، فدخلوا زبطرة وملاطية، وفعلوا الأفاعيل بالمسْلِمِيْنَ، ويقال أَنَّ امرأة مسلمة اعتُدي عليها في زبطرة، فصرخت:

واعتصاماه. فلبَّى النِّداء وسار بنفسه إلى أقوى مدن الروم، وهي عمُّوريَّة، فدخل المدينة بعد معركة عظيمة وفتحها عام (٢٢٣ هـ).

وقد خلَّد الشاعر أبو تمام هذه الواقعة في قصيدته الشهيرة ومطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتبِ في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حُفْلا معسولَة الحَلَب

وفاته:

توفي المعتصم عام (٢٢٧ هـ)، بعد أَنْ عهد بالخلافة لابنه الواثق، وكانت مدته تسع سنوات.

هارون الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ)

هو هارون بن محمد المعتصم، تولى الخلافة بعد أبيه المعتصم عام (٢٢٧ هـ).

لم تحدث في عهد الواثق أحداثٌ ذات أهمية.

نفوذ الأتراك:

وصل القواد الأتراك في عهده إلى مكانة مرموقة، وقد منح الواثق للقائد التركي (أشناس) لقب سلطان، فكانت له صلاحيات واسعة.

وفاته:

توفي عام (٢٣٢ هـ)، فكان خلافته خمس سنوات.

جعفر المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ)

هو جعفر بن محمد المعتصم، تولى الخلافة بعد أخيه الواثق، نصَّبه القادة الأتراك الذين أصبحت مقاليد السلطة في أياديهم، وقد حاول أَنْ يتخلص منهم لكنه فشل وانتهت حياته أخيراً على أيديهم.

وفي أيَّامه انتهت فتنة القول بخلق القرآن، وأُكْرِمَ الإمامُ أحمد بن حنبل.

الأحداث:

أغار الروم على دمياط بمصر، فدمروا وقتلوا وعادوا إلى بلادهم دون أَنْ يتعرَّض لهم أحد وذلك في سنة (٢٣٨ هـ)، وتكررت اعتداءاتهم على بلاد المسْلِميْنَ المجاورة لهم، فخرجت لهم عدة حملات، ولكنها لم تحقق نتائج هامة.

وفاته:

استفحل أمر الأتراك في أيَّامه وعظم شأْنُهُم حتى وصل بهم الحال أن تآمروا عليه مع ابنه المنتصر فقتلوه، كان مقتله في سنة (٢٤٧ هـ)، وقد حكم خمس عشرة سنة.

وبمقتل المتوكل انتهى العصر العباسي الأول عصر قوة الخلفاء وبدأ الوهن يدبُّ في أوصال الخلافة والضعف يتسرَّب إليها رويداً رويداً.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الدول المنفصلة في هذه المرحلة

بقي العالم الإسلامي كياناً واحِداً ووحْدَة واحدةً متماسكة الأَركانِ طيلةَ عهدِ الخُلفاءِ الرَّاشدينِ، وعهدِ الأُمويين، وبسقوطِ الأُمويين بدأَ التَّفكُّك في العالم الإسلامي، فانفصلت بعضُ أجزائه عن جسمِ الدَّولةِ، واستقلَّت بنفسِها مشكِّلةً إماراتٍ منفصلَةٍ، فكان أوّلها قيام الدَّولة الأُموية في الأَندلس عام (١٣٨ هـ)، ثم قامت دولةٌ للخوارجِ في المغرب (١٤٠ هـ)، وكان العبَّاسيون يحاولون القضاء عليها في البداية، ثم تركوها وشأنها. ونلاحظ أَنَّ جميع الإمارات المنفصلة في هذه الفترة من مغرب العالم الإسلامي فقط.

الدولة	الموقع	فترة قيامها
الأموية	جزيرة الأندلس	١٣٨ – ٤٢٢ هـ
بني مدرار	سجلماسة (المغرب) (الخوارج الصفَّريَّة)	١٤٠ – ٢٩٧ هـ
الرُّستميَّة	المغرب الأوسط (الجزائر) (الإباضيَّة)	١٦٠ – ٢٩٦ هـ
الأدارِسَة	مراكش (المغرب)	١٧٢ – ٣٧٥ هـ
الأغالِبَة	القيروان (تونس)	١٨٤ – ٢٩٦ هـ

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الدولة الأمويّة في الأندلس

(١٣٨ - ٤٢٢ هـ)

وهي أول دولة تنفصل وتستقل عن جسم العالم الإسلامي.

مؤسس هذه الدولة هو عبد الرحمن بن مُعاويَة بن هشام بن عبد الملك الأموي، وكان قد فرَّ من وجه الدولة العباسية، بعد انهيار الدولة الأموية، فدخل الأندلس فسُمي عبد الرحمن الداخل، وقد كان هناك نزاع بين المضرية واليمانيَّة، فكان الأمر بيد يوسف الفِهريّ (مضري) وتجمع اليمانية والأمويون تحت رايةِ عبد الرحمن الذي سارَ إلى يوسف في قرطبة فاقتتلا وتَحارَبا مدَّة عامٍ تقريباً، إلى أَنْ غلبه عبد الرحمن وتولى الحكم عام (١٣٨ هـ)، وعرفت الموقعة الحاسمة التي انتصر فيها عبد الرحمن على يوسف باسم (المصارة)، وعظم شأنه واستقرت له الأحوال حتى أنه فكر في انتزاع بلاد الشام من العباسيين.

أرسل له أبو جعفر المنصور عدة جيوش للقضاء عليه ففشل وقد لقَّبه (صقر قريش) إعجاباً به وكف عن قتاله، ثم حاول المهدي قتاله فانهزم، فتركوه وشأنه.

مات الداخل سنة (١٧٢ هـ) (كانت قرطبة هي عاصمة الدولة).

ومن أبرز حكام هذه الدولة

عبد الرحمن الناصر (الثالث) (٣٠٠ – ٣٥٠هـ)

تولى والبلاد في غاية الاضطراب، فأخضع الثّوّار، ثم بدأ يشن الغارات على ممالك المسيحيين، فحقق عليهم انتصارات عظيمة، وقاد الجيوش بنفسه عدة مرَّات، وانهزم مرَّةً أمام المسيحيين في معركة الخندق عام (٣٠٨ هـ) ثم استرد قوته سريعاً.

عاشت الأندلس في عَصْرِهِ فترتها الذهبية، فبلغت أوج عظمتها وأبهتها من الناحية السياسية والحضارية والعمرانية، وكسبت احترام وتقدير الجميع.

السيطرة العامرية: في الفترة (٣٦٦ – ٣٩٩ هـ) استبد الحاجب المنصور العامري بالملك والسلطة لضعف بني أمية، وقد كان وصياً على الخليفة هشام (١٠ سنوات) وكان المنصور في غاية الذكاء والشهامة والشجاعة، أخمد الثورات والفتن، ومضى في فتوحاته، وكان يتولى الغزو بنفسه، ولم يهزم قط في غزواته الخمسين التي قام بها، ووصل إلى أقصى الركن الشمالي الغربي من إسبانيا فهابه ملوك أوروبا كلهم. وتولَّى بعده ابنه عبد الملك وكان ككفاءة أبيه، ثم تولى أَخوه عبد الرحمن وكان ضعيفاً وقتل سنة (٣٩٩ هـ)، وبذا انتهت السَّيطرة العامرية، وعادت السُّلطة إلى بني أُميَّة وكانوا ضعفاء مُتناحرين فسقطوا عام (٤٢٢ هـ)، وتفكَّكت إلى إمارات عُرِفت في التاريخ بـ(ملوك الطوائف).

أبرز الحكام الأمويين في الأندلس:

١ – عبد الرحمن الداخل (١٣٨ – ١٧٢ هـ).

٢ – الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٠٦ هـ).

٣ – عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ).

٤ – محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ).

٥ – عبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ).

٦ – عبد الرحمن بن محمد (الناصر) (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ).

دولة بني مدرار في سجلماسة (بالمغرب)

(١٤٠ – ٢٩٧ هـ)

أشرنا عند الكلام عن أهم الأحداث في زمن أبي جعفر المنصور إلى أن الجوارج قد استفحل أمرهم في المغرب، وأن بني مدرار وهم من الخوارج الصفَّرية، قد أسَّسوا لأنفسهم دولةً، وقد انصرف سلاطينها إلى شؤونهم الداخلية والتجارة، وقد استمرت هذه الدولة إلى أن تمَّ القضاء عليهم من قِبَلِ الفاطميين سنة (٢٩٧ هـ).

أبرز حكامها:

١ – عيسى بن يزيد الأسود (المؤسس) (١٤٠ – ١٥٥ هـ)

٢ – أبو القاسم سمكو (١٥٥ – ١٦٨ هـ).

٣ – اليسع بن أبي القاسم (١٧٤ – ٢٠٨ هـ).

٤ – ميمون بن مدرار (٢٢٤ – ٢٦٣ هـ).

الدولة الرُّستميَّة (في المغرب الأوسط)

(١٦٠ - ٢٩٦ هـ)

وهم فرقة من الخوارج الإباضية، أسَّسها عبد الرحمن بن رستم بعد القضاء على البربر، ثم شيد تاهرت وجعلها عاصمة حكمه، قضى العبيديون على هذه الدولة، وضموها إلى نفوذهم عام (٢٩٦ هـ).

أبرز حكامها:

١ – عبد الرحمن بن رستم (١٦٠ – ١٦٨ هـ)

٢ – عبد الوهاب بن عبد الرحمن (١٦٨ – ٢٠٨ هـ)

٣ – الأفلح بن عبد الوهاب (٢٠٨ – ٢٥٨ هـ)

٤ – أبو اليقظان محمد بن الأفلح (٢٦٠ – ٢٨١ هـ)

دولة الأدارسة في مراكش

(١٧٢ - ٣٧٥ هـ)

مؤسس الدولة **إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أَبي طالِبٍ**، وكان إدريس هذا قد ثار بالمدينَةِ المنورة مع الحسينِ بنِ عليِّ بنِ الحسنِ بنِ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ على أبي جعفر المنصور وانتهى أمر خروجهم بموقعة تسمى (موقعة فخ) سنة (١٦٩هـ)، نجا منها إدريس وأخوه يحيى، فأما يحيى فتوجه نحو بلاد الديلم وثار هناك، وبقي ثائراً حتى تمَّ القضاء عليه أيام هارون الرشيد، وأما إدريس فهرب إلى المغرب الأقصى فجمع حوله البربر هناك، وأسَّس إمارةً في مراكش، و قويت شوكته، وتولَّى بعده ابنه إدريس.

يعتبر إدريس الثاني أبرز حكام هذه الدولة ومؤسِّسها الحقيقي، وهو الذي بنى مدينة فاس.

وفي زمن يحيى بن إدريس بن عمر امتد نفوذ الدولة على جميع بلاد المغرب.

وينسب للأدارسة أَنَّهُم أول من نقلوا الحضارة الإسلامية إلى المغرب.

واستمرت هذه الدولة إلى قضى عليها الفاطميون سنة (٣٧٥هـ).

أبرز حكامها:

١ – إدريس بن عبد الله بن الحسن (١٧٢ – ١٧٧ هـ)

٢ – إدريس بن إدريس (١٧٧ – ٢١٣ هـ)

٣ – محمد بن إدريس بن إدريس (٢١٣ – ٢٢١ هـ)

٤ – يحيى بن إدريس بن عمر (٢٩٢ – ٣١٠ هـ)

دولة الأغالبة في القيروان (تونس)

(١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

ولَّى هارونُ الرَّشيد إبراهيمَ بنَ الأَغْلَبِ على أفريقية لتأديب البربر وخوفاً من زحف الأدارسة على مصر والشام عام (١٨٤ هـ)، فضبط الأمور وأخمد الثورات، وجعل مركز حكمه في القيروان واستقل بمنطقته عن الدولة العباسية فتركهُ الرَّشيدُ وشأنه، وقد امتد نفوذ هذه الدولة إلى تونس وطرابلس (ليبيا)، كما كانت لها فتوحات بحرية.

الفتوحات البحرية:

قام الأغالبة بالغزو في البحر الأبيض المتوسط وافتتحوا عدة جزر:

= ففي أيام الأمير زيادة الله بن إبراهيم افتتح المسلمون جزيرة صقلية عام (٢١٢ هـ) وكان المسلمون قد سبق أن غزوها في عهد مُعاويَة غير أَنَّهُم لم يستطيعوا البقاء فيها حتى افتتحها الأغالبة، وقد كان قائد جيش الفتح قاضي القضاة أسد بن الفرات[1]، واستمر النفوذ الإسلامي فيها حتى عام (٤٨٣ هـ).

= وقد توالت هجمات بني الأغلب على جزر البحر الأبيض المتوسط، ففتحوا مالطة سنة (٢٥٦ هـ).

---

[1] أسد بن الفرات بن سنان (١٤٢ – ٢١٣ هـ) قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين، أصله من خراسان ودخل القيروان وهو طفل مع أبيه، رحل في طلب الحديث (سنة ١٧٢ هـ) فقرأ الموطأ على الإمام مالك، ولي قضاء القيروان سنة (٢٠٤ هـ)، كان شجاعاً حازماً صاحبَ رأي. فتح جزيرة صقلية (سنة ٢١٢ هـ)، وتوفي من جراحات أصابته وهو محاصر سرقوسة، وهو مصنف (الأسدية) في فقه المالكية.

= كما أغاروا على جنوب فرنسا وجنوب إيطاليا، فسيطروا على سواحل فرنسية، وفتحوا عدة مدن إيطالية (برنديزي – نابلي – كالبريا – تورنتو – باري).

وكانت نهاية دولتهم على يدي الفاطميين سنة (٢٩٦ هـ).

أبرز حكامها:

١ – إبراهيم بن الأغلب بن سالم (١٨٤ – ١٩٦ هـ).

٢ – زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١ – ٢٢٣ هـ).

٣ – إبراهيم بن أحمد (٢٦١ – ٢٨٩ هـ).

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

العصر العباسي الثاني

(٢٤٧ - ٦٥٦ هـ)

(عصر الخلفاء الضعفاء)

تمتد هذه المرحلة من عام (٢٤٧ هـ) إلى عام (٦٥٦ هـ)، أي أكثر من (٤٠٠ عام).

وأهم سمات هذا العصر:

١ – ضعف الخلفاء، تمثل بوجود نفوذ القادة العسكريين أو السلاطين القادمين من أطراف الدولة على مركز الخلافة وأصبح الخلفاء في أغلب الأحيان مجرد ألعوبة بيد هؤلاء المتنفذين ليس لهم من الأمر شيء.

٢ – نشوء دويلات كثيرة نتيجة بروز قادة استقلوا في مناطقهم واعترف بهم الخليفة.

٣ – ظهور نتائج الحضارة الإسلامية السابقة، لهذا العصر، على شكل علوم، وعمران، ورفاهية، وترف.

٤ – قيام حركات ادعاء النسب الهاشمي، والحركات الباطنية.

٥ – الغزو الصليبي لبلاد المسْلِميْنَ.

٦ – الغزو المغولي، والقضاء على الخلافة العباسية وسقوط بغداد عام (٦٥٦ هـ).

وسنذكر أولاً كيف تتابع نفوذ القادة والسلاطين على مقام الخلافة.

ثم نَعْرِضُ لأهمِّ الأحداث والوقائع التي جرَت في هذه المرحلة .

كما سنُعرِّف بأهم الدُّويْلاتِ التي قامتْ على أطراف دولة الخلافة.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أولاً – نفوذُ القادَة والسَّلاطين

أ – النفوذ التركي (٢٤٧ – ٣٢٠ هـ)

وهي فترة سيطرة القادة العسكريين الأتراك على الخلفاء الضعفاء، فهم الذين يختارون الخليفة، ويخلعونه، ويقتلونه كما يشاؤون، وكان الخليفة المعتصم هو الذي استقدم الترك لتعبئة الجيوش لهم استقدمهم من بلاد ما وراء النهر، وأسند إليهم في البداية أمر سلامته الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص، ثم أدخلهم في جيشه، واستطاعوا بشجاعتهم وبطولاتهم أَنْ ينالوا تقدير الخليفة، فوصلوا إلى القمة والقيادة في أمور الحرب.

ولم يدر أنه بتصرفه هذا وقع وأوقع أولاده وأوقع الدولة الإسلامية في شر مرير على أيدي هؤلاء الطغاة.

وقد بدأ شرهم يظهر في عهد المعتصم، فاعتدوا على كثير من النّاس في بغداد، واعتدى النّاس عليهم، وكثرت الشكوى، فبنى المعتصم مدينة سامراء (سرى من رأى) وانتقل إليها ونقل إليها جيشه.

وأخذ هؤلاء يزحفون بسرعة إلى السلطة الكاملة، حتى استطاعوا قتل المتوكل واكتمل سلطانهم في عهد المنتصر. فصارت لهم السيطرة الكاملة، فكانوا يعينون من شاؤوا ويخلعون من أرادوا، وتعرض الخلفاء لأشد إيذاء على أيديهم، فقتلوا وسجنوا وعذبوا وخلعوا.

وفي عهد المعتمد والمعتضد (٢٥٦ – ٢٨٩ هـ) شهدت الخلافة فترة صحوة واستعادت قوتها وهيبتها. وعاد الضعف بعد ذلك.

* * *

وخلفاء هذه المرحلة هم:

المنتصر (٢٤٨هـ)

أبو جعفر محمد بن جعفر بن محمد بن هارون بن محمد، وهو الذي تآمر على قتل والده مع جنوده الأتراك، وأقام والياً بعده إلى أَنْ مات لخمس خلون لربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين، وكانت ولايته ستة أشهر، وكانت مُدَّة عمره خمساً وعشرين سنة.

وقيل إنما قتل والده لما كان يراه منه ويسمعه من تنقص آل البيت، وما يسمعه من جلسائه، كعليّ بن الجهم ومن نحا نحوه.

المُسْتَعين (٢٤٨-٢٥٢هـ)

أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم، ولي بعد المنتصر إلى أَنْ خلع ثم قتل في سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، وقيل اثنتين وثلاثين سنة.

المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ)

أبو عبد الله الزُّبَيْر بن جعفر المتوكل، ولي بعد المستعين.

أقام والياً، إلى أَنْ قُتِل في شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين.

وفي أيامه ابتدأ ظهور المتغلِّبين في أطراف البلاد، ومنهم أحمد بن طولون الذي استقلَّ بمصر وأسَّس فيها الدولة الطولونية كما سيأتي.

وكانت مدته منذ خَلْعِ المستعين إلى أَنْ خُلِعَ هو أربع سنين غير خمسة أشهر، وكان عمره خمساً وعشرين سنة غير شهر.

خلافة المهتدي (٢٥٥-٢٥٦هـ)

أبو عبد الله محمد بن هارون الواثق، ولي بعد المعتز، فأقام والياً إلى أَنْ قتل في نصف رجب سنة ست وخمسين ومائتين؛ قام عليه القائد التركي موسى بن بغا، فحاربه.

وفي أيامه بدأت فتنة الزَّنْجِ بالظهور وذلك في رمضان سنة خمس وخمسين ومئتين (٢٥٥هـ)، ومن ثم تعاظَمَ شرَرُها.

كانت مدته في الخلافة أحد عشر شهراً، وعمره سبع وثلاثون سنة.

ولاية المعتمد (٢٥٦- ٢٧٩هـ)

أبو العباس أحمد بن جعفر المتوكل، ولي بعد المهتدي، فأقام والياً إلى أَنْ مات، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة، ومات لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، وله خمسون سنة.

وفي أيامه قتَلَ أخوه طَلْحَةُ – الملقَّبُ بالموفقِ – صاحبَ الزَّنْج، وأنهى فتنتهم، وذلك في صفر سنة سبعين ومئتين (٢٧٠هـ).

والمعتمد أول خليفة تُغُلِّبَ عليه، فلم يَنْفُذْ له أمرٌ ولا نهيٌ، ولم يكن بيده من أمْرِ الخلافة إلاَّ الاسم فقط.

ولاية المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ)

أحمد بن طَلْحَة بن جعفر، أبو العباس المعتضد بالله ابن الموفق بالله ابن المتوكل، ولي بعد عمِّه المعتمد.

كان المعتضدُ قبل توليه الخلافة عونَ أبيه طَلْحَةَ في حروبه التي خاضها ضدَّ المتغلِّبين، وقد أَظْهَرَ بسالةً ودِرايةً في حروبه مع الزَّنْجِ والأَعْرابِ وهو في سنِّ الشَّبابِ، وبتوليه الخلافة حلَّ عن بني العباس عقدَة المتغلِّبينَ، وظهر بمظهر الخلفاء العاملين، وجعل يتوجَّه بنفسه إلى أَصحابِ الثَّغبِ في البلاد فيقمَعُ ثائرتَهم، وجعل أُمراءَ الجند مسؤولين عن أعمال أَتْباعهم، وكان شجاعاً، ذا عزم، مهيباً عند أصحابه يتَّقون سطوته ويكفّون عن الظُّلْم خوفاً منه، وفي المؤرخين من يقول: قامت الدولة بأبي العباس وجُدِّدت بأبي العباس، يريد السفاح والمعتضد.

وقد **سكنت في أيامه الفتن لفرض هيبته،** وأسقط المكوس، ونشرَ العدلَ، ورفع الظلم عن الرعية، وبذل المال، وأصلح الحال، ولما ولي الخلافة لم يكن في بيت المال سوى قراريط لا تبلغ دينارين، فأصلح الأمور حتى فضل من ارتفاعه في سني خلافته تسعة عشر ألف ألف دينار.

أقام والياً إلى أَنْ مات لسبع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين، فكانت ولايته عشر سنين غير شهرين وأيام، ومات وله ست وأربعون سنة.

وفي أيامه ابتدأت حركة **حمدان قرمط** التي سنأتي على ذكرها.

ولاية المكتفي (٢٨٩-٢٩٤هـ)

أبو محمد علي[1] بن أحمد المعتضد ابن الموفق ابن المتوكل.

ولي بعد أبيه بعهدٍ منه.

[1] ليس في الخلفاء من اسمه (علي) سواه و(عليّ بن أَبي طالِبٍ) رضي الله عنه.

جاءه نعي أبيه المعتضد وهو مقيمٌ بالرَّقة فبويع بها، وانتقل إلى بغداد، وقام بشؤون الخلافة قياماً حسناً.

استفحَلَ في أيَّامه أمرُ القَرامِطة فحارَبَهم وظفِرَ بهم في كثير من الوقائع، وأنفق في سبيل ذلك الأموال العظيمة.

وفي أيامه أُعيدَ فتح أنطاكية بعد أَنِ استولى عليها الروم.

أقام والياً إلى أَنْ مات عَشية يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت لذي القعدة سنة أربع وتسعين ومائتين، كانت مدة ولايته خمس سنين وسبعة أشهر وأياماً، ومات وله ثلاث وثلاثون سنة.

ولاية المقتدر (٢٩٤-٣٢٠هـ)

أبو الفضل جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طَلْحَة.

بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي سنَة (٢٩٥ هـ) وله أربع عشرة سنة، ولم يَلِ الخلافة أحدٌ قبله أصغر منه فاستصغره النّاس، فخلعوه سنَة (٢٩٦ هـ) ونصَّبوا عبد الله بن المعتز، ثم قتلوا ابن المعتز وأُعيدَ المقتدرُ بعد يومين، فطالت أيامه، وكانت أيام خلافته أيامَ قلاقل وفتن.

ففي أيامه:

- فسد أمر الخلافة، ورقَّت أمور المسْلِميْنَ.

- كثر المتغلِّبون في أطراف الدولة، وتسموا بإمرة المؤمنين، ومنهم الفاطميون في الشمال الإفريقي، والحمدانيون في الموصل وحلب.

– وتعاظم أمرُ القرامطة بالعراق والجزيرة والشَّام، وملكوا الإحساء وقتلوا بالنّاس مقتلة عظيمة، وغلب زعيمهم أبو طاهر القُرمطيُّ على مكَّة، وقلع الحجر الأسود، وقتَل النّاس في الطواف.

نهايته:

كان للمقتدر خادمٌ اسمه مُؤنس – كان يستعين به في أكثر شؤونه — خرج عليه وعصاه، فاسترضاه المقتدر، فعاد إلى الطاعة، ثم لم يلبث أَنْ جمع حوله أنصاراً ودخل بهم دار المقتدر فأخرجه وأخرج معه أمَّه وأولاده وخواص جواريه واعتقلوهم في دار مؤنس سنَة (٣١٧ هـ) وبايعوا القاهر بالله (أخا المقتدر) فأقام يومين، فثارت فرقة من الجيش وأعادت المقتدر، وخرج مُؤنس الخادم من بغداد في جَمْعٍ من الجند والغلمان فقصد الموصل فاحتلَّها ثم عاد فهاجم بغداد، فبرَز له المقتدر بعسكره، فانهزم أصحاب المقتدر وبقي منفرداً، فقُتِلَ وكان ذلك في شوال سنة عشرين وثلاثمئة (٣٢٠هـ) وسنُّه ثمان وثلاثون سنة.

وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة غير شهرين.

ولايةالقاهر (٣٢٠-٣٢٢هـ)

محمد بن أحمد بن طَلْحَة العباسي، القاهر ابن المعتضد ابن الموفق، أبو منصور.

بويع في أيام (المقتدر) أخيه، سنَة (٣١٧هـ)، وأقام يومين – كما مرَّ – وخُلِعَ وسُجِنَ، فلما قُتِلَ المقتدر سنَة (٣٢٠هـ) اختلفت الآراء فيمن يُقامُ بعْدَه خليفة، فقالَ مؤنس الخادم: هذا محمد بن أحمد المعتضد، رَجلٌ سُمي مرَّةً للخلافة، فهو أولى ممن لم يُسمَّ، فأُحضِر القاهرُ وبويعَ، ولما استتبَّ له الأمر كان أول عمل قام به أن قَتَلَ مؤْنِساً.

ولم تحسن سيرته في ولايته، فهاج عليه الجند وخلعوه، وسَمَلوا عينيه، وهو أوَّل من سُمِل من الخلفاء، وذلك يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة، فكانت ولايته عاماً واحداً وستة أشهر، وحبس فترة ثم أطلق سراحه، فعاش خاملاً مُضاعاً فقيراً، إلى أَنْ ماتَ سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة، وله ثمانٌ وخَمْسونَ سنَةً.

ولاية الرّاضي

(٣٢٢-٣٢٩هـ)

أبو العباس محمد بن جعفر المقتدر، ولي بعد عمه القاهر، فأقام والياً إلى أَنْ ماتَ ليلة السبت النصف من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وكانت ولايته سبع سنين، وسنُّه إحدى وثلاثين سنة.

وفي أيامه كثر المتغلبون[1]، فتغلب على كل ناحية مُتغلب، ومنهم الأخشيديون الذين تغلَّبوا على مصر خلَفاً للطولونيين.

ولاية المتّقي (٣٢٩-٣٣٣هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر، ولي بعد أخيه الراضي.

أقام والياً إلى أَنْ انخلع، وسُمِلَتْ عيناه، لسبع بقين من صفر، سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة، أمر بذلك توزون التركي إذ قام عليه، فكانت ولايته أربع سنين غير شهر.

وكان رجلاً صالحاً إلا أنه لم يتمكن من ولاية الأمور.

---

[1] أمثال بني حمدان في حلب وبني بويه وغيرهم.

وعاش مخلوعاً إلى أَنْ ماتَ سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة. وسنُّه حين موته سبع وأربعون سنة.

ولايةالمُسْتَكْفي (٣٣٣-٣٣٤هـ)

أبو القاسم عبد الله المستكفي بن عليّ المكتفي.

ولي بعد ابن عمِّه إبراهيم المتقي.

فأقام والياً إلى أَنْ خُلِع وسُمِلت عيناه في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة، بأمر أحمد ابن بويه الديلمي الأقطع، إذْ دخل بغداد وتغلَّب على الخلافة.

وكانت ولايته سبعة عشر شهراً، وعاش مخلوعاً إلى أَنْ ماتَ سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة، وسنُّه إذ مات إحدى وخمسون سنة وشهور.

وفي أيامه انتهى نفوذ التُّرك في الخلافة، وبدأ نفوذ الديالمة من بني بويه.

ب – نفوذ البويهيين (٣٢٠ – ٤٤٧ هـ)

آل بويه، ينحدرون من بلاد الديلم جنوب بحر قزوين، وهم شيعة، وأول من برز منهم بويه بن شجاع، وكان فقيراً، صياد سمك، وكان أبناؤه أحمد وحسن وعليّ جنوداً في جيش أحد زعماء الديلم، وتدرجوا حتى صاروا أمراء في الجيش، ثم غلبوا على بلاد الديلم فاستولى على الأهواز والكرج وأصبهان والري وهمذان. حيث تعاظم نفوذهم ووصلوا إلى قمة المجد والسلطان والنفوذ، وسيطروا على مساحة شاسعة من أملاك الدولة العباسية.

امتد نفوذ البويهيين إلى بغداد نفسها معقل الخليفة العباسي، وأصبحوا يتحكمون في خلفاء العباسيين ويهينونهم، ويعينونهم ويخلعونهم كيفما شاءوا!. ولم يبق للخلفاء معهم نفوذ ولا سلطان، وذهبت هيبة الخلافة طيلة هذا العهد، وأصبح مصير العالم الإسلامي مرتبطاً بهؤلاء السلاطين الجدد.

وأبرز حكامهم أبناء بويه بن شجاع:

- عماد الدولة علي:

حكم فارس وله الإشراف والسلطان العام (٣٢٠ – ٣٣٨ هـ).

- ركن الدولة حسن:

حكم الري وهمذان وأصفهان وطبرستان (٣٢٠ – ٣٦٦ هـ).

- معز الدولة أحمد:

حكم العراق والأهواز وكرمان وواسط (٣٢٠ – ٣٥٦ هـ).

ثم انتهت السلطة إلى عضد الدولة (بن ركن الدولة)، وفي عهده بلغ بنو بويه أقصى درجات سلطانهم، وبعد وفاته دبت الحروب بين أبنائه الثلاثة، واستمرت بين أخلافهم

إلى نهاية دولتهم، وكان آخرهم (الملك الرحيم) ففي أخر أيامه حدثت فتنة البساسيري فدخل السلاجقة بغداد فقتلوا البساسيري وسجنوا الملك الرحيم، وأنهوا النفوذ البويهي في حاضرة الخلافة وبدأ يسطع في سمائها نجم السلاجقة.

وفي أيامهم تتابع على كرسي الخلافة في بغداد كل من:

ولاية المطيع

(٣٣٤-٣٦٣هـ)

أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر، ولي ابن عمه بعد المستكفي، سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة، فأقام والياً صورة ليس له من أمر الخلافة إلا الاسم إلى أَنْ فلج، وتخلى لابنه عن الأمر، وذلك سنة ثلاث وستين وثلاثمئة، فكانت مدة ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر، وتوفي سنة أربع وستين وثلاثمئة وله أربع وستون سنة.

وفي أيامه ضعُفت الخلافة ووهت، فقد استمر سلطان العراق لعز الدولة بختيار بن معز الدولة ثاني سلاطين الدَّيالِمَة في بغداد.

أهم الأحداث:

- امتداد نفوذ الفاطميين إلى مصر والشام كلها ومكة والمدينة.
- غلب الروم على إقْريطش والثغور الشامية وبعض الجزيرة.

ولاية الطائع (٣٦٣-٣٨٠هـ)

أبو بكر عبد الكريم، ولي بعد والده المطيع، وبقي خليفة إِلى أَنْ خُلِع وسملت عيناه، سنة ثمانين وثلاثمئة، تولى خلعه وسَمْلَه خسرو فيروز البويهي، فكانت ولايته ستة عشر عاماً وأشهراً، وعاش بعد ذلك إِلى أَنْ ماتَ سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة.

وفي أيامه ردَّ القرامطة الحجرَ الأَسودَ إِلى مكانِه من الكعبةِ، وذلك في عام تسع وستين وثلاثمئة (٣٦٩هـ).

هذا وقد توالى على سلطان العراق في زمانه من آل بويه كل من:

١ – عز الدولة إِلى سنة (٣٦٧هـ) حيث خلعه ابنُ عمِّه عضد الدولة.

٢ – عضد الدولة فنا خسرو بن حسن إِلى سنة (٣٧٢هـ).

٣ – صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة إِلى سنة (٣٧٦هـ).

٤ – شرف الدولة أبو الفوارس سيرزيل بن عضد الدولة إِلى سنة (٣٩٧هـ).

٥ – بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة ، وهو الذي تولى خلع الطائع كما تقدَّم.

ولاية القادر (٣٨٠-٤٢٢هـ)

أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر المقتدر، تولى بعد ابن عمه الطائع، وأقام والياً إِلى أَنْ ماتَ سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وقد بقي خليفة أكثر من أربعين سنة، ومات وهو ابن ثلاث وتسعين سنة.

في أواخر أيَّامه توازع الأندلس ملوك الطَّوائف، وبدأَ حال المسلمين فيها بالانحدار والتفكُّك، وانحسار ملكهم رويداً رويداً.

كان القادر صالحاً وله اشتغال بالعلم، وقد ترجمه الخطيب البغدادي في تاريخه[1] فقال: "رأيت القادر بالله دفعات، وكان أبيض حسن الجسم، كثَّ اللِّحية طويلها، مخضباً، وكان من الستر والديانة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البر والصدقات على صفة اشتهرت عنه وعرف بها عند كل أحد، مع حسن المذهب، وصحَّة الاعتقاد، وكان صنَّف كتاباً في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وأورد في كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز ..."

وقد ملك العراق في زمنه من سلاطين بني بويه:

١ – بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة إلى سنة (٤٠٣هـ). ومن بعده أولاده الثَّلاثة:

٢ – سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة إلى سنة (٤١٢هـ).

٣ – شرف الدولة عليّ بن بهاء الدولة إلى سنة (٤١٦هـ).

٤ – جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة، وقد استمر سلطاناً إلى أيام القائم بأمر الله.

ولاية القائم بأمرِ الله (٤٢٢-٤٦٧هـ)

أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله، ولي بعد أبيه القادر بالله، فأقام والياً إلى أَنْ ماتَ سنة سبع وستين وأربعمائة، وكانت خلافته خمساً وأربعين سنة.

وفي أيامه:

= مَلكَ المرابطون المغرب والأندلس.

---

[1] تاريخ بغداد (٤/ ٣٧)

= وغربت شمس الدولة البويهية على يد السلاجقة.

وقد ملك بغداد في أيامه من بني بويه كل من:

١ – جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة إلى سنة (٤٣٥هـ).

٢ – محيي الدين أبو كاليجار المرزباني بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة إلى سنة (٤٤٠هـ).

٣ – الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز، وبه انتهى سلطان البويهيين وانتقل النفوذ إلى السلاجقة على يد طغرل بك، وذلك في الخامس والعشرين من المحرم سن (٤٤٨هـ).

وأما سلاطين السَّلاجقة أيام القائم بأمر الله فهم:

١ – طغرل بك محمد بن ميكائيل بن أرسلان بن سلجوق بن دُقاق إلى سنة (٤٣٨ هـ).

٢ – ركن الدين أبو طالب بن طغرل بك إلى سنة (٤٥٥هـ)، ولم تطل مدَّته.

٣ – ألب أرسلان عضد الدولة أبو شجاع محمد بن جغري بن داود بن ميكائيل إلى سنة (٤٦٥هـ).

ويعد ألب أرسلان واسطة العقد في عصر النفوذ السلجوقي، وفي أيامه وقعت معركة ملاذ كرد مع الروم، وكان عهده عهد نمو وارتقاء لا للسيف وحده بل للعلم أيضاً، فإن وزيره نظام الملك أسس في عهده المدرسة النظامية ببغداد التي درَّس فيها فيما بعد الإمام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) رحمه الله تعالى.

٤ – ملكشاه جلال الدولة أبو الفتح بن ألب أرسلان، ولأوائل سلطنته توفي الخليفة القائم بأمر الله.

جـ – النفوذ السلجوقي (٤٣٢ – ٥٤٧ هـ)

السَّلاجِقة من قبائل الغز الكبيرة من الترك، ينسبون إلى مقدَّمهم سُلجوق بن تقاق، كان يعيش في تركستان تحت حكم الأتراك الوثنيين، استنجد به السامانيون لردِّ غارات الترك عن بلادهم، فأمدَّهم بولده أرسلان، ومن بعده ميكائيل بن أرسلان.

خلَفَ ميكائيل ولداه طغرل بك، وداود بك، وزالت الدولة السامانية عام (٣٩٠ هـ)، فاستولى طغرل بك على مرو ونيسابور وجرجان وطبرستان وكرمان والديلم وخوارزم وأصفهان وغيرها من الأقاليم، وأعلن قيام دولتهم سنة (٤٣٢ هـ)، وقد تقاسم السلاجقة البلاد الواسعة التي سيطروا عليها[1]، وأصبح طغرل بك ملكاً عليهم جميعاً، واتَّخذ الريَّ عاصمةً له.

وفي سنة (٤٤٨ هـ) دخل طغرل بك بغداد وقبض على الملك الرحيم آخر سلاطين بني بويه، وبذلك انتهى نفوذ بني بويه وقضي على دولتهم، وأخذ مكانهم السَّلاجقةُ الذين أصبحوا أصحاب النفوذ في حاضرة الخلافة العباسية، وكان دخولهم إلى بغداد بسبب فتنة **البساسيري** – وهو أَنَّ أحد القواد الأتراك التَّابعينَ للملك الرحيم – كان قد تمرَّد على سيِّده وعلى الخليفة، وحاول أَنْ يستبدَّ بالأمر، وحصلت فتنةٌ عظيمةٌ في

---

[1] انقسمت الدولة السلجوقية في أوج امتدادها إلى خمسة بيوتات كبيرة:

١ – السلاجقة العظمى، وقد ملَكتْ خراسان والري والعراق والجزيرة وفارس والأهواز.

٢ – سلاجقة كرمان.

٣ – سلاجقة العراق وكردستان (تفرَّعوا عن السَّلاجقة العظام).

٤ – سلاجقة سوريا.

٥ – سلاجقة الروم (آسيا الصغرى).

بغداد، وكاد الخليفة (القائم) أَنْ يُقتَلَ فيها، فاستنجد بـ(طغرل بك السلجوقي) الذي قَدِم، وقضى على البساسيري، فخضع له الخليفة، واستمر السَّلاجقةُ سلاطين في بغداد إلى سنة (٥٨٣هـ) إلى زمن المقتفي لأَمرِ الله، حيث ضعف شأْنُهُم، واستقلَّ الخُلفاءُ بالأمر دونهم، إلى سقطت بغداد بيد التتار على ما سيأتي.

أبرز سلاطين السلاجقة:

- المؤسس ركن الدين طغرل بك (٤٣٢ - ٤٥٥ هـ)
- ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ)، وهو من أعظم سلاطينهم، وتمثل أيَّامه واسطة عقد دولتهم.
- ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ).

المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ)

أبو القاسم عبد الله بن أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله، ولي الخلافة بعد جده القائم بأمر الله، سنة (٤٦٧هـ)، وبقي إلى أنْ مات في المحرم من سنة (٤٨٧هـ)، فكانت مدَّته تسعةَ عشرَ عاماً وثمانية أشهر.

وقد كان المقتدي من خيرة بني العباس قويَّ النَّفس، عظيم الهمَّة، أصلح كثيراً من الأحوال والمفاسد التي كانت تجري في (بغداد) قبله.

وكان سلطان السَّلاجقة في عهده (ملكشاه بن أَلب أرسلان) الذي كان عادلاً، فاضلاً، شجاعاً صائب الرأْي والتَّدبير، ميمون النَّقيبة، وكذلك كان وزيره (نظام المُلك)، الذي كان معدوداً من العلماء الأجواد. توفي ملكشاه سنة (٤٨٥هـ).

وفي أيامه استولى الفرنج على (جزيرة صقليَّة) في سنة (٤٨٤هـ) .

المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ)

أبو العبّاس أحمد بن عبد الله المُقتدي بأمر الله، ولي الخلافة بعد أبيه المقتدي، وبقي إلى أنْ مات في ربيع الآخر سنة (٥١٢هـ) فكانت مدته أكثر من خمس وعشرين سنة، وله من العمر (٤١ سنة).

وتعاقب على سلطان العراق في زمنه ثلاثة من السَّلاجقة وهم :

١ – أبو المظفر بركيا روق بن ملكشاه: بقي حتى مات سنة (٤٩٧ هـ) ، وفي عهده بدأ الخلاف يدبُّ بين أفراد البيت السَّلجوقي .

٢ – محمد بن ملكشاه، واستمر ملكه حتى توفي سنة (٥١١هـ)، وعمره (٢٧) سنة وكان حسن السّيرة عادلاً .

٣ – مغيث الدّين والدُّنيا أبو القاسم محمود بن محمَّد بن ملكشاه، وخُطب له ببغداد من ١٣ محرم (٥١٢هـ) وعمره يومئذ (١٤) سنة .

وفي أيام المستظهر وقعت كثير من بلاد الشام في أيدي الصليبيين الفرنجة:

– فدخلوا (القدس) سنة (٤٩٢هـ) وقتلوا فيها من المسْلِميْنَ (٩٠ ألف نفس) في يومٍ واحدٍ وكانت مجزرةً رهيبةً.

– واستولوا على كلٍّ من (إنطاكية) ثمَّ (جبيل) و(عكا) سنة (٤٩٧هـ).

– وفي سنة (٥٠٢هـ) دخلوا إلى (طرابلس).

– وفي سنة (٥٠٤هـ) دخلوا (صيدا).

المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ)

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله، بويع بالخلافة بعد موت أبيه، وبقي إلى أنْ قُتل في يوم الأحد في ١٧ ذي القعدة سنة (٥٢٩هـ)، فكانت ولايته سبعةَ عشرَ سنة وسبعة أشهر، وكان له من العمر حين وفاته (٤٤) سنة.

كان (المسترشد) معدوداً من الفقهاء.

وفي أيامه:

- بدأ ظهور دولة الموحِّدين على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس.

- وأفضى سلطان العراق للسُّلطان (محمود بن محمَّد بن ملكشاه السلجوقي) حتى توفي سنة (٥٢٥هـ)، وأُقيم مكانه ابنه (داود بن محمود بن محمَّد) .

- وقعت حرب بين الخليفة، وبين السَّلطان (مسعود بن محمَّد بن ملكشاه)، وذلك في سنة (٥٢٩هـ)، وقد أُسر فيها الخليفة، وقُتل في أَسْره، وبقي القضيب والبردة عند السلطان (مسعود).

الراشد بالله (٥٢٩-٥٣٠هـ)

أبو جعفر المنْصور بن المُسترشد بالله.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه، وبقي خليفة إلى أَنْ أُفتي بخلعه في الثّامن من ذي الحجّة سنة (٥٣٠هـ)، فكانت مدته أحد عشرَ شهراً وأياماً.

مات مقتولاً في السادس والعشرين من رمضان سنة (٥٣٢هـ) بأصبهان، وله من العمر ثنتان وثلاثون سنةً.

وفي أيّامه كان سلطان السَّلاجقة منقسماً بين اثنين منهم:

١ – السُّلطان (داود بن محمود بن محمَّد) وكان الخليفة وملوك النَّواحي ومنهم (عماد الدّين زنكي) إلى جانبه .

٢ – السُّلطان (مسعود بن محمَّد) عمّ السُّلطان (داود) .

د – استقلال الخلفاء ببغداد إلى نهاية العباسيين

(٥٤٧ ــ ٦٥٦هـ)

تقدَّم أنَّه في زمن الراشد بالله انقسم سلطان السلاجقة، هذا الانقسام أدَّى إلى وقوع الوَهَنِ والضعف في البيت السُّلْجوقيِّ، هذا الضعف أفضى إلى فقدان نفوذهم في بغداد، فقد قام بشأن هذا الدولة في أيام المقتفي اثنان هما (مسعود بن محمود)، و(داود بن محمد) الذي كانت نهايته القتل، وبذلك لم يعدْ لأحدٍ من السلاطين نفوذ ببغداد، ورجع الأمر إلى الخليفة، وإن كان نفوذه لا يتعدى بغداد ومحيطها، حيث بلغ نفوذ الدُّويْلاتِ المُستقلَّة عن الخلافة أرجاء العالم الإسلامي، وبذلك بلغت الخلافة في بغداد منتهى الضعف الذي جعلها لا تستطيع الوقوف في وجه التَّيارِ المغولي الزَّاحف.

وخلفاء هذه المرحلة هم:

المُقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ)

هو أبو عبد الله محمَّد بن المُستَظهر بالله.

بويع بالخلافة بعد خلع ابن أَخيه، وبقي إلى أنْ مات في ربيع الأول سنة (٥٥٥هـ) ، فكانت مدّته (٢٤) سنة، وبضعة أشهرٍ، وله من العمر (٦٦) سنةً.

وفي أيّامه:

- كانت الحملة الصَّليبيَة الثّانية .
- وأُعيد القضيب والبردة إلى الخليفة بعد أنْ كانت عند السلطان (مسعود).
- ومات السلطان (مسعود) سنة (٥٤٧ هـ) .
- وكان السّلطان (داود) قد قُتل غيلة سنة (٥٣٨ هـ) .

– وفي سنة (٥٥٢ هـ) أَمر الخليفة بقلْع باب الكعبة، وأقام مكانه باباً مصفَّحاً بالفضَّة المذهَّبة، وعمل من الباب السّابق تابوتاً ليدفن فيه.

المُستنجِدُ بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ)

هو أبو المظفَّر يوسف بن المُقتفي لأمر الله.

بويع بالخلافة بعد أبيه، وبقي إلى أنْ مات في ربيع الآخر سنة (٥٦٦هـ) فكانت مدته (١١) سنة ، وله من العمر (٥٦) سنة.

وقد كان الخليفة (المُستنجد) متحلياً بالفهم، والذكاء، والرأي السديد، والفضل والأدب.

ولم يكن للسَّلاجقة في زمنه سلطان على (العراق) بل استقل بأمرها الخليفة.

وفي أيّامه استوزر (العاضِدُ) الفاطمي صاحب مصر (أَسد الدّين شيركوه الأيوبي) ثمَّ استوزر بعد (السُّلطان صلاح الدين يوسف الأيوبي) .

المُستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ)

هو أبو محمَّد الحسن بن المستنجد بالله.

بويع بالخلافة يوم موت أبيه، وبقي إلى أنْ مات في ذي القعدة سنة (٥٧٥هـ)، فكانت مدته (٩) سنين وأشهراً، وله من العمر (٣٩) سنة.

– وفي زمنه كانت وفاة آخر العبيديين الفاطميين بمصر، وبه انتهت دولتهم في (مصر)، وحكمها السلطان الأيوبي صلاح الدين، وذلك من بداية المحرم سنة (٥٦٧هـ).

– وغابت في أيامه شمس الدولة الزّنكية في الشام ومصر، وخلفهم الأيوبيون الذين امتد رواق حكمهم من الشام ومصر إلى اليمن.

وكانت أيام (المُستضيء) أيام عدلٍ وبذْلٍ وسخاءٍ.

الناصر لدين الله

(٥٧٥- ٦٢٢هـ)

هو أبو العبّاس أحمد بن المُستضيء بأمر الله.

بويع بالخلافة بعد أبيه، وبقي إلى أنْ مات آخر رمضان سنة (٦٢٢هـ)، فكانت مدته قريباً من (٤٧)، فهو أَطول الخلفاء العباسيين مدَّةً على الإطلاق، وله من العمر إذْ مات (٦٩) سنة.

وفي أيّامه:

– استردَّ (يوسف صلاح الدين الأيوبي) بيت المقدس من أيدي الصَّليبيين سنة (٥٨٣هـ) بعد أنْ بقيت في أيديهم (٩١) سنة.

– وفي سنة (٥٨٩ هـ) توفي السُّلطان الناصر (صلاح الدّين الأيوبي) رحمه الله.

– وفي سنة (٦٠١هـ) كانت الحملة الصَّليبية الرّابعة التي توجَّهت إلى (القسطنطينية) عاصمة الروم، ودخلتها، وبقيت (القسطنطينية) بيد الصليبيين حتى سنة (٦٦٠هـ).

– وكانت (الكعبة) تكسى ديباجاً أبيض من أيام (المأمون) إلى زمن (النّاصر) وفي أيام (النّاصر) كساها ديباجاً أخضر ، ثمَّ بعد ذلك كساها ديباجاً أسود.

الظاهر بأمر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ)

هو أبو نصر محمَّد بن النّاصر لدين الله.

بويع بالخلافة إذ مات أبوه، وبقي إلى أنْ مات في رجب من سنة (٦٢٣هـ)، فكانت مدته (٩) أشهر ونصف الشهر، له من العمر إذ توفي (٥٢) سنة.

كان (الظاهر) رجلاً صالحاً، عادلاً، أَبطل المفاسد وعمل على إبطال ما كان قبله من المظالم، حتى اعتُبر بحقٍّ من خيرة خلفاء بني العبّاس، وحتى قال فيه ابن كثير في (تاريخه): (أعاد سنَّة العُمرين، فلو قيل ما ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً).

المُستنصِرُ باللهِ (٦٢٣-٦٤٠هـ)

هو أبو جعفر المستنصر بن الظاهر بأمر الله.

بويع إذْ مات أبوه، وبقي إلى أنْ مات في جمادى الآخرة (٦٤٠هـ)، فكانت مدَّته (١٧) سنة تقريباً، وله من العمر (٥٢) سنة.

وفي أيامه:

- قويَ أَمرُ (المغول) بقيادة (جنكيز خان).

- وفي سنة (٦٢٥هـ) تسلَّم الصَّليبيون (القدس) صلحاً، سلَّمها لهم (الملك الكامل بن الملك العادل سيف الدّين) وهو ابن أَخ (صلاح الدّين الأيوبي) وكانت وفاة (الملك الكامل) سنة (٦٣٥هـ) وتولَّى بعده (الملك الصالح أَيوب)، ولم يلبث أَنِ استردَّ (بيت المقدس) من الصَّليبيين.

- وفي سنة (٦٤٨هـ)، كانت معركة المنصورة التي انهزم فيها الصليبيون شرَّ هزيمة، قتل منهم (٣٠ ألفاً)، وأُسِر ملك الفرنسيين (لويس التاسع)، وبقي في الأسر مع النُّبلاء الذين كانوا معه حتى دفع (الفدية)، ثمَّ أطلق سراحهم جميعاً.

– وفي السنة نفسها كانت نهاية (الدولة الأيوبية) بمصر على يد زعماء المماليك، بالاتفاق مع (شجرة الدُّر) زوجة (الملك الصالح أيوب)، الذي كان قد مات قبل معركة (المنصورة)، فاستلم مكانه ابنه (توران شاه)، فقاد معركة المنصورة ثمَّ قتله المماليك في (القاهرة).

المُستعصم بالله

(٦٤٠-٦٥٦هـ)

آخر الخلفاء العباسيين في بغداد

وهو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله.

بويع بالخلافة إذ مات أبوه ، وبقي إلى أنْ قتل بين يدي (هولاكو خان) ملك التَّتار في العشرين من محرم سنة (٦٥٦هـ).

وبذلك غابت شمس الخلافة العبّاسية عن (بغداد) لتنتقل إلى مصر.

كانت مدَّته في الخلافة (١٥) سنة و(٧) أشهر. وله من العمر إذْ قتل (٤٧) سنة.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

ثانياً: أهم الدول المستقلَّة

في العصر العباسي الثاني

استقلَّت دول كثيرة جداً في هذه الفترة (٢٤٧ – ٦٥٦ هـ)، وقد قام المستشرق زامباور برصد واستقراء تلك الدول والأسر التي حكمت في مؤلفه الشهير (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي)، كما جمع المستشرق أرنولد توينبي هذه الدول في كتابه (الدول الإسلامية)، وقد اقتصرت في هذه المذكرة على ذكر أهم هذه الدول، وأشهرها، وهي:

الدولة	المكان	فترة الدولة
الطولونية	مصر والشام	٢٥٤ – ٢٩٢ هـ
الفاطمية	شمال إفريقية وامتدت إلى مصر والشام	٢٩٧ – ٥٦٧ هـ
الحمدانية	الموصل وحلب	٣١٧ – ٣٩٤ هـ
الأخشيدية	مصر	٣٢٣ – ٣٥٨ هـ
ملوك الطوائف	الأندلس	٤٢٢ – ٤٨٤ هـ
المرابطون	المغرب والأندلس	٤٤٨ – ٥٤١ هـ
الموحدين	المغرب والأندلس	٥٤١ – ٦٧٤ هـ
الزنكية	الشام ومصر	٥٢١ – ٦٦٩ هـ
الأيوبية	مصر والشام اليمن	٥٦٧ – ٦٤٨ هـ

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الدولة الطولونية

تعدُّ الدولة الطولونية أول دولة تستقلُّ بمصر عن مركز الخلافة في بغداد، فقد عيَّنَ الخليفةُ العباسي المعتزُّ في عام (٢٥٤ هـ) أميراً تُركياً على مصر هو (بايكباك) وهو بدوره أناب عنه أحمد بن طولون (الذي كان أبوه من مماليك الترك، وكان رئيس حرس الخليفة المأمون).

استقل أحمد بمصر، وكوَّن جيشاً عظيماً، فاستولى على بلاد الشام، ثم زحف شمالاً إلى طرسوس، وتولى حماية الثغور من الروم، واستمر حكمه من سنة (٢٥٤ هـ) إلى أن توفي سنة (٢٧٠ هـ).

تولَّى خَمارويه بن أحمد بعد وفاة أبيه واستمر في حكمه من سنة (٢٧٠هـ) إلى سنة (٢٨٢ هـ) وقد جرَت بينه وبين الخليفة العباسي المعتمد عدة حروب، ثم تصالحا وتزوَّج الخليفةُ المعتضد بنتَ خمارويه.

تعتبر زيجة الخليفة المعتمد من قطر الندى ابنة خمارويه من أبرز الزِّيجات التي دوَّنها التَّاريخ لأُبَّهتِها وعظَمتِها، فلا يضاهيها في عظَمتِها ومواكبها وما أُنفقَ عليها إلَّا زواجُ الرَّشيدِ مِنْ زبيدة، وزواجِ المأمونِ من بوران، وقد أَفْقَرت هذه الزِّيْجة خَزينَةَ خَمارويه.

بعد خمارويه عمَّتِ الفَوضى في البِلادِ، إلى أَنْ انهارت الدولة عام (٢٩٢ هـ).

الدولة الفاطمية (العبيدية)

(٢٩٧ - ٥٦٧ هـ)

نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، حيث ذكر بعض المؤرخين أَنَّهُم ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ورجح كثير من المؤرخين عدم صحة نسبهم هذا وأَنَّهُم إنما ينتسبون إلى رجل فارسي اسمه عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي.

مؤسس هذه الدولة عبيد الله بن محمد المهدي، وإليه تنسب الدولة، وكان أبوه قد استطاع نشر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، ثم اليمامة والبحرين والسند ومصر والمغرب. ثم واصل عبيد الله طريق والده، ووسع نفوذه، وتصدى للهجمات والثورات حتى قبض عليه اليسع بن مدرار أمير سجلماسة وسجنه، واصل قائده أبو عبد الله الشيعي معاركه، ومدَّ نفوذه إلى أكثر أجزاء المغرب، ودخل أخيراً (رقادة) عام (٢٩٦ هـ). ثم سار إلى سجلماسة فهرب حاكمها.

فأطلق سيدَه عبيدَ الله من الأَسْرِ عام (٢٩٦ هـ) فبايعوه، وتلقب بخليفة المسْلِمِيْنَ وأمير المؤمنين، وواصل تمددَه، إلى أَنْ دان له الشمال الأفريقي كاملاً، واتخذ القيروان عاصمة ملكه، وفي عام (٣٠٤ هـ) بنى مدينة (المهدية) وجعلها عاصمته، مات سنة (٣٢٢ هـ)، فخلفه ابنه القائم.

وفي سنة (٣٥٨ هـ) تمكَّن القائد الفاطمي جوهر الصقلي من الاستيلاء على مصر سلماً بعد أن أنهى حكم الإخشيديين فيه، فأجرى الكثير من الإِصْلاحات الداخلية، ومن أبرز أعماله بناء مدينة القاهرة، وبناء الجامع الأزهر.

ثم انتقل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى القاهرة سنة (٣٦٢ هـ)، واتخذها عاصمة ملكه.

هذا وقد امتدت سيطرت الفاطميين فبلغت حدودها في أقصى اتساعها من نهر العاصي بالشام إلى حدود مراكش، ومن السودان إلى آسيا الصغرى. ففاقوا بذلك ممالك ذلك العصر، ثم دبَّ الوهن شيئا فشيئا حتى تسلط القادة على الخلفاء وحصل نزاع النفوذ بين القادة أنفسهم مما اضطر الخليفة الفاطمي العاضد أَنْ يستعين بنور الدين زنكي الذي أرسل له (أسد الدين شيركوه الأيوبي)[1] فاستوزه، ثم استوزر من بعده صلاح الدين الأيوبي، الذين بقي وزيراً إلى أَنْ توفي العاضد الفاطمي سنة (٥٦٧ هـ)، وبوفاة العاضد انتهت الدولة، واستقل السلطان صلاح الدين بالأمر.

ومن أبرز حكامها:

- عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ)
- القائم أبو القاسم محمد (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ).
- المعز لدين الله (٣٤٢ - ٣٦٥ هـ).
- العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ).
- الحاكم بأمر الله (٣٨٧ - ٤١١ هـ).

[1] وهو عمُّ السلطان النَّاصر صلاح الدين الأيوبي.

الدولة الحمدانية في الموصل وحلب

(٣١٧ - ٣٩٤ هـ)

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون التَّغْلبيِّ.

قام حمدان بدور هام في الحوادث السياسية في الموصل منذ عام (٢٦٠ هـ)، ثم اشتهر ابنه الحسين بن حمدان بحروبه ضد القرامطة، وعيَّن الخليفةُ المقتدر عبدَ الله بن حمدان على الموصل وما حولها عام (٢٩٢ هـ)، وبعد سيطرة بني بويه على مركز الخلافة طرَد معزُ الدولة البويهي الحمدانيين من الموصل، فذهبوا إلى حلب، وكان سيف الدولة الحمداني قد استقل بها عام (٣٣٣ هـ)، ثم استعادوا الموصل، ولكن دبَّ فيهم الضعف والتناحر إلى أَنْ أزال الأكراد دولتهم في الموصل عام (٣٨٠ هـ)، أما حلب فقد استقل بها سيف الدولة (٣٣٣ – ٣٥٦ هـ)، وقد كانت له وقائع كثيرة مشهورة مع البيزنطيين، وكان يوغل في بلاد الروم، وتولى بعده ابنه سعد الدولة، ثم ضعفت الدولة، واستمرت في الضعف حتى قضى عليها الفاطميون في حلب عام (٣٩٤ هـ).

أبرز الحكام:

- ناصر الدولة أبو محمد الحسن (٣٠٨ – ٣٥٨ هـ).
- سيف الدولة أبو المحاسن عليّ (٣٣٣ – ٣٥٦ هـ).
- سعد الدولة أبو المعالي شريف (٣٥٦ – ٣٨١ هـ).

الدولة الإخشيدية في مصر

(٣٢٣ - ٣٥٨ هـ)

يرجع أصل الإخشيديين إلى أتراك من فرغانة (من بلاد ما وراء النهر).

وقد أسس هذه الدولة محمد الإخشيد بن طغج، وكان من موالي ابن طولون فبعد الدولة الطولونية ظلَّت مصر تحت الخلافة العباسية مباشرة ٣٠ سنة (٢٩٢ – ٣٢٣ هـ)، فتولَّاها محمد الإخشيد من قبل الخليفةِ الرَّاضي.

ازدهرت مصر في عهد محمد الإخشيد، واستطاع أَنْ يضم بلادَ الشام، ثم ضمَّ الحجاز، وحاول سيف الدولة الحمداني انتزاع الشام منه ففشل.

بعد موت محمدٍ الإخشيد خلفه ابناه وكانا صغيرين، فكانا تحت وصاية مولاه كافور الذي كان عبداً حبشياً للإخشيدِ، فحكم الدولة واستبدَّ بالأمرِ دونهما، وحاربَ الحمدانيين، وراجَت التِّجارةُ في عَصْرِهِ، وشجَّعَ الأُدباءَ والشُّعراءَ – ومنهم أبو الطَّيبِ المتَنبيِّ –.

بعد وفاة كافور الإخشيدي ضعُفتِ الدولة، حتى قضى عليها الفاطميون عام (٣٥٨ هـ).

أبرز الحكام:

– محمد الأخشيد بن طغج (٣٣٤ – ٣٥٥ هـ).

– أبو المسك كافور (مولى الأخشيد) (٣٥٥ – ٣٥٨ هـ).

ملوك الطوائف في الأندلس

(٤٢٢ - ٤٨٤ هـ)

بعد أَنَّ ضعُفَتِ الدولة الأموية في الأندلس، استبدَّ العامريون بالسُّلطة وبدأ أُمراء الطوائف يستقلُّون بالإمارات التي يحكمونها، فعُرفوا بملوك الطوائف، وانقسموا إلى أكثر من ٢٠ دويلة، استبدَّ التَّناحر والنِّزاع فيما بينها وشهدت الأندلس اضطرابات وفوضى وكثرت الفتن.

* * *

أهم هذه الدويلات:

- الدولة **الزيرية:** في غرناطة (٤٠٣ - ٤٨٣ هـ) وهم من البربر.

- الدولة **الحمودية:** التي تنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء في الفترة (٤٠٧ - ٤٥٠ هـ) وهم شيعة ينتسبون إلى إدريس (من سلالة الحسن بن علي).

- الدولة **الهودية:** في سرقسطة (٤١٠ - ٥٣٦ هـ) وهم عرب.

- الدولة **العامرية:** في بلنسية (٤١٢ - ٤٧٨ هـ) وهم من موالي بني عامر.

- الدولة **العبادية:** في أشبيلية (٤١٤ - ٤٨٤ هـ) وهم عرب من بني لخم، وهي أشهر وأقوى هذه الدول، وأبرز حكامها المعتمد بن عباد.

- دولة **بني الأفطس**: في بطليوس (٤٢١ - ٤٨٧ هـ).

- الدولة **الجهورية**: في قرطبة (٤٢٢ - ٤٦١ هـ)، وقد قضى عليها بنو عبَّادٍ.

- دولة **ذي النون**: في طليطلة (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وهم بربر.

كانت هذه الدويلات ضعيفة ومتفرقة ومتناحرة، ولم يتوان بعضهم عن الاستنجاد بملوك الفرنجة ضدَّ إخوانِه المسْلِميْنَ.

دام أمرهم قرابة مئة سنة استطاع - في آخر الأمر - ملوكُ الإسبان أَنْ يجمعوا كلمتهم، فأخذوا يبتلعون هذه الإمارات، حتى بلغوا أشبيليه (أكبر الممالك الإسلامية بالأندلس)، فطلب حاكمها المعتمد بن عبَّاد النَّجدَة من يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب، ولما حذَّره بعض أتباعه من مغبةِ ذلك قال قولته المشهورة: "لأنْ أكونَ سائق جمال في صحراء أفريقية خير من أنْ أَرعى الخنازير في قشتالة"، فقَدِم يوسفُ بنُ تاشَفين، وهزمَ الإسبان، ومحا ملوك الطوائف ووحد الأندلس، فأصبحت جزءاً من دولة المرابطين.

دولة المرابطين في المغرب والأندلس

(٤٤٨ - ٥٤١ هـ)

المرابطون: بربرٌ من قبيلة لمتونة وهي فرع من صنهاجة، سموا بالمرابطين لأَنَّهُم تتلمذوا على يد عبد الله بن ياسين في الرِّباط الذي أنشأه للدرس والعبادة في صحراء المغرب، وكانوا يعرفون (بالملَثَّمينَ) أيضاً.

تولى أبو بكر بن عمر اللمتوني تنظيمهم والجهاد بهم، ففتح السوس والصامدة، وكان معه في الجيش ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي ارتفع شأنه، فاضطر أبو بكر أَنْ يتنازل له عن السلطة، وَهوَ أَوَّلُ ملِكٍ بَرْبَريٍّ حكَمَ المغْرِبَ (وكانَ جيْشُه خَليطاً مِنْ جَميعِ قَبائلِ المغْرِبِ) وَيُقالُ إِنَّه كانَ أَعْظَمَ الحُكَّامِ المسْلِميْنَ في عَصْرِهِ.

دخول الأندلس تحت حكم المرابطين:

استنجد المعتمد بن عباد حاكم أشبيليه في الأندلس بيوسف بن تاشفين ضد الإسبان، فزحف من فوره، والتقى بالنصارى بقيادة ملكهم الفونس السادس وهزمهم شر هزيمة في معركة الزلاقة الشهيرة عام (٤٧٩ هـ)، استولى بعدها على كل الأندلس، فوحدها وأزال ملوك الطوائف الضعفاء، فأصبحت الأندلس جزءاً من دولة المرابطين، وامتدت دولته في المغرب من تونس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومِنَ البحر المتوسط شمالاً إلى حدود السودان جنوباً، واختطَّ مدينة مراكش، وجعلها عاصمة مملكته.

بعد وفاة يوسف خلفه ابنه عليّ بن يوسف، فواصل جهاد والده وانتصر على نصارى الأسبان في **موقعة أقليش** عام (٥٠٢ هـ) وهي أعظم موقعة بعد موقعة الزلاقة بعد ذلك أخذت الدولة تضعف وتضمحل، حتى قضى عليها الموحِّدون سنة (٥٤١ هـ).

أبرز حكامها:

- يحيى بن عمر (مؤسس الدولة): توفي عام (٤٤٨ هـ).
- أبو بكر بن عمر (٤٤٨ - ٤٥٣ هـ).
- يوسف بن تاشفين (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ).
- عليّ بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ).

دولة الموحدين (المغرب والأندلس)

(٥٤١ - ٦٦٨ هـ)

بدأت على يدِ **محمد بن تومَرت** من قبيلة مصمودة.

كان ابن تومرت هذا قد ادعى **المهدوية** وعُرِف فيما بعد بـ(المهدي بن تومرت)، وادعى لنفسه العصمة.

بدأ المهدي بن تومرت دعوته في أغمات، فدعا إلى إزالة دولة المرابطين بسبب ظلمهم وتعسُّفهم وتخلِّيهم عن مبادئ الشريعة الإسلامية، وكانت للموحدين فلسفة في الحكم قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الزُّهد في الدنيا.

بعد وفاة المهدي بن تومرت تزعَّم الدولة **عبد المؤمن بن عليّ** الذي قضى على دولة المرابطين سنة (٥٤١ هـ)، واستطاع أَنْ يُخْضِعَ بلاد المغرب كلها تحت نفوذه، وتوفي في (٥٥٨ هـ).

أبرز من جاء بعد عبدِ المؤمن **يعقوبُ بن يوسف** الذي انتصر على النصارى في الأندلس انتصاراً ساحقاً في **معركة الأرك** سنة (٥٩١ هـ).

واستطاع يعقوب إخضاع معظم بلاد الأندلس تحت راية الموحِّدين، ولكن الموحِّدين عادوا فهُزِموا في موقعة **حصن العقاب** سنة (٦٠٩ هـ).

بدأت الدولة تضعف بسبب الحروب الداخلية بين زعمائها في الفترة (٦٠٩ – ٦٦٨ هـ) واستغلَّ الأسبانُ ذلك فاستولوا على معظم مدن الأندلس في هذه الفترة.

وأبرز حكام الموحدين:

- محمد بن تومرت (المهدي) (٥١٤ - ٥٢٤ هـ).
- عبد المؤمن بن عليّ (٥٢٤ - ٥٥٨ هـ).
- يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ).
- يعقوب بن يوسف (المنصور) (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ).

الدولة الزنكية (الشام ومصر)

(٥١١ - ٦٦٩ هـ)

وهم أتراك الأصل وينتسبون إلى السَّلاجقة (سلاجقة الشام)، وتعود هذه الدولة إلى **عماد الدين زنكي** بن آق سنقر، وكان أبوه مملوكاً لملك شاه السلجوقي، ومن كبار قواده، لما شبَّ عماد الدين ولاه السلطان السلجوقي تتش على الموصل سنة (٥٢١ هـ)، فكان له جهاد ضد الصليبيين طوال فترته (٥٢١ - ٥٤١ هـ) فاسترجع منهم الرّها وبعض المواقع.

بعد موت عماد الدين انقسمت مملكته بين ولديه:

- سيف الدين غازي بن عماد الدين (٥٤١ - ٥٤٤ هـ) الذي استقل بـ(الموصل) وتعاقب عليها ذريته، إلى أن قضى عليهم المغول بعد اجتياحهم بغداد، وذلك في سنة (٦٦٠ هـ).

- نور الدين محمود (الشهيد) (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) الذي حكم حلب وامتد حكمه إلى أكثر الشام ومصر، وهو أعظم ملوك هذه الدولة، وكان صلاح الدين الأيوبي من قواده، وكان صاحب القدم الراسخ في جهاد الصليبيين في الشام ومصر.

بعد موت نور الدين انتقل أمر السَّلطنةِ إلى السُّلطانِ النَّاصرِ صَلاح الدِّين.

الدولة الأيوبية (مصر والشام وغيرها)

(٥٦٧ - ٦٤٨ هـ)

الأيوبيون أسرة كردية من أذربيجان هاجرت إلى العراق.

مؤسس الدولة الأيوبية هو صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان والده (نجم الدين أيوب) والياً على تكريت ثم انتقل إلى الموصل فدمشق، ثم صار نجم الدين (والد صلاح الدين) وأخوه أسد الدين شيركوه من كبار أمراء نور الدين محمود الزنكي (صاحب الشام). وأصبح أسد الدين نائباً لنور الدين على مصر، وبعد موت أسد الدين خلفه ابن أخيه صلاح الدين. فكان وزيراً للعاضد الفاطمي، ونائباً عن نور الدين محمود، فلما مات العاضد آل أمر مصر إلى صلاح الدين.

بعد وفاة نور الدين أخذ صلاح الدين دمشق وكثيراً من بلاد الشام (٥٦٩ - ٥٧١ هـ) وأرسل أخاه توران شاه فأخضع كلَّ بلاد اليمن سنة (٥٦٩ هـ).

بذلك كوَّن صلاح الدين جبهة موحَّدة قوية بعد أنْ عانى المسلمون طويلاً مِنَ الفُرقة والضعف والتشتت، فوقف بهذا الجيش في وجه الصليبيين، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في موقعة حطين المشهورة سنة (٥٨٣ هـ) التي استرجع على إثرها بيت المقدس وأخرج المحتَلِّين الصليبيين من معظم بلاد الشام بعد احتلال تجاوز التسعين عاماً.

هذا وقد امتدَّ نفوذ صلاح الدين إلى سواحل طرابلس وتونس وبلاد النوبة والسودان، والحجاز واليمن.

بقيت الدولة الأيوبية قويَّة مرهوبة الجانب إلى أَنْ توفي صلاح الدين سنة (٥٨٩ هـ).

كان صلاح الدين معروفاً بالعدل والتَّسامح والكرم، والزهد والقناعة.

ولم يكن من جاء بعده مثله فأخذت الدولة في الانحدار، وانتهت بموت آخر ملوكها الملك الصالح نجم الدين قبيل (معركة المنصورة) مع الصَّليبيين في دمياط التي قادها ابنه توران شاه، وبعد المعركة قتله المماليك عام (٦٤٨ هـ) وولَّوا عليهم زوجة نجم الدين المملوكة شجرة الدر.

وبذلك انتهت الدولة الأيوبية وقامت على أنقاضها دولة المماليك.

ثالثاً – أهم الأحداث

أ–الثورات

١ – فتنة الـــزَّنج (٢٥٥ – ٢٧٠ هـ)

الـزَّنْج: طائفـة مِـنَ العبيـد كـانوا يعملـون في سـواد العـراق، أثـاروا الخـوف والرعـب في حاضـرة الدولـة العباسـية أكثـر مـن (١٤ عامـاً)، كـان يقـودهم رجـلٌ يُدعى **عليّ بـن محمـد**، مـن أهـالي الطالقـان، ادَّعـى أَوَّلاً أنـه مـن ولـد عليّ زيـن العابـدين بـن الحسـين، ثم بـدأ يظهـر بعـض المخـاريق الـتي سـيطر مـن خلالهـا علـى العقـول، ثمَّ مـا لَبِـثَ أَنِ ادَّعـى مَعرِفـةَ الغيْـبِ والنُّبـوَّةِ، وجهَـرَ بمـزيجٍ مـنَ العَقائـدِ والبِـدعِ، مزَجَهـا بالـدَّعوةِ إِلى تَحْريـرِ العَبيـدِ حـتَّى يَسـتَميلَهُم إلى صـفِّهِ، فانضـمَّ إِلَيْـهِ الكَثـيرونَ، فَقويَـتْ شَـوْكَتُه، بعـد أَنْ مَنَّـاهُم بـأَنْ يَجعلَهـم سـادةً ويَجعـلَ مِـنْ سـادَتِهِم عَبيْداً.

كـان ابتِـداءُ ظُهـورِهِ في رمضـان سـنَةَ (٢٥٥هـ)، وبَـنى لنفْسِـه مَدينـةً مُحصَّـنةً غايـةَ التَّحْصـينِ سمَّاهـا (الـمُخْتارَة) وجعَلَهـا قاعِـدَةً لِمُلْكِـهِ، وانتَشـرَتْ جُيوشُـه في العِـراقِ وخوزسْـتان والبَحـرَيْنِ، واسـتَوْلَوا علـى سُـفُنِ الحُجّـاجِ، وكـانوا يُـدمِّرونَ المـدُنَ ويَـذْبَحونَ سُـكَّانَها بعْـدَ سَـبي نِسـائها، فمِـنْ ذَلِـكَ أَنَّهـم دخلـوا البَصْـرَة سـنة (٢٥٦هـ) وخرَّبوهـا عـن آخرهـا وأحرقوهـا، وقتلـوا مـن أهلِهـا في يـوم واحـد ثلاثمئـة ألـف إنسـان، وقـد حقَّقـوا انتصـارات كبـيرة علـى جـيش العباسـيين في مواقـع كثـيرة جـدّاً، وتمـدَّد نفـوذهم حـتى اسـتولوا علـى مدينـة الأُبلَّـة الفارسـية، والأهـواز، وعبـادان، وواسـط عـام (٢٦٧ هـ)، وبلغـوا حـدود بغـداد وكـادوا أَنْ يـدخلوها،

وأصاب النّاس فزع خوفٌ شديد فأقبلوا إلى مدينة بغداد هاربين من بطش الزَّنج.

تصدَّى لحرب الزَّنْج الموفَّقُ بالله العباسيُّ[1]، فأجلاهم عن الأهواز، وغيرها مِنَ المناطق والمدن التي استولوا عليها، ودمَّر المدنَ التي قام صاحبُ الزَّنْج ببنائها، إلى أَنْ حاصر حاضرة ملكه (المختارة)، وتمكَّن من قتله، وتفرَّق من معه.

وانتهت تلك الفتنه في صفر عام (٢٧٠ هـ).

وقدَّر ابن طباطبا[2] عددَ الذين قضوا قتلاً في هذه الفتنة بمليونين ونصف المليون.

وأمّا السيوطي[3] فقدر عددهم بمليون ونصف المليون.

---

[1] هو أخ الخليفة المعتمد، ووالد المعتضد، واسمه طَلْحَة بن المتوكل، ولم يل الخلافة، وكانت له همة عالية في إسكان الفتن التي وقعت أيام أخيه، قال ابن كثير في ترجمته: كان غزير العقل، حسن التدبير، ... عالماً بالأدب، والنسب، والفقه، وسياسة الملك. (ت: ٢٧٨هـ) قبل أخيه المعتمد بستة أشهر.

[2] في الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: (٢٢١).

[3] في تاريخ الخلفاء: (٢٢٤).

٢ - الحركة القرمطية

(٢٨٧ - ٤٧٠ هـ)

وهم فرقة دينية، تستند في مبدئها الأساسي إلى أَنَّ لكل ظاهر باطن، فآيات القرآن لها ظاهر ولها باطن، ولا يَعْرِفُ هذا الباطن إلا الإمام، وهذا المذهب ينحدر مِنَ الفكر الفارسي.

وقد ادَّعوا في بِدايتِهم التَّشيُّعَ إلى الإِسْماعيليةِ، ثم دَعوا إلى أنفسهم وتفرَّقوا إلى فرق.

ينتسب القرامطةُ إلى مؤسس دولتهم **حمدان بن الأشعث** الملقب بـ (**قرمط**)، وهو يمني الأصل تلقى الباطنية من فارسي يدعى حسين الأهوازي، وقد تزعَّم الحركة في الكوفة سنة (٢٨٧ هـ).

وامتد نشاطهم إلى الشام والخليج العربي ثم اليمن والحجاز.

استطاع الخليفة العباسي المعتضد أَنْ يقضي عليهم قضاءً مبرماً في العراق ثم في الشام بعد عدَّة حروبٍ طاحنةٍ وبقيت أكبر قوة لهم في البحرين والأحساء.

وكان أول دعاتهم في البحرين أبو سعيد حسين الجنابي (٢٨٧ - ٣٠١ هـ) وبنى ابنه سليمان (٣٠١ - ٣٣٢ هـ) مدينة الأحساء على أنقاض هَجَر عام (٣١٧ هـ)، وجعلها عاصمتها وارتكب مذابح عظيمة في البَصْرَة والكوفة.

وفي عام (٣١٧ هـ) هاجم مكة والمدينة، فدخل مكَّة المكرَّمة أيام الحج وارتكب مذبحة عظيمة فقتل الحُجّاجَ ورمى بجثثهم في بئر زمزم، ثم اقتلع

الحجر الأسود، وجرَّد الكعبة من كسوتها وحمل ذلك إلى القطيف. وظل هناك إلى أَنْ أعادوه بشفاعة حاكم مصر الفاطمي عام (٣٣٩ هـ).

نهاية القرامطة:

في عام (٤٦٢ هـ) انتصر عليهم عبد الله العيوني بمساعدة العباسيين والسَّلاجقة فأخرجهم مِنَ البحرين، وأخيراً حدثت في الأحساء معركة الخندق فقضت على دولة القرامطة نهائياً عام (٤٧٠ هـ)، وحلَّت محلَّها الدولة العيونية[1].

[1] العيونيون فرع من قبيلة بني عبد القيس، سكنوا الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية (الإحساء)، ثار عبد الله بن عليّ العيوني على القرامطة الذين كانوا يحكمون المنطقة، فتمكَّن من القضاء عليهم بمساعدة العباسيين والسلاجقة في الفترة (٤٦٦ – ٤٧٠ هـ) فأخرجهم من المنطقة نهائياً، وخضعت له المنطقة كلها، توالى بعده أمراء ضعفاء كثُرت بينهم الفتن والمؤامرات إلى أَنْ انتهى أمرهم سنة (٦٣٦ هـ).

ب – المعارك الكبرى

١ – معركة ملاذ كرد (٤٦٣ هـ)

وقعت بين السلاجقة المسْلِميْنَ بقيادة آلب أرسلان، والروم البيزنطيين، انتصر المسلمون انتصاراً عظيماً، وسيطروا على آسيا الصغرى، فضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف كم٢. وطرد سلطان الروم من آسيا نهائياً.

وتعد هذه المعركة نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ غربي آسيا بصفة خاصة، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم في أكثر أجزاء آسيا الصغرى.

وفتحت الطريق لزحف جديد. وقد كان ذلك مثيراً لأوروبا. فكان مِنَ العوامل التي سببت الحروب الصليبية.

٢ – الحروب الصليبية

(٤٨٩ - ٦٩٢ هـ)

هي الحملات التي وجهها المسيحيون في أوروبا إلى الشرق للاستيلاء على بيت المقدس، وكان البابا هو الذي يثير الحماس ويدعو للقتال.

أسباب الحملات الصليبية:

- أخذت تسميتها مِنَ الصَّليب دلالة على أَنَّ الدّين كان من أهم أسبابها.
- رغبة البابوية المسيحية بالقضاء على الإسلام.
- أسباب تجارية: الرغبة في امتلاك موانئ على البحر المتوسط لربط تجارتهم بالشرق.

– انتشار الحروب والمجاعات والأمراض والإقطاع في أوروبا جعلهم يبحثون عن أرض غنية.

– انحلال وضعف وتفرق الجبهة الإسلامية.

– انتقاماً لهزيمة البيزنطيين المروعة في معركة ملاذ كرد سنة (٤٦٣ هـ).

– قَدِمت الحملة الأولى (٤٨٩ هـ) فتصدَّى لهم السلاجقة وأفنوهم.

– استطاعوا الاستيلاء على بيت المقدس ومعظم بلاد الشام عام (٤٩٣ هـ).

– ارتكبوا مجزرة أليمة وحشية، حيث أبادوا جميع سكان القدس مِنَ المسْلِميْنَ واليهود وخوارج النصارى، واستولوا على جميع ممتلكاتهم، وأقاموا إمارات في المدن التالية: (الرها، انطاكية، بيت المقدس، طرابلس).

– ثم تتالت الحملات من أوروبا، وأشهرها وأهمها الحملات السبعة.

الجهاد ضد الصليبيين:

١ – الدور الجهادي للدولة الزنكية:

تصدَّى لهم عماد الدين زنكي في الفترة (٥٢١ – ٥٤١ هـ) في بلاد الشام فوحَّد صفوف المسْلِميْنَ، واستردَّ الرها وهدد بعض المدن.

ثم واصل ابنه نور الدين محمود الجهاد في الفترة (٥٤١ – ٥٦٩ هـ) يساعده أخوه سيف الدين غازي.

وكان مجال الجهاد في بلاد الشام ومصر واستطاعوا حفظ دمشق وحلب مِنَ الاحتلال.

٢ – الدَّور الجهادي للدولة الأيوبية:

يعدُّ السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي من أعظم قواد وأبطال المسْلِميْنَ الذين أَبْلَوا بلاءً حسناً في حرب الصليبيين. وقد استطاع صلاح الدين أَنْ يحقق عليهم

انتصارات ساحقة، في معارك كثيرة، كان من أهمها على الإطلاق معركة حطين عام (٥٨٣ هـ)، التي تعدُّ من أشهر المعارك في تاريخ العالم، وقد استردَّ صلاح الدين على إثرها بيت المقدس، ومعظم بلاد الشام.

٣ – الدَّور الجهادي للمماليك:

بعد صلاح الدين الأيوبي جاءت العديد مِنَ الحملات المسيحية، ولكنها باءت كلها بالفشل، كان آخرها حملة لويس التاسع ملك فرنسا على دمياط بمصر عام (٦٤٩ هـ)، فتصدَّى له توران شاه الأيوبي، وهزمهم بمساعدة المماليك.

ثم حمل المماليك راية الجهاد ضدهم إلى أَنْ أخرجوهم مِنَ الشرق الإسلامي كلياً عام (٧٠٢ هـ).

وكان الظَّاهر بيبرس وهو أعظم سلاطين المماليك، وأبرز من وقف في وجه الصليبيين واسترد منهم معظم مدن الشام، ومن بعده قلاوون، والأشرف خليل، وبرسباي.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الغزو المغولي ونهاية الخلافة العباسية

(٦٥٦ هـ)

المغول هم شعب من أواسط آسيا، وموطنهم منغوليا بأطراف الصين. ويشكلون مجموعات كبيرة مِنَ القبائل المتفرقة وحَّدهم (جنكيز خان) (٦٠٣ - ٦٢٤ هـ) واتَّخذ (قره قورم) عاصمة له.

وهم بدو صحراويين يحبُّون الحرب والسَّلْبَ وسفك الدِّماء، ويعبدون الأوثان والكواكب والشمس.

المغول في بلاد الإسلام:

تمهيداً للقضاء على بغداد والخلافة الإسلامية استولى المغول على بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس، وقضوا على الدول التي كانت تقوم في تلك الأصقاع، واستولوا على آسيا الصغرى، فأصبحت طريق بغداد ممهدة أمامهم.

تدمير بغداد وقتل الخليفة:

هاجم هولاكو بغداد بجيش عرمرم، فانتصر منذ الجولة الأولى، واستسلم الخليفةُ (المستعصم باللهِ)، وخرج إلى معسكر المغول، ثم خرجَ القادة والفقهاء والأعيان، فخلت بغداد مِنَ المدافعين، وقتل هولاكو الخليفة ومن معه شرَّ قتله، وذلك في العشرين من محرم سنة (٦٥٦هـ)، وأذن هولاكو لجيشه باستباحة بغداد، فدمروها وأحرقوها، واستمرَّ السَّلبُ والقتل حوالي (٤٠) يوماً، وبلغ عدد القتلى قرابة المليونين (كما ذكر بعض المؤرخين).

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى دورٍ مشبوه لابن العَلقميِّ وزير المُستعصم إذ تَقولُ تلك المصادر أنَّه تواطأَ مع المغول وساعدهم في أَعمالهم، أَملاً في أَنْ يعيِّنوه حاكماً على بغداد، إلَّا أنَّه لم ينلْ مُبتغاه.

انتهت بذلك الخِلافة العباسيَّة في بغداد سنة (٦٥٦ هـ)، لتنتقل بعد ثلاث سنين إلى القاهرة، حيث أَحييت رسومها على يد السُّلطان المَمْلوكي الظَّاهرِ **بيبرس**.

أسباب وعوامل انهيار الدولة العباسية:

نلاحظ كثرة الأحداث التي مرت بالعالم الإسلامي خلال فترة الدولة العباسية.

وكثرة الدول التي استقلت وعلا شأنها، ثم انطفأت واختفت مِنَ الوجود.

ولاحظنا أَنَّ الدولة العباسية مرت بفترات قوة كانت السيطرة فيها بيد الخلفاء.

ثم أخذ خطها البياني في الانحدار إلى أَنْ دمرها المغول في النهاية.

فيا ترى ما هي أسباب انهيار الدولة العباسية. قد تكون أهم عوامل الانهيار ما يلي:

١ – كثرة الثورات وحركات التمرد الديني كفتنة الزنوج وحركة القرامطة.

٢ – تسلط القادة العسكريين على الخلافة.

٣ – طغيان المظاهر المادية والحضارية. وميل النّاس إلى الترف والدعة.

٤ – المدُّ المغولي المدمِّر، وهو القشَّة التي قصَمَتْ ظهْرَ البَعيرِ.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

إعداد الدكتور
بـديـع السـيد اللحـام

محاضرات في التاريخ الإسلامي

2019 - 2020

Damascus University

سعر المبيع : (٩٠٠) ل.س